الجامعة الأميركية في بيروت

الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث

الجزء الثّاني

أنيس الخوري المقدسي



الاتجاهات الأدبية
في العالم العربي الحديث

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعَّالة
في النهضة العربية الحديثة ولظواهرها الادبية
الرئيسية

انيس الخوري المقدسي

استاذ شرف للادب العربي في جامعة بيروت الاميركية
وعضو المجمع العلمي العربي

الجزء الثاني

الطبعة الاولى ١٩٥٢

جامعة بيروت الأميركية

منشورات كلية العلوم والآداب



سلسلة العلوم الشرقية :

الحلقة الثالثة والعشرون [1]

---

(١) وقع خطأ في ترقيم الجزء الاول من هذا الكتاب بالحلقة الحادية والعشرين من هذه السلسلة وصوابه « الحلقة الثانية والعشرون »

الاتجاه الاجتماعي

ويتناول النهضة الاجتماعية في العالم العربي
وما ينعكس عنها من آثار ادبيّة

توطئة

كان الادب القديم عموماً يعيش في كنف الملوك والامراء او من يتصل بهم من ارباب الثروة والجاه . فمنذ استقرار الملك العربي في دمشق ايام الامويين ثم في بغداد ايام العباسيين نرى الشعراء يقفون على ابواب الخلفاء او يقصدون بعض رجال الدولة من العمال والوزراء . ولما ضعف شأن الخلافة ونشأت مع الزمان امارات مستقلة صار لكل امارة ادباء يستظلون بها ويعيشون في اكنافها كالبويهية في فارس والعراق، والحمدانية في حلب، والاخشيدية فالفاطمية فالايوبية في مصر والشام، وملوك الطوائف في الاندلس . وظل الامر على هذا المنوال حتى اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر . وليس بعيداً عنا عهد الامير بشير الشهابي والخديوي اسماعيل والشيخ ابي الهدى الصيادي والامير عباس الثاني وسواهم من ارباب الامر والمال ومن كان يقصدهم او يلتف حولهم من الكتبة والشعراء . فلا جرم كان الادب قديماً، وخصوصا الشعر منه، ارستوقراطي النزعة يحوم حول البلاط الملكي او البهو الاميري متزلفاً الى ذوي الشان متغنياً بوقائعهم وناشراً في الملأ محامدهم .

اما الشعب فلم يكن ذا منزلة كبيرة عنده ، اذ كان الملك او الامير هو محور الحياة السياسية والاجتماعية وعليه لا على الجمهور كان يتوقف رواج البضائع الادبية . فهو يغدق العطايا على الشاعر او الكاتب وله كانت تصنَّف الكتب وتنظم القصائد . واذا جاز لنا ان نستثني من ذلك فئة من ادباء الاجيال الماضية كالشريف الرضي وابي العلاء المعري وابن الفارض وامثالهم فان السواد الاعظم داخل فيه وهو اساس حكمنا في هذا الامر . ومنذ اواخر القرن الماضي اخذت

الثقافة الجديدة تنتشر في البلدان العربية التي اتيح لها الاحتكاك بالعالم الغربي فنهضت شعوبها بعد سبات عميق وكانت نهضتها ترتكز على اربع قوى رئيسية هي المدارس الحديثة والمطابع والصحف والجمعيات . هذه القوى الاربع جعلت الشعب اليوم غير ما كان عليه آباؤه وجدوده . فالمدارس تقدم له وسائل التهذيب العلمي، والمطابع والصحف تنشر بين طبقاته ثمار الافكار والاختبارات ، والجمعيات تعمل على تدريبه وتنظيمه . وجميعها تشترك في تحرير الادب من ربقة البلاط والسيطرة الاقطاعية وتوجيهه نحو المسائل العمومية والمشاكل الشعبية .

فالشعب اليوم قوة لا يستهان بها . وهو عند التحقيق معتمد الادب الاكبر ومصدر نشاطه الاغزر . ومهما يكن نفوذ ذوي السلطة فيه فان الجمهور هو الذي يغذيه . لاجله ينظم الشعراء ويكتب الكتّاب وعليه تقوم الجمعيات والمعاهد والاحزاب ، بل هو المرجع الاخير لكل سلطة حكومية مهما كان نوعها ومهما بلغ شأنها . وقد اصاب من قال «ان ادبنا الحديث ادب ديموقراطي فبعد ان كان الاديب يعيش على موائد الامراء ومن عطائهم وهباتهم اصبح يعيش على موائد الشعب ومن عطائه وهباته »[1]. وانك لترى هذه النزعة الشعبية الحديثة اذا رجعت الى مواضيع الادب الحديث وقابلتها بمواضيع الادب القديم . ونحن لا نزعم ان القديم خالٍ تمام الخلو من كل ما يمتّ الى الشعب بصلة ، فقد ترى مثلًا في بعض كتابات الجاحظ وبديع الزمان شيئاً من ذلك . ولكن اكثره وصفي قلما يعنى بحاجة الجمهور محللًا ادواءه الاجتماعية والسياسية . ولعل ابا العلاء المعري هو الوحيد بين الشعراء القدماء في نظره الى بيئته الاجتماعية والشعور بفسادها . على اننا لا نرى له في لزومياته سوى نفثات مُرّة متشابهة يوجه سهامها طوراً الى الرؤساء وتارة الى الشعب نفسه وليس فيها ما نراه اليوم من نظرات ايجابية في حياة المجتمع وتحليل عميق لاحواله وحوادثه .

ولما كان الادب الشعبي نتيجة طبيعية لما تعكسه في النفوس شتى المؤثرات من اقتصادية واجتماعية فقد رأينا ان نتتبع هذه المؤثرات الى مصادرها الرئيسية — الى المعامل والاسواق والملاهي والمنازل والمنتديات حيث نرى الناس في سرّائهم

(١) احمد امين في الهلال ٤٦ — ١٢٧

وضرّائهم وحيث يتاح لنا ان نطّلع على اسباب تقدمهم وتأخرهم . وسنحاول درس هذا الاتجاه الجديد في ادبنا تحت الابواب التالية –

١ – في اهتمام الادب بالدعوة الى الحياة الجديدة – حياة العلم والحضارة
٢ – في الحملة على المفاسد الناشئة عن التطرف في الحياة الحضرية
٣ – في العطف على الطبقة البائسة في المجتمع
٤ – في المطالبة بالحقوق الانسانية والعدالة الاجتماعية
٥ – في مناصرة القضية النسائية ورفع المستوى العائلي

ويلحق ذلك فصل في المهاجرة واثرها الادبي تحت عنوان النزعات النفسيّة في الادب المهجري

١ ــ الدعوة الى الحياة الجديدة

الى العلم والنور

مما لا يختلف فيه اثنان ان الشرق العربي كان قبيـل النهضة الاخيرة في حالة من التأخر الاجتماعي لا تختلف عما كانت عليه في القرن الثامن عشر يوم كان الجهل سائداً والحياة العمرانية في الحضيض . فمن الطبيعي ان يكون الادب في الحقبة الاولى من هذه النهضة شديد الاحساس شديد الاهتمام بحاجة الناس الى اقتباس انوار الحضارة الجديدة . ولقد كانت الاقطار العربية المتصلة بالقسم الشرقي من البحر المتوسط اسبق من سواها الى الاحتكاك بالحضارة الغربية وبالتالي اسبق الى ادراك اهمية العلم والاقتداء بمن تقدموا في مضمار المعرفة والعمران . وهذا ادبهم نثراً وشعراً شاهد بتيقظهم الى هذا النقص المعيب في حياتهم . ولنثبت هنا من ذلك هـذه الفقرة من فصل لبطرس البستاني الكبير المتوفى سنة ١٨٨٣ . قال واصفاً موقف معاصريه من علوم الفرنجة [١] « وهكذا نرى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادىء حقيقية قادمة الينا من كل فج عميق ، وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة يمكن العرب ان يكتسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والاحكام . فالعلوم اذن قد اكملت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية واسلامبول والهند وبيروت . وكما ان الافرنج لم يستخفّوا باداب العرب في ايام جهلهم لاجل مجرّد كونها منسوبة الى العرب كذلك لا يليق بالعرب ان يستخفوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجية » . ثم يتقدم الى وصف الحالة العلمية في البلدان العربية فيقول انها في حالة انحطاط كلي لا يستثنى من ذلك اللغة والشعر وما يتعلّق بها .

وعلى هذا الوتر يضرب فرنسيس مرّاش في مقال عنوانه القرن التاسع عشر حيث يصف التقدم الذي حصل في هذا القرن ويدعو ابناء وطنه « الى النهوض

(١) اعلام اللبنانيين في نهضة الآداب العربية (بيروت ١٩٤٨) ص ١١٨ و ١١٩

لتحصيل العلم وتشييد مدارسه وتوطيد مكاتبه ولا نلتفت الى اعدائه الذين اما لجهلهم او لبعض اغراض لهم يسعون في تدمير العلم وكل مبانيه .»[١]

بدأت النهضة العربية الحديثة منذ منتصف القرن الماضي ومن عواملها الكبرى تلك المدارس التي انشأها الاجانب في البلاد وكانت المدارس قبل ذلك كما يقول المؤرخ جرجي يني «تعلم صغار المسلمين قراءة القرآن الشريف وصغار النصارى المزامير وبعض الكتب الطقسية، ومن شاء التوسع منهم تعلم الكتابة (ويقصد منها في تلك الآونة اتقان الخط) اما صناعة الانشاء فكانت عبارة عن نص الرسائل بعبارة ملؤها الركاكة وحشوها الاغلاط. وقلما يقتدر كاتب ان يعبر عن افكاره الا اذا عدل الى الكلام العامي»[٢]

وبانتشار المدارس وتقدمها اتيح للصحافة العربية ان تبرز الى عالم الوجود وصحب ذلك نشوء الطباعة. على ان تقدم التعليم والصحافة لم يكن قبل القرن العشرين واسعاً ولم يبلغ تأثيره في الامة مدى بعيداً فظلت الامّية سائدة في الاقطار العربية ولذا كانت الدعوة الى العلم عامة منذ منتصف القرن الماضي وظلت تتردد على اقلام الادباء والسنتهم حتى الى ما بعد الحرب العالمية الاولى. فالرصافي مثلاً يدعو الشباب في مطلع القرن العشرين الى النهوض تحت لواء العلم – يقول –[٣].

يا شباب الحي هبّوا للبراز فبكم يبسم ثغر الوطن
واعدُّوا العلم لا السيف الجراز انه عدّة هذا الزمن

وفي السنة ١٩١٤ يخاطب ولي الدين الشبيبة العربية بقوله من قصيدة[٤]

خذوا العلم واستهدوا بنور كواكب بدت في سماء العلم نعم الكواكبُ
قد انعكس الحكم القديم فاظلمت مشارق منه واستنارت مغارب
تجـلّى ظلام الجهل عن كل امة ولمّا يزل منه علينا غياهب

(١) راجعه في مجلة الجنان للبستاني سنة ١٨٧٠ ص ٥٦١

(٢) مجلة المباحث ١ – ٢١٤ و ٢١٥

(٣) من قصيدة يوم افتتاح المنتدى الادبي في الاستانة – ديوانه ١٩٣١ ص ٨٢

(٤) راجعها في المورد الصافي ٥ – ٢٩٠ . ومثل ذلك قول محمد الفراتي في ديوانه ١ – ١١٨ وسليمان الظاهر في مجلة المباحث ١ – ٤١٤

ولا نظن الشاعر يقصد ان الشرق العربي في ذلك الحين لم يتقدم عما كان عليه في اوائل النهضة فالواقع غير ذلك[1]. ولكنه يقصد انه ما زال متأخراً بالنسبة الى الغرب وذلك ما كان يعتقده جمهرة الادباء والعلماء وهو اصل هذه الغيرة التي كانت تلتهب في صدورهم فتظهر في نثرهم وشعرهم دعوةً الى الاصلاح والسير في سبيل الفلاح.

(ويقترن بالدعوة الى العلم حملة الادب على الخرافات الباطلة والعادات البالية وتنظيف العقول مما عشش فيها مع الزمان من الاوهام المضادة لمجرى التقدم[2]) فقد ورثت الاقطار العربية من ذلك ما قيّدها طيلة القرن الماضي بقيود ثقيلة فلم يتمكن انتشار المعرفة من تحطيمها الا ببطء. وعلى ذلك يقول احمد امين بعد ان ذكر التخريف وانه قد قل في زماننا عما كان عليه قبلاً — « ومع هذا فلا يزال التخريف اكثر مما يلزم. نعم لم تخل الشعوب المتمدّنة كلها من ضروب التخريف ولكنه في مصر كثير كثرة تستحق بذل الجهد في محاربته »[3]. ومثل ذلك كلمة للدكتور ابراهيم بيومي مدكور يصف فيها الخرافات وتفشيها في مصر وانها عقبة كأداء في سبيل التقدم ثم يشرح اسبابها وطرق محاربتها[4]. وكذلك كانت في سائر الاقطار العربية. ففي العراق نسمع كاظم الدجيلي في قصيدة له عنوانها « بحث الشيوخ » يقول لمواطنيه.

جاء سيل العلوم فابنوا بيوتاً ... جُدداً واهدموا البيوت العتيقه

ومثل ذلك واشد منه تجد في نفثات الزهاوي والرصافي والشبيبي ومن جرى مجراهم ممن يقولون باسترشاد العقل والسير على وضح الحقيقة. وفي سنة ١٩١٢ نقرأ مقالا مسهباً للاديب العراقي ابراهيم حلمي يتناول فيه العادات والخرافات الشائعة بين العراقيين يومئذ ومن قوله فيها[5] — « سرّح طائر نظرك في ارجاء

(١) راجع لمحمد كرد علي وصف حالتنا العلمية والأجتماعية سنة ١٩٠٨ في المقتبس ٢ — ٦١٧

(٢) راجع ما كان يدور في اواخر القرن الماضي من مساجلات في هذا الشأن حتى بين المتعلمين — في المقتطف ١٨٧٩ والهلال ١ — ٢٣٦ و٣ — ١٤٧ و٦ — ٥٣١ و٨ — ٤٩٨

(٣) كتاب فيض الخاطر (١٩٤٢) ٣ — ٧٨

(٤) مجلة الرسالة (مصر) ٣ — ٨٩٣

(٥) بتصرف من مقال في مجلة لغة العرب ٢ — ١٦٩

العراق وانعم النظر في احوال قـطّانه وعاداتهم وتفقد شؤونهم وراقب احتفالاتهم ومجتمعاتهم تجدها لاول وهـلة لا تختلف كثيراً عما كان عليه آباؤهم في سالف القرون . » وبعد ان يخوض قليلاً في هذا البحث يقول « ومن العبث ان يريد عاجز مثلي القضاء على عادات امة كبيرة كأمة العراق بمقالة او مقالتين او ثلاث وهي قد استحكمت فيهم منذ عـدة قرون . بيد ان الذي اريد ان اسطره هو ما وقفت عليه من عادات العراقيين ... ليظهر ما وصلت اليه حالة سكان العراق من التأخر في تمسكهم بعادات خرافية ومعتقدات ما انزل الله بها من سلطان الخ » . ويقابل ذلك من الشعر قصيدة في العادات لاحمد صافي النجفي [1] يصف فيها تلك العادات القديمة في النفس ومحاولة العلم استئصالها . وما يصيب المفكر من جراء هذه المحاولة .

على ان هذه الدعوة الى الحياة الجديدة لم تقتصر على طلب الاصلاح المباشر بحضّ الناس على اقتباس النور والاقبال على موارد المعرفة ، بل ظهرت ايضاً بطريقة غير مباشرة في وصف الظواهر العمرانية المادية . فكان لنا من ذلك هذا الادب الوصفي المعبّر عن تأثر الشرقي بغرائب الحضارة الحديثة من مستنبطات حسنت حياة الانسان ومكّنته من استخدام القوى الطبيعية واخضاعها لاجل مصالحه ورفاهيته . خذ مثلاً وسائل النقل والتخاطب . ففي اوائل القرن الماضي كانت لا تزال متأخرة في العالم عموماً . لم تكن شتى البلدان مرتبطة كما هي الآن بالبواخر العظيمة والسكك الحديدية السريعة والانباء البرقية المنظمة . وحتى اواخر ذلك القرن قلما كان يحلم احد بالسيارات والطيارات والراديو وسائر المخترعات التي قهرت قوتي الزمان والمكان فضمّت اطراف الارض بعضها الى بعض حتى اصبحت كأنها بلد واحد لا فواصل بينها ولا ابعاد — تغيُّرٌ مادي عظيم طرأ في هذا العصر الاخير على المجتمع البشري ، فلا بدع ان ينتج عنه تطور في حياة الانسان وعلاقاته الاجتماعية وبالتالي في مجاري افكاره وعواطفه . وقد بدأ هذا التطور في الغرب حيث تمّ للانسان استخدام الآلات البخارية والكهربائية والجوية . ثم اتصل بالشرق العربي عن طريق البحر المتوسط واخذ

(١) راجعها في ديوانه الاغوار ١٠٥

منذ اواخر القرن الماضي يتقدم تدريجياً نحو الاقاليم الداخلية حاملاً معه موجة من الازياء والعادات الغربية التي تغلغلت الى مختلف الانحاء الشرقية . ولو القينا نظرة تاريخية على ادب العرب الوصفي لرأيناه يتطور بتطور البيئة والاحوال الخارجية . فعرب الجاهلية ومن اتصل بهم من اهـــل صدر الاسلام يبرز في اوصافهم حيوان البادية كالجمل والحصان والثور والذئب والغزال، او سلاحها كالسيف والرمح والقوس، او بعض البستها كالرداء والعباءة والجول، وغير ذلك مما الفوه في مساكنهم واعتمدوه في معيشتهم واختبروه من طبيعة بلادهم . فلما اتسع سلطانهم وذاقوا الوان الحضارة في البلاد التي افتتحوها واستقروا فيها صار لهم القصور والحدائق والمتنزّهات ومجالس الانس والترف، وتأنقوا في الالبسة والحليّ والمساكن والمطاعم، وتوسعوا في التجارة والزراعة ومختلف الفنون العلمية والصناعية فظهر كل ذلك في ادبهم وان لم يخلص تماماً من اثر البادية وروحها . على انه منذ نكبت الحضارة العربية بالاجتياح المغولي في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد اخذت تتأخر وما زالت تتوالى عليها البلايا من فتن وحروب داخلية ومنازعات اقطـــاعية حتى بلغت اواخر القرن الثامن عشر الدرك الاسفل . وهكذا دخل القرن التاسع عشر والعرب عموماً كما ذكرنا سابقاً — في حالة يرثى لها من الانحطاط الاجتماعي والادبي .

ولما بدأت النهضة في منتصف القرن الماضي كان الادب لا يزال تقليداً للقدماء يتابعهم في اوصافهم واساليب تعبيرهم . ثم اخذ الامر يتغير، فنشأ منذ اواخر القرن المذكور جيل يدعو الى التجدد . وكما قام ابو نواس في اوائل العصر العباسي يدعو شعراء زمانه الى ترك الحياة الأعرابية والمُثل البدوية كذلك قام المجددون في هذا العصر يدعون الى ترك الطريقة القديمة والاهتمام بما توحيه اليهم الحياة الجديدة . حتى لنسمع اديبا من المعروفين بغيرتهم على التراث القديم يقول [١] .

يا سعد هذا عصرنا فدع النيـــاق يشقّهـا الاتهـــام والانجاد
واهجر حديث الرقمتين واهله بادت ليـــالي الرقمتين وبادوا

(١) ديوان مصطفى الرافعي ١ — ٧٢ من قصيدة له يصف فيها القطار

هذه الدعوة الى الحياة الجديدة قد صرفت الادب الحديث عن تقليد القدماء في اوصافهم فاحتلت الباخرة والقطار والسيارة والطيارة محل الجمل والحصان والهوادج والاظعان وطغت اصوات المدافع والقذائف على صلصلة الاسنة والبواتر وتبارت الالسنة والاقلام في وصف الغرائب العصرية وما احدثته من تطور في حياتنا الاجتماعية . ولا يتسع المقام لذكر ما ورد من ذلك نثراً ونظماً ففي مئات الصحف والكتب والدواوين منه ما لو جمع لملأ عدة مجلدات . ويكفي التمثيل ان نثبت هنا قليلاً من باب المنظوم ، ولنجتزىء ببعض المخترعات التي تركت اثراً كبيراً في الادب — ومنها ما يلي —

الباخرة : قال شوقي سنة ١٨٩٤ من قصيدة اعدها للمؤتمر الشرقي في جنيف [١]

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء
ضرب البحر ذو العباب حواليـ ـها سماء قد اكبرتها السماء

ومنها مقابلا بين عصر البواخر وعصر النياق

يا زمان البخار لولاك لم تفـ ـجع بنعمى زمانها الوجناء
فقديماً عن وخدها ضاق وجه الا رض وانقاد بالشراع الماء

ويصف الياس صالح الباخرة التي حملته الى مصر سنة ١٨٩٥ فيقول من قصيدة [٢]

تلك السفينة باسم الله مجراها على دموعي مسراها ومرساها
تجري وفي قلبها النيران موقدة مثلي كأن هوى الاوطان اشجاها

وفي سنة ١٩٢٣ يسافر حافظ ابراهيم الى ايطاليا فيصف الباخرة التي اقلته وهول البحر والعاصفة التي اصابتهم [٣] ووصاف الباخرة والبحر عديدون وهم عادة يجمعون بين مشاهد السفينة والبحر واحوال الركاب وقد يستطردون الى ذكر البلدان التي يؤمونها او الاغراض التي يقصدونها .

(١) ديوانه ج ١ — ٥
(٢) شيخو . آداب القرن التاسع عشر ٢ — ١٢٠
(٣) ديوان حافظ ١ — ٢٢٧ . ومطلعها « عاصف يرتمي وبحر يغير »
راجع ايضا في وصف السفينة قصيدة فخري ابو السعود في مجلة الثقافة ١ ع ٣١ ص ٣٩

القطار : ومن اقدم وصافه عبدالله نديم ونجيب الحداد[1] ومما يذكر هنا ابيات لتامر الملاط من قصيدة بدوية الاسلوب يصف فيها القطار اول سيره بين بيروت ودمشق قال [2]

حملتك انفاس البخـار يثيرها لهَوات متقد الغليـــل عميدِ
حرّان صادٍ غـير ان شفاهه بالنـار لا بالسلسل المورود
عالي الجدار من الصفيحململ كالحصن من زُبر الحديد مشيد
يدني قصيّ الفاي غير مواكل ايس البعيد وقــد دنا ببعيد
يطوي الظلام على الضياء مغامراً طي الصحائف او كطيّ برود

وفي القطار ايضاً يقول معروف الرصافي [3]

وقاطرة ترمي الفضـا بدخانها وتملأ صدر الارض في سيرها رعبا
تساوى لديها السهل والصعب في الرقى فما استسهلت سهلاً ولا استصعبت صعبا
يمرُّ بها العـــالي فتعلو تسلقاً ويعترض الوادي فتجتازه وثبا
وتخترق الطود الاشم اذا انبرى وقد وجدت من تحت قنته نقبا
وتمضي مضيّ السهم فيه كأنما ترى افعواناً هائجاً دخل الثقبـا

وامثال هذه الاوصاف كثيرة في الادب الحديث وفي اكثرها يقترن الوصف بذكر ما للقطار من اثر في حياة الشعوب وتقدم العمران [4]

السيارة : وهي كثيرة الاتصال بحياة الشعب وقد اصبحت اعم وسائل النقل والانتقال فطبيعي ان يعم وصفها في الادب الحديث . ويصفها الشعراء عادة بالسرعة [5] وقد يقابلون بينها وبين مطايا الاقدمين كقول الرصافي في قصيدة [6]

---

(١) راجع شيخو الآداب العربية في القرن التاسع عشر ٢ – ص ٩٠ و١٤٣

(٢) راجعها في ديوان الملاط ٣٢

(٣) ديوانه (١٩٣١) ٢١٦

(٤) راجع قصيدة الدجيلي في مجلة لغة العرب ١ – ٢٠١

(٥) راجع مثلا ديوان الزركلي ١٧ وديوان الحوماني (١٩٢٥) ١١٥ وديوان محمد الفراتي ١ – ١٣٨

(٦) راجع ديوانه (١٩٣١) ٢٢١

تلك المطيّة لا ما كان يذكرها اديب ذبيان من عيرانة النيب[١]
لو امتطاها لبيد[٢] قبلُ تاه بها على الحواضر قدماً والاعاريب
ولا اطال ابن حجر[٣] وصف منجرد على السراة كميت اللون يعبوب

ولما كثر عدد السيارات في البلدان العربية وتزايد عدد ضحاياها اخذ الناس يلهجون بذلك وتناولته اقلام الكتاب والشعراء بين ناقد وواصف[٤]

الطيارة : وهي لا شك اشد المستنبطات الحديثة اثارة للدهشة . ومهما الفتها الانظار فانها تعد من اغرب الغرائب . وقد تناولتها بالوصف اقلام كثيرة . ومن ذلك قصيدة لجميل الزهاوي يصف فيها اول طيّار عبر المحيط الاتلانتيكي ومطلعها[٥]

حكّم النار في الهواء وطارا ينهب البيد سامياً والبحارا
ومنها – لو رآه آباؤنا قبل احقا ب لظنّوه مارداً سحّارا

على ان الشاعر لا يرى ذلك بل يعزو عمله العظيم الى تقدم العلم واقدام اربابه يقول

ليس يأتي العظيم الا عظيم مستقلٌ على التقاليد ثارا
يا لها جبارة في الاعالي حملت فوق ظهرها جبارا
انمّا تركب الصعاب نفوس طمحت للعلى فكانت كبارا

ويختمها بالتفاتة الى بني قومه مهيباً بهم الى طلب العلم والعلى محرضاً اياهم على الاقدام في سبيل النور والحضارة . ومثل هذه الالتفاتة ما تراه في قصيدة لعبد الرحمن البنّاء موضوعها « الطيّارون في الشرق »[٦] . وفيها يذكر قدوم طيارين افرنسيين (سنة ١٩١٤) واصفاً مآتيهم ثم يصف الطيارة باسهاب ويتخذ ذلك ذريعة للتنويه بفضل العلم وتقدم الغربيين منددا برقدة الشرقيين وتأخرهم بعد ان « اوضحوا للغرب بالعلم مناراً » صارخاً من قلب متألم « يا بني الشرق الا فانتبهوا »

(١) اشارة الى النابغة الذبياني ووصفه لناقته
(٢) لبيد الشاعر المشهور واحد اصحاب المعلقات
(٣) ابن حجر . امرؤ القيس والاشارة الى وصف فرسه
(٤) راجع مثلا ديوان دقات القلب للبيتجالي ٨
(٥) ديوانه اللباب ص ٣٣٩
(٦) مجلة لغة العرب (بغداد) ٣ – ٤٦٥

واطلبوا العلم ولو في الصين كي تدفعوا فيه عن الشرق البوارا
فاقتدوا بالغرب كيما تدركوا ما مضى واجنوا من العلم ثمارا

ومن هذا الباب شعر كثير ونشير خاصة الى ما نظم في الطيارين العثمانيين فتحي وصادق وقد مرّ ذكرهما في فصل سابق [١] . ونختم الكلام بذكر ثلاث قصائد لشوقي [٢] اثنتان منها نظمتا عند قدوم الطيارين الافرنسيين فدرين وبونيه (١٩١٤) الى مصر . ومطلع الاولى .

يا فرنسا نلت اسباب السماء وتملكت مقاليد الجواء
غُلب النسر على دولته وتنحّى لك عن عرش السماء

ومطلع الثانية .

قم سليمانُ بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما

وفي كلتيهما وصف دقيق للطيارة وتحريض لشباب وطنه على النهوض ليجاروا الغربيين . اما الثالثة فقد نظمها سنة ١٩٣٠ وذلك عقب مشاهدته اول طيار مصري (صادق) قادماً على متن طيارته من برلين . يبدأها بقوله . « أعقابٌ في عنان الجو لاح » ومن قوله في ذلك النسر المصري .

مَن فتى حلّ من الجوّ بهم فتلقّوه على هام وراح
ليس من يركب سرجاً ليناً مثل من يركب اعراف الرياح

ولم يقصّر الادب الحديث في وصف الغرائب الاخرى كالكهرباء والسينما والفونغراف والتلفون والراديو وسواها . وهذا الاخير احدثها ومن اشدها تأثيراً . وقد وصفه عدد ليس بقليل من الشعراء . منهم عباس العقاد [٣] واحمد محرم [٤] واسكندر الخوري البيتجالي [٥] وعلي الجارم [٦] . بلا حظ

هذا قليل من كثير ولعله كاف لبيان ما احدثته غرائب الحضارة الجديدة من اثر في ادبنا الحديث .

---

(١) راجع فصل الدستور والروح الوطنية في الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٥
(٢) تجدها في ديوانه ج ٢ ص ١ و ١٠٧ و ١٩٤
(٣) صداح الاثير في ديوانه اعاصير مغرب ١٣٦
(٤) الهلال ٥٢ – ١٨٦ قصيدته – مفخرة العلم في القرن العشرين
(٥) ديوانه العنقود ٣٠
(٦) ديوانه ج ١ ص ٩٦ – تحية دار الاذاعة المصرية

كما نرى

٢ ـ في الحملة على المفاسد الاجتماعية

ذكرنا آنفاً ان الادب العربي الحديث كان اول احتكاكه بالحضارة الغربية متحمساً لها داعياً الى اقتباس انوارها والاقتداء بأربابها . على انه سرعان ما ظهر له ان الحضارة ليست كلها نعماً ومباهج . فكما تكون سبيلاً للرقي والهناء تكون ايضاً سبيلاً للتقهقر والشقاء . ومن اسباب التقهقر والشقاء ما جرّته الحضارة معها من الوان الترف والرخاء والخلاعة . وقديماً رأى ابن خلدون ما للترف من اثر سيء في الدولة فعقد في مقدمته فصلاً موضوعه ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وانها مؤذنة بفساده . ويقصد بالحضارة هنا الافراط في الترف وما يلحقه من مفسدات تضعف الاخلاق وتزعزع اركان المجتمع [١] .

وقد هال كثيرين من الادباء ما رأوه في العصر الحاضر من طغيان الفساد الاجتماعي فاتّهموا الحضارة نفسها وعزوا ذلك اليها حتى صاح رضا الشبيبي من العراق [٢]

تظنون هذا العصر عصر هداية ... واجدر لو ندعوه عصر ضلالات

وقوله ايضاً من ابيات

خداع وكذب واقتراف وقسوة ... وظلم . اهذا العالم المتمدن ؟ [٣]

ومن لبنان نسمع شاعراً آخر يقول متألماً [٤]

أأبناء هذا العصر لا كان عصركم ... فما نور هـــذا العصر الا غياهب
تسمّونه عصر الرقي وما ارتقى ... سوى الشر فيه لا الخلال الاطايب

بل نسمع مثل ذلك من كل قطر عربي [٥]

والواقع ان الحضارة قد جرّت معها الى الشرق العربي كثيراً من الموبقات . وقد اندفع في تيارها كثيرون ممن لم يدركوا معنى الحضارة الحقيقي فجرفهم

---

(١) راجع هذا الفصل في الباب الرابع من الكتاب الاول من المقدمة
(٢) ديوان الشبيبي ١١٣
(٣) البرق (بيروت) ٤ – ١٤١
(٤) ديوان الالهام لامين ناصر الدين ٦٨
(٥) راجع مقال التمدن العصري لمحرر مجلة الثريا السنة الاولى ١٨٩٦ ص ٢٠٦

حتى كان ما كان من عواقب وخيمة ومآس مؤلمة تركت اثرها في النفوس ثم سطرته الاقلام على الطروس. وقد اصاب الدكتور منصور فهمي حين قال من خطبة قابل فيها بين الروح الشرقية والحضارة الغربية [١] «فلا خوف اذن على الشرق اذا هو حاكى الغرب في ما هو نتيجة للعلم من اتخاذ ثمراته وادواته ولكن الخوف كل الخوف يوم تسير المحاكاة في جو من نسيان النفس والماضي وفي ضرب من الخفة والرعونة فيلتقط الزبد ويترك في الارض ما ينفع الناس». قال هذا القول سنة ١٩٣٠ ولكن داء الفساد كان قد بدأ يستشري منذ اواخر القرن الماضي حتى ان عبدالله نديم خصص مجلته الطائف في اول امرها للحمل على المساوىء الاجتماعية[٢]. ويحاول جرجي زيدان ان يبين السبب في اقتران التمدن عندنا بالفساد الاجتماعي فيقول سنة ١٩٠١ – «واتفق ان التمدن جاء هذه البلاد (مصر) وهي في مهاوي الانحطاط على اثر استبداد المماليك ومن جرى مجراهم. ولكنه لم يتناول في اول عهده الا التعليم والتربية مع المحافظة على الحشمة الشرقية. واما التهتك او خرق الحجب فلم يظهر الا في اواخر القرن الماضي لما كثر تقليدنا للافرنج حتى في ما ينافي فطرتنا.» [٣]

والمفاسد الاجتماعية التي يندد بها الادب نوعان – نوع يعده من المحرمات كالقمار والمسكرات والمخدرات والتهتك الجنسي – ونوع يعده من العادات المستهجنة كالرقص والسباحة المختلطة والتطرف في بعض الازياء. ومن امثلة الاول قصيدة في القمار لنجيب حداد نظمها اجابة لاقتراح عممته مجلة البيان على الشعراء [٤]. ومن ابياتها

هو الداء الذي لا برء منه ولیس لذنب صاحبه اغتفار
تشاد له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الدمار
نصيب النازلين بها سهاد فافلاس فيأس فانتحار
عصائب لا يودُّ المرء فيها اخاه ولا يراعي الجار جار

(١) مجلة الكلية (بيروت) ١٦ – ٤١٨
(٢) تطور الصحافة المصرية (لابرهيم عبده ١٩٤٥) ١٢٧
(٣) الهلال ١٠ – ١١١
(٤) مجلة البيان ١ – ٦٣١

ومثل القمار المضاربة [١]

اما المسكرات والمخدّرات فقد كثر الكلام فيها وفي رزاياها وضحاياها شعراً ونثراً [٢]. وهنا لا بد لنا من القول ان كثيراً من الشعر العربي لا يزال رفيقاً بالخمرة عطوفاً عليها وهو يجاري بذلك سنّة شعراء الخمرة المتقدمين كالاعشى والاخطل والوليد وابي نواس ومن جرى مجراهم في كل العصور، وليس كذلك النثر كما ترى في معظم الرسائل والخطب العصرية .

ولا يخلو الادب الحديث من مجون نواسي يتناول وصف المحارم وغرّات الشباب وصفاً يُخلَع فيه العذار [٣] . وعذر اصحابه انهم انما يصفون الحياة كما هي ويسمون ذلك احياناً بالادب المكشوف . وقد اصاب احد كبراء ادبائنا اذ قال فيه [٤] « وكأن الحرب (اي الحرب العالمية الاولى) خلفت استعداداً جديداً وميلاً لتذوّق كل ما هو مكروه وفظيع فلم يبق للفن الا ان يكون ستاراً لهذا اللون الجديد من بعث الشهوات والاستسلام لكل ما خرج عن نظام الطبيعة . وصار الكاتب يتلذذ بالامعان في الغرابة دون الاهتمام برأي الاكثرية المفكرة، فيغمس قلمه في الاقذار ولا يبحث في الطبيعة الا عن العيوب والبشاعة وهو على يقين انه يرضي القارىء الذي اصبح متعطشاً الى كل احساس غريب » . وقد حاول بعضهم الدفاع عن الادب المكشوف فسماه المنهج الطبيعي naturalisme وقال ان الغاية منه تصوير اخفى الغرائز البشرية وادناها والهبوط الى اعماق الفطرة الجنسية فيحدثنا عن اطوارها وتفاعلاتها وما يتولد عنها من اعراض تصطبغ بها الشخصية الانسانية في فترة من فترات حياتها فهو ليس لترويج الدعارة بل لدرس الانسان والكشف عن ميوله الفاسدة الكمينة ونزعاته الشاذة الغريبة

---

(١) راجع للتمثيل المورد الصافي ٥ - ٣٤٨ ومجلة سركيس ٣ - ١٣٨ « والبورص » في ديوان حافظ ابرهيم ١ - ٢١٣ وكتاب بلاغة النساء في القرن العشرين ٢ - ٩٦

(٢) راجع مثالاً على ذلك ما يلي - « الكاس الاولى » في النظرات للمنفلوطي ج ١ . « الجرعة الاولى » لنقولا حداد في مجالي الغرر ١ - ٥٧. كتاب افات المدنية الحاضرة لجرجي باز. «صريع الكاس» الهلال ٨ - ٧٢٠ . « مثلث الشر والدماء » لاسعد خليل داغر وقصيدة على اطلال البشرية وقصة تبكي في ديوان من نبع الحياة لمحمود حسن اسماعيل ص ١١٩ و١٢٢

(٣) راجع ديوان مهدي الجواهري (١٩٣٥) ٢٠٥ و٢٥٠ - وديوان طفولة نهد لنزار قباني

(٤) من مقال للدكتور نقولا فياض في مجلة الاديب ٢ ج ٣ موضوعه رسالة الادب بعد الحرب

التي لا تقرها قوانين المجتمع فنعمل على محاربتها وكبحها الخ[١] . ولكن هذا اللون من الادب لم يشع في الشرق العربي وهو ضئيل بالنسبة الى سواه ويقابله من الجهة الاخرى الادب المثالي النزّاع الى تقبيح الخلاعة وتحذير الشباب من غوائلها. ومن امثلته كتاب النظرات للمنفلوطي الذي يحاول ان يصف موبقات عصره كما نرى في الفصول التالية - الشاب العصري (ج ٢ – ١١٣) الآداب العامة (٣– ١٩٨) – المراقص (٣ – ٢٥٩) وغيرها .

وانما دفعه الى ذلك ما رآه من اندفاع الشبيبة العصرية في مهاوي المدنية الحديثة وقد سبقه وتبعه كثيرون في هذا المضمار[٢] ولنجتزىء من هذا الباب بمثل شعري واحد هو قصيدة لشاعر مصري يرى تهتك بعض الشبان في وطنه وتلاعب المغويات بالبابهم فيصف لنا حادثة جرت لشاب بالازبكية (في القاهرة) ويجري مثلها لكثيرين اليوم في الحواضر الشرقية قال

ودخلت اجمل قهوة مع صاحب   صادفته واخو الهموم موفّق
وجلست اذ جلس الصديق ولا تسل   عما حواه المجلس المتأنق

ويأخذ هنا بوصف جمال المكان وزينته الباهرة وخلابة الحسان فيه ثم انصراف صاحبه الى غوايتهن ووقوعه في شرك احداهن

حتى دنت من بينهن مليحة   رومية ترمي القلوب وترشق

فجالسته الحسناء وباسطته وهكذا اخذا يتعاطيان الشراب وهو ينفق غير مبال بالعواقب فينصحه صديقه الشاعر ويحاول اقناعه بوجوب الخروج من هذا المكان ولكن النصيحة لا تزيده الا غواية وحنقاً من صديقه . يقول الشاعر :

فتركتها لفنونه وتركته لجنونه   وهو الجنون المطبق
ولبثت انظر مايكون من الهوى   من امره وانا عليه مشفق .

(١) مجلة الاسبوع ١ ع ١٥ ص ١٣
(٢) راجع مثلاً منتخبات نجيب الحداد ١١٦ و ١٢٣ وديوان النظرات لمصطفى الرافعي ٣ ؛ ٤٣ والمورد الصافي ٥ – ٣٣٨ والادب التونسي في القرن الرابع عشر ٨٦ و ١٤٠ وديوان مشاهد الحياة للبيتجالي واكثره مقصور على محاربة المفاسد

وما زالت الغانية تباسط ذلك المغفّل وتشاربه حتى بذل جميع ما كان لديه من نقود وحلى وعاد ثملًا وقد فقد ماله واخلاقه .

وعجبت من هذا الذي شاهدته فكتمته والصدر مـني ضيق
ودهشت من نزق الشباب وجهله وكذاك يفتقر الغنيُّ الاحمق

وقريب من هذا قطعة زجلية لمحمود زكي موضوعها مضارّ الرقص[1]

(ولم يكتف الادب بمحاربة الموبقات والمفاسد بل تجاوزها الى بعض الملاهي الجائزة ولاسيما ما كان له علاقة بالمرأة) وسنشير الى شيء من ذلك في كلامنا «عن المرأة وقضيتها» ونذكر هنا بنوع خاص الرقص الافرنجي المزدوج والسباحة المختلطة . فقد كان كل منهما في اول عهده هدفاً لنقد لاذع . ولكن هذا النقد ما زال يخف مع الايام حتى انحصر في مناطق خاصة . وها نحن نرى هذين النوعين اليوم من انواع الملاهي الرئيسية في النوادي الاجتماعية وبين الطبقات الجديدة واكثرهما شيوعا الرقص . وقد كان الادب بالنظر اليه على درجات متفاوتة . فمنه المتعصب المندد الذي يعده اثما فيحمل عليه وعلى مروّجيه[2] . ومنه المتأنق في وصف حفلاته المفتنُّ في عرض مشاهده وحسناته كما فعل شوقي في وصفه لحفلات قصر عابدين حيث يرينا ابّهة السلطان وعظمة المكان وجمال الرقص مع الحسان[3]

وبين هذا وذاك نوع آخر يقرن الوصف بايماءات عليهـا مسحة التهكم الناعم . ومنه موشح لخليل مردم بك يسوده دقة التصوير والتلطف بالاشارة الى ما في الضمير[4] . مطلعه

نُفـخ الصور فهبّوا مسرعين مثلما نفّرت طـيراً بالصفير

---

(١) نجدها في مجلة سركيس ٣ — ٢٥٩

(٢) مثل المنفلوطي في نظراته ٣ — ٢٥٩ ، والحوماني في ديوانه السائس والمسوس، ٦٥ وناصر الدين في صدى الخاطر ١٥٨ ، وحسين الجزيري في مختاراته في الادب التونسي ٨٦ ، والبيتجالي في ديوانه المنقود ٤٣ ، وعبد المطلب في ديوانه ١٨٤

(٣) راجع من قصائده «حفّ كأسها الحبب» الديوان ٢ — ٨ . وراجع ايضاً قصيدة للازهري في الهلال ١٣ — ٥٠٤

(٤) نشره على حدة مكتب النشر العربي . وعلى نسقه قصيدة لمحمد البزم موضوعها روسية في مرقص المكشوف ٥ ع ١٩٢

ومنه: ليت شعري كيف حال الراقصين بعد ما الرقص غزا ذات الصدور
اي وجدان وحس يجدون من هوى النفس وخلجات الضمير
وقوله: كل صعب فهو بالرقص يهون وعسير الامر فيه كاليسير
رب جدٍّ كامن خلف مجون وكبير مبتداه من صغير

اما السباحة المختلطة فنكتفي من الادب المهاجم لها بمقال للاستاذ احمد حسن الزيات موضوعه « على الشاطىء »[1] وفيه يصف ما شاهده في بعض مسابح الشاطىء المصري ذاماً التبذل والجموح الى تعرية الجسم . ويرد على الذين يزعمون ان في هذه السباحة روحاً رياضية تهيمن على الحياة فيقول مخاطباً احدى السيدات «واين تجدين الروح الرياضية في هذه المرأة التي علت صدر هذا الرجل لتتعلم فوقه السباحة ؟ واين تجدين الروح الرياضية في هذين الجسمين الراقدين على الرمل يتلامسان بشهوة ويتناجيان بنشوة وقد انمحى من حولهما البحر والشاطيء والناس؟ » والمقال كله من هذا القبيل .

ويظهر ان تيار الحياة العصرية كان اقوى من دفاع الادب الاصلاحي فقد انتهت هذه الحملة الادبية على الملاهي بفوز الاخيرة وشيوعها في البيئات الجديدة

(١) راجعه في وحي الرسالة (للزيات) ٣٩ . ومثله مقال لمصطفى الشهابي في الهلال ٤٣ - ٧٤

٣ ـ الغيرة على الطبقات البائسة

(والبؤس ظواهر شتى يجمعها اثنان رئيسيان هما البؤس الاقتصادي والبؤس الاجتماعي). ولعل الاول اصلها جميعاً فلنقف قليلاً عليه لنرى مدى تأثيره في الادب .

البؤس الاقتصادي : ان مسألة الغنى والفقر مسألة قديمة العهود وقلما نجد امة خلت ادابها الاجتماعية من ذكرها والاهتمام بها، او عصراً لم يقم فيه من يجاهد بلسانه او قلمه فيحمل على جور الاسياد وجشع الاغنياء ويدعو الى اغاثة المحتاج وانصاف المظلوم .

ففي التوراة مثلاً نسمع النبي يقول ـ هكذا قال رب الجنود اقضوا قضاء الحق واعملوا احساناً ورحمة كل انسان مع اخيه ولا تظلموا الارملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير[١] . ومثل هذا القول كثير في التوراة والانجيل . وكذلك في القرآن حيث يوصف لنا الابرار بانهم من « يطعمون الطعام على حبّه مسكيناً او يتيما او اسيراً »[٢] واما الغني الغشوم فنسمعه في الآخرة يندب حظه قائلاً ـ « ما اغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه » وتسمع الديان تعالى يقول ـ « خذوه فغلّوه ثم الجحيم صلوه .... انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين »[٣]

على أنه برغم هذه الدعوة التي نزل بها الوحي وتحمس لها المصلحون كان الناس فيما مضى يعدّون الفقر امرا مقدورا ، وتفاوت الطبقات من طبيعة الوجود.

جاء في الرسالة الجامعة المنسوبة الى المجريطي[٤]:

« ان تدبير العالم الارضي بجميع ما فيه من اقسامه واركانه واشخاصه والنفوس المتحدة بصوره واجسامه مقدر بواجب الحكمة الالهية والاشخاص السماوية والامور الملكية فهي تقسم بما قدر لها فيها ويعطى كل مستحق منها بحسب ما قدر له من شاء الاشياء الموجودة تحت فلك القمر من العلو في المنازل وطيب العيش

---

(١) زكريا ص ٧ ع ٨ — ١٠

(٢) سورة الدهر او الانسان ٨.

(٣) سورة الحاقة ٣٠ و٣١ و٣٣ و٣٤

(٤) نشر جميل صليبا ١٩٤٨ ص ٤١١ - ٤١٨

في الدنيا والنصر والذل فيها الخ . » وكل الفصل على هذا النسق .

وكان همّ العبد والفلاح والعامل ان يعيشوا آمنين في ظل اسيادهم ومالكي امرهم . ولم يكن يطلب من السيد او الغني الا ان يكون عطوفاً عليهم راثياً لبلواهم محسناً اليهم . والى ذلك يشير احمد بك امين اذ يقول –[1] « والعلم بالاحوال الاقتصادية غيّر نظرنا الى الفقر فلم يجعله قضاء وقدراً فقط بل جعله نتيجة طبيعية لحالة الامة ووجوه دخلها وخرجها ونظام ميزانيتها ومواردها ومصادرها . فالادب العربي الذي يبعث على الرضى بالفقر كنتيجة محتومة ولا دخل للامة ونظامها فيه يجب ان يستبعد »

فلم يكن الحرمان قبلًا مشكلة قومية او عالمية او سبباً لمشادة عنيفة بين ارباب المال وجماعات العمال . اما اليوم فقد قضي على عبودية الفرد واصبح العُدم وصمة عمرانية يجب محوها او تخفيف وطأتها، وتفاوت الطبقات عيباً منافياً لحقوق الانسان مانعاً من تقدم العمران . على ان ذلك لم يتقرر في المجتمع البشري الا بعد جهاد طويل وعناء شديد . وقد تم لدعاة الاصلاح مع الزمن الغاء كثير من الاوضاع القديمة البالية . وبترقي الحياة الفكرية والاجتماعية في الغرب خلال القرن الماضي وهذا القرن قويت الحركات الاصلاحية وقويت معها النزعة الشعبية في الادب . وانك لتلمسها هناك في مختلف المناحي العمومية من اقتصادية وتهذيبية ودينية واجتماعية .

اما مجتمعنا العربي فقد ظل حتى اواخر القرن الماضي قليل التأثر بالزلزال الاقتصادي الذي أصاب الغرب . على انه لم يعدم بعض من اطلعوا على احوال العالم الغربي فتنبهوا الى حاجة الشرق وشرعوا يحذّرون اولي الامر من عواقب الامور كما فعل نجيب الحداد في بعض فصوله اذ قال[2] – « فما ضر الاغنياء الذين ينفقون اموالهم على سبل لا تذكر وفي مذاهب لا تشكر لو صرفوا بعض ذلك المال في تأليف مؤسسات خيرية ينفقون عليها فضلة المال ! بل ما ضر الغني الذي يتكبر على الفقير، والموسر الذي يحتقر العامل والاجير لو علم ان المذلة

(١) كتابه فيض الخاطر ٣ – ١٤٨

(٢) منتخبات الحداد ٩

لا تكون في لبس الكتان، والعظمة لا تأتي من وراء الحرير، وان الفقير اشد لزوماً منه في مجتمع الانسان ».

ثم يشير الى نضال الطبقات في اوربا فيتابع كلامه محذراً – « او لم ير الاغنياء ما صارت اليه حال اوربا في هذه الايام (اواخر القرن الماضي) وما نراه في اغنيائها وفقرائها عبرة لنا وذكرى بين فوضوية تثور واشتراكية تدور، ونسف منازل كان الفقر من ناسفيها، واهلاك نفوس ذهبت شهيدة ظلم الاغنياء ويأس قاتليها ».

وقد سبقه الى مثل ذلك احمد فارس الشدياق في كثير من اقواله[1]. ومن هذا القبيل شعراً « قصيدة للامير نسيب ارسلان موضوعها زفير الفقير وقد نشرت سنة ١٩١٢ وهي وصف مؤثر لحال الفقراء ودعوة حادة الى اسعافهم واصلاح حالهم »[2]

« أفي الحق ان يشقى الفقير بعيشه وذو المال في شرّ الغواية يسرف »

تلك روح هذه القصيدة التي تتجاوز السبعين بيتاً . وفي ختامها يشير الى الخطر الذي قد يتأتى عن عدم الاهتمام بهم ويطلب من الاغنياء ان يعتبروا بما حدث في اوربا من فتن اساسها بؤس الطبقات المحتاجة .

عليكم بكشف الضر عنهم فانما اخو الضر يمسي ضارياً حين يهجف[3]
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى فيبدر منهم بادر لا يكفكف
فان لم ينالوا بالموادة حقهم ينالوه يوماً والصوارم ترعف[4]
لكم عبرة في الغرب من كل فتنة تهز الجبال الراسيات وتخسف

وبانتشار العلوم الانسانية في القرن العشرين وتزايد الاتصال بالغرب ازداد تنبه الادب العربي الى هذه المسألة وكثر لهجه بذكر الطبقة البائسة وطلب اليسر لها وليس بغريب ان يكون للادب يد قوية في هذا الامر فالاديب كما

(١) راجع مثلاً كنز الرغائب . ج ١ ص ٢٢٦ و٢٤٢
(٢) راجعها في المنار (مصر) ١٥ – ٦٣٧
(٣) يهجف، يجوع
(٤) ترعف، تسيل دماً

قال محمد لطفي جمعه « ارق شعوراً وادق احساساً وارهف سمعاً وانفذ بصراً من غيره فهو يشعر بمرارة الحياة في افواه الفقراء ويلمس مواقع سهام الزمن في احشاء المنكوبين والمنكودين والمظلومين والمحرومين . فاذا نظم او نثر او خطب او تحدث فانما ليطلب عدلا للمظلوم ورحمة للضعيف ونصفة للفقير والمسود وعزة للذليل وفرجاً للمكروب . وبهذا يؤدي بعض رسالته او كلها »[1]. وانك لتجد هذه الرسالة الادبية في كثير من المجلات والمؤلفات والخطب التي ظهرت خلال نهضتنا الحديثة كخطب ورسائل امين الريحاني في الريحانيات وفصول احمد الزيات وعلي الطنطاوي في الرسالة . ومن قول الطنطاوي في الطبقات المصرية «فما هذا التفاوت بين البشر في مصر ؟ ما هـذا الوضع الذي يجعل من الناس واحدا يملك مليونا ، ومليونا لا يملكون واحدا ، والفاً يشتغلون لرجل والرجل لا يعمل عملاً ، وانسانا يظن نفسه من الغنى والكبر الهاً واناسيَّ تحسب انها من الفقر والضعة بهائم[2]»

اما الرسالة الشعرية فلها في كل اقليم صبغة خاصة . ولو راجعت نفثات العراقيين امثـال الزهاوي والرصافي والشبيبي والدجيلي والصافي النجفي والهاشمي وعلي الشرقي وصالح بحر العلوم والجواهري والسماوي ونظرائهم لشعرت فيها بروح ناقمة على الاوضاع الحاضرة شديدة الحملة على ترف الاغنياء وسوء تصرفهم ازاء الطبقات المحرومة التي تعيش عيشة الشقاء والانحطاط .[3] وقلما نجد مثل هذه النقمة الثائرة والحرارة الفـائرة في دواوين شعراء مصر كشوقي وحافظ ومحرم واحمد نسيم والرافعي والكاشف وعلي الجارم وعلي محمود طه والعقاد وشكري وسواهم التي يغلب فيها الحض عـلى الاصلاح ومناصرة الجمعيات الخيرية وملاجىء البائسين والدعوة للعطف على البائسين ولكنها دعوة على شدتها احياناً تؤمن بواقع الحال

(١) راجع مقال العناصر الانسانية في ادبنا الحديث – مجلة الكتاب (مصر) مج ٣ ص ٤٥

(٢) من مقاله انذار – الرسالة ١٥ - ٦٦٨

(٣) راجع لهم مثلاً – اللباب (للزهاوي) ١٢١ – الفقر والسقام للرصافي (ديوانه) وقصيدته معترك الحياة الهلال ٢٩–٣٩ – ديوان الشبيبي ١٠٩ – الامواج للصافي ٣١ و٦٦ –قصائد شتى في ديوان بحر العلوم – قصيدة للهاشمي في المورد الصافي ٧ – ٢٧٣ بعض مختارات الدجيلي في الادب العصري في العراق (بطي) .

فلا تطالب بثورة او انقلاب وغاية ما ترجو ان تليّن قلوب الاغنياء فيمدوا يد الاحسان – كقول الجارم[١]

ايها الاغنياء اين نداكم بلغ السيل عاليات القِلال
هم عيال الرحمن ماذا رأيتم او صنعتم لهـؤلاء العيال

او ان تصف حال المحروم بكلمة ملأى بالشعور كقول رشدي ماهر[٢]

الله للمحروم بات على الطوى وطوى ليالي البرد دون غطاء
يحيا عـــلى الوادي النضير بقفرة ويعيش بـين الماء في صحراء

وقد تبلغ الدعوة حد الالم المر كما نرى في قصيدة لمصطفى الرافعي عنوانها « صوت الفقير[٣] » ينطق فيها بلسان عامل بائس متألم من ظلم الحياة فيصف حاله في المعمل وما يلحقه من حيف فيه ثم منزله حيث البؤس والمرض والقذارة . ولكن الشاعر لا يثور على هذا الوضع بل يعمد الى ملاينة الاغنياء ملتمساً منهم الرحمة والعطف على حال هذا الفقير المعيل .

فيا قرير العين في دهره عش ناعماً في جَدِّك المقبل
وارحم صغاراً كفراخ القطا من نادب حولي ومن معول
أحسن اليهم بحيـاتي وفز منهم باجر المنعم المفضل

وهو ككثيرين لا يرفع صوته بوجوب محو الفقر وافساد الغنى على اهله[٤] بل يرى تفاوت الطبقات من سنة الطبيعة . على انه يدعو الى الايمان الصحيح القاضي على القادرين بالرحمة والمعونة والسخاء وعلى المحرومين بالصبر على الحرمان والبلاء

ويكاد العقاد يكون ثائراً في قصيدته التي القاها سنة ١٩٣٥ محيّياً دار العمال حيث يحض العمال على الاتحاد والجهاد لنيل الحقوق . ويقول لمواطنيه انه لظلم فادح ان يعيش العـامل عيشة الفقر والمذلة والاغنياء يتنعمون بعرق جبينه وتعب يديه .[٥]

---

(١) ديوانه ١ – ٨٠
(٢) ديوانه (١٩٤٩) ٢٩
(٣) الهلال ١٧ – ٢٢٠
(٤) كتابه المساكين (١٩٢٩) ٢٩
(٥) راجع القصيدة في ديوان العقاد (عابر سبيل) ٩٦

وممن تبرز في شعرهم الشكوى من ظلم المجتمع للفقير الدكتور زكي ابو شادي وله في هذا الميدان جولات تذكر[١]، والشيخ امين الحداد (راجع مجلة مركيس ٢ - ٤٨٩)

وقد كان جديراً بحافظ ابرهيم وهو ممن اختبروا الحاجة وانطوت اضلعهم على قلب طيب حساس ان يكون من حاملي لواء الثورة الاجتماعية في مصر ولكنه لم يتجاوز موقف المصلح الذي يستعطف الاغنياء واولي الامر داعياً الى تعليم الفقراء وتيسير سبل الرزق لذوي الخصاصة حتى ينشأوا اقوياء الاجساد فيحسنوا خدمة وطنهم[٢] . وطبيعي ألا ينتظر من مثل شوقي ربيب النعم والرخاء ان يقف من قضية العامل الفقير غير موقف المشفق فقط الذي يسدي اليهم النصائح المفيدة « انما العامل من يجعل للدهر حسابا » فاذكروا يوم مشيب فيه تبكون الشبابا - اقوال ثمينة ولكنها خالية من الم التأثر وحرارة الاختبار .[٣]

واذا التفتنا الى الشعر السوري اللبناني فاننا لا نحس بحرارة هذه الدعوة في الوطن كما نحس بها في المهاجر حيث كان المهاجرون يخوضون غمار البأساء فتسيل من اقلامهم نقمة على ارباب المـــال والاعمال (وسنرى ذلك في فصل نخصصه لادب المهاجرين)

ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان الشكوى وطلب الاصلاح لم يشتدا بين الادباء المقيمين في سوريا ولبنان الا ابّان الحرب العالمية وبعدها[٤] .

---

(١) راجع له في ديوانه « عودة الراعي » حلم الغد - ١٣٣ الثالوث المقدس - ١٤١ الاحداث ١٤٣ وراجع له ايضاً قصيدة البؤس في الهلال ٣٧ ص ٨ - ١٠

(٢) راجع مقال احمد العجان في الرسالة (مصر) ٣ - ١٢٢٧

(٣) راجع قصيدته في الشوقيات ٣ - ٧٩

(٤) واليك بعض الامثلة : الى الاغنياء الجائرين - الهلال ٢٨-٨٩١ - الحرب الكونية-ديوان الالهام لامين ناصر الدين ٦٦ - البائسة - للزركلي(ديوانه)١-٣٢ - الريال المزيف - بشاره الخوري البرق ع ٣٤١٥ بيروت في الحرب-لطانيوس عبده ديوانه ٩٧- ايها المحتكر - الهلال ٢٧-٣٦٠- امنا الارض - المورد ٤ - ٢٣٨ - قصائد شتى في ديوان القيثارة لالياس ابو شبكه راجع بعض نفثات محمد الفراتي في ديوانه ومنها الداء الدفين ١-٢٢٧ التي يدعو فيها الى ثورة اجتماعية تتحطم بها النواميس الجائرة - وقصيدة الاغنياء لبولس سلامه البرق ع ٣٤١٨

ومما اهتم له الادب الحديث في جميع الاقطار العناية باليتيم والشريد. والاقوال في ذلك كثيرة[١]

وكما يتألم الادب الحديث لحال البائسين من الناحية الاقتصادية يتألم ايضاً لحالهم من الناحية الاجتماعية . واكثر ما يكون البؤس الاجتماعي في البيئات الحضرية ولا سيما المدن الكبيرة حيث تتوفر اسباب اللهو والملذات وتكثر التجارب والموبقات . فهناك يزخر تيار الخلاعة حاملا معه الشقاء الى كثير من الافراد والعائلات . وقد راينا ان نكتفي هنا بمثالين نرى فيهما ما يغني عن اكثر ما كتب ونظم في هذا الباب .

فالاول قصة شعرية لخليل المطران موضوعها « الجنين الشهيد » وهي كما يقول الشاعر تدور على حادثة جرت في مصر حضر وقائعها فوصفها بحقيقتها لتكون تذكرة وعبرة[٢] وقد صاغها في نحو ١١٤ دوراً خماسياً . وملخصها ان فتاة حسناء فلاحية الاصل جاءت مصر مع والديها للارتزاق . وكان والداها بائسين ومن ذوي النفوس المنحطة فدفعاها متنكرة باسم ليلى الى التسول ثم الى العمل في بعض الحانات التي يرتادها خلعاء الشبان .

ولم تخلُ في بدء عملها من خفر وحياء ولكنها لم تلبث ان فقدتهما في الحانة اذ تعودت مباسطة الشاربين واغراءهم على التمادي في الشرب والانفاق . وشعرت يوماً ان احدهم واسمه جميل يميل اليها ويظهر الهيام بها . فاظهرت له التودد علّه يتزوجها فتترك خدمة الحانة وتعيش معه عيشة عائلية راضية . وفعلاً وعدها

---

(١) من الامثلة الشعرية ما يلي
ام اليتيم لمعروف الرصافي - البرق ٢ — ٥ (بيروت) وديوانه ٥٢
« يتيم » لعمر ابو ريشة ديوانه (مطبعة الكشاف بيروت) ٢٦٢
« الايتام » لفؤاد الخطيب جريدة الجمهور (بيروت) ٧ عدد ٢٦٣
« اليتيم » للدكتور سليم حيدر « الاديب » ٤ ج ٥
« اليتامى » لمصطفى الماحي ديوانه (مصر) ١٦٦
ومن النثر مسرحية الشريد لعلي بك حلمي التي تعالج مشكلة الطفولية المحرومة من عطف الآباء والامهات الرسالة ١٥ — ٥٢٠

(٢) راجع القصيدة في ديوان المطران ج ١ - ٢٢٣

بذلك فاعرضت عن سائر الشبان وخصته بانسها وقربها . واثار ذلك غيظ احدهم فاغلظ لها الكلام لكن جميلاً بارزه وانتصر عليه ثم حملها الى مكان آخر حيث قضيا الليل بعد ان امّلها بالزواج العاجل

وتمر الايام فاذا ليلى حامل وجميل لا يزال يخادعها ويماطلها وهي ترجو وفاءه بالوعد يقول الشاعر :

وظل جميل لا يفي دين وعده وليـلى ثبوت في صيانة عهده
وتهواه حتى في اساءة قصده وتحمل منه المطل خشية بعده
وتقبل منه ما يُمرُّ وما يحلي

ولما كاد امرها يفتضح تجلت لها الحقيقة المؤلمة ان جميلاً كاذب وقد خدعها . فلم تر بداً من قتل جنينها . وها هي بحسرة شديدة تخاطب جنينها قبل القضاء عليه .

فيا ولدي المسكين فلذة مهجتي ويا نعمةً عوقبت فيهـا بنقمة
ومن كنت ارجوه لسعدي وبهجتي وكان يـناجيه ضميري بمنيتي
وآمل ان يحيا ويرجع لي بعلي
تموت ولمّا تستهـلّ مبشّرا تموت ولم انظر محيّاك مسفرا
وتبرح قبراً فيه عُذّبت اشهرا الى جدث منـه ابرّ واطهرا
وتحيا صغار الطير دونك والنحل

وهكذا يقضى عـلى ذلك الجنين البريء وتضطر امه ان تعود الى حياة الحانات للارتزاق . ثم تناست مع الزمان ما كان وما عوقبت على حد قول الشاعر :
« غير الطهارة والطفل »

اما المثل الثاني فقصة نثرية لمحمود تيمور « موضوعها الى الحضيض » .[1]

وهي تختلف عن الحادثة الشعرية الانفة الذكر في ان البائس شاب كان هو الجاني على نفسه . وهذا الشاب كان من « ساقطي الابتدائية » في مصر وكان يسكن القاهرة ويعيش على مرّتب زهيد يرسله اليه والده المقيم في الريف . ويلتقي يوماً في احد المقاهي بجماعة من الشبان فينخرط في سلكهم ثم يرافقهم

(١) راجعها في مجموعته « ابو علي عامل ارتيست وقصص اخرى » ص ٩٠

– على كره منه في اول الامر – الى احدى صالات الغناء . وهناك لا يلبث ان يتدله بحب مغنية اسمها كوثر . فيتظاهر امامها باليسر وحسن الحال . ولكي يتمكن من اثبات ذلك يعمد الى النصب والاحتيال . وهكذا يأخذ بالتدهور دركة دركة حتى يصل الحضيض . ويرينا الكاتب هذا الشاب وقد اصبح في آخر امره معتوهاً منبوذاً يلبس الاسمال القذرة ويستعطي النـاس على ابواب المقاهي والملاهي .

ومن المفاسد الجنسية التي اهتم بها الادب مسألة اللقطاء الذين يطرحون على ابواب الملاجيء . ويظهر ان الادب المصري اكثر اهتماماً بها من سواه[1]

والحياة الاجتماعية في الحواضر واسعة النطاق متشعبة الاطراف وقد ولج الادب جميعها وترك لنا منها رسوماً سوداء تعكس ما فيها من فساد والم وشقاء.

(١) راجع مثلاً قصيدة احمد محرم في كتاب شعراء العصر لحسنين ٢٢٣
وقصيدة احمد رامي في ديوانه ١٤
وقصيدة لرشدي ماهر في ديوانه (١٩٤٩) ٧٠
ومقالا لمصطفى الرافعي موضوعه عربة اللقطاء في الرسالة (مصر) ٣ – ١٤٤٣

٤ ـ في مناصرة المبادىء والحقوق الانسانية

نشأ الادب العربي اصلاً في بوادي الجزيرة العربية . وبرغم ما يربط البدوي بقبيلته من نظم متعارفة وما يترتب عليه لشيخه او رئيسه من واجبات ترى فيه نزعة ظاهرة الى الحياة الطليقة . فالبداوة لا تعرف هذه القيود السياسية والاجتماعية التي تجعل من الناس طبقات متباعدة واصنافاً متفاوتة، وهي تكره الاستعباد واحتمال الذلّ والضيم . ولعل البيتين التاليين – وهما من لامية العرب المنسوبة الى الشنفرى – يعبّران عن هذه النزعة البدوية افضل تعبير .

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القِلى مُتعَزّلُ
لعمرك ما في الارض ضيق على امرىء سرى راغباً او راهباً وهو يعقل

كذلك كان العرب يوم خرجوا لفتح الامصار ، ومع تحول الخلافة الى ملك ايام معاوية وخلفائه من الامويين لم يتحولوا كثيراً عن بساطتهم الاجتماعية ولم ينفصلوا تمام الانفصال عن طبائعهم البدوية . والواقع ان النظام الملكي المطلق وما رافقه من تفاوت بين الطبقات لم يتوطد فيهم الا بعد ان اصبحت بغداد عاصمة الخلافة وبعد ان طغت عليهم امواج الاعاجم من فرس واتراك ومغول . وقد بلغت الملكية المطلقة اوجها في العهد العثماني حتى نهاية حكم عبد الحميد الثاني في مطلع هذا القرن . ومن المعلوم ان الغرب قد سبق الشرق في محاربة الحكم الاستبدادي واعتناق النظام الدستوري . بدأ ذلك جزئياً في بريطانيا ومنها حمله محبّو الحرية الى العالم الجديد حيث اسسوا الديمقراطية الاميركية . ثم انبثق متألقاً في الثورة الفرنسية التي اعلنت حقوق الانسان حاملة مبادىء الحرية الى اكثر البلدان[1] .

فأخذ ادباء الغرب ومفكروه يلهجون بحقوق الفرد والجماعات وما على الحكومات من واجبات وتبعات . وتسربت هذه المبادىء خلال القرن الماضي الى الشرق

---

(١) لمعرفة تأثير هذه الثورة في ادبنا راجع كتاب الفكر العربي الحديث لرئيف خوري وراجع نصّ حقوق الانسان كما اقرّها الافرنسيون في دستور ١٧٩١ – في مجلة الطريق ١ ع ١٢ وفي البرق ٢ – ١٧٩

العثماني فظهر لها بعض الاثر في بدء الحكم الحميدي (١٨٧٦) باعلان النظام النيابي. ولكن هذا النظام لم يطل امره فعادت السلطنة الى الحكم المطلق وظلت كذلك حتى حدث الانقلاب سنة ١٩٠٨ فاعيد الدستور ووطد الحكم النيابي . ومنذ ذلك الحين اخذ الادب في الشرق العربي يرفع صوته داعياً للمبادىء الديمقراطية متغنياً بالحرية الفردية والقومية .

ولا ينكر انه قد ظهر قبلاً في تاريخ الادب العربي افراد من دعاة الحقوق الانسانية ومن الناقمين على فساد بيئتهم السياسية والاجتماعية، وكأن المعري ينطق بلسانهم اذ يقول :[1]

مُلَّ المقام فكم اعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أُجراؤها

على ان اصواتهم لم تتجاوز حد الشكوى ولم تصل الى مدى بعيد . كان الادب عموماً لا يزال تحت تأثير المعتقد السائد ان كل شيء مكتوب لا سبيل الى تغييره . اما اليوم فقد اصبح الانسان يشعر بمقدرته على تكييف احواله فهو يسعى الى اهدافه متكلاً بالاكثر على نظمه ومستنبطاته، لا على اقدار من وراء الكون تتحكم بحركاته وسكناته .

ولا شكّ ان هذا التحوّل الفكري ناتج عن احتكاكنا بالحضارة الغربيّة . وقد اصاب احد الباحثين اذ قال سنة ١٩٢٣[2] — « انه منذ ثلاثين سنة (من عهده) اخذت وسائل الترّقي تتسرّب من الغرب الى الشرق الادنى وبات من الصعب ان يقف الاستبداد حائلاً بين العلوم والعقول، والمواهب السامية والمشاعر الحيّة . فهبت الجماعات من كل حدب تسير الى الامام في سبيل الاصلاح والفلاح، واخذ ظل الاستبداد يتقلّص عن الشرق رويداً رويداً . » وقد وصف الدكتور شبلي شميل الارتقاء الذي حصل في المجتمع منذ منتصف القرن الماضي فقال[3] « وكما انه حصل هذا الارتقاء في العلوم والمخترعات والصناعات حصل ايضاً في الافكار

(١) اللزوميات (١٨٩٥) ١ - ٥٥
(٢) المقتطف ٦٣ - ٣٧٢
(٣) مجموعته ج ٢ - ٢٩٤ ومجلة الطريق ٢ ع ١٠

فتغيّر نظر الانسان في الشرائع والحقوق والواجبات. فعلم عن يقين ان حقوق الافراد لا يجوز ان تبتلع في جوفها حقوق الجموع، وان المنافع العمومية مقدّمة على المنافع الخصوصية، وان الشرائع التي لا يتوفر معها كل ذلك يجب ان تمزق تمزيقاً». فليس بغريب ان بعض الشباب المثقفين. - حتى في اواخر القرن الماضي وفي ابّان العصر الحميدي - يندفعون الى الجهر بحب الحرية والمساواة كما فعل الياس صالح اذ وقف سنة ١٨٨٨ على منبر الجامعة الاميركية في بيروت والقى قصيدة موضوعها «الحرية الادبية» وهي لا شك تعبّر عن شعور كان قد اخذ يسري في النفوس المثقفة ومطلعها. -[1] -

خلِّ عنك الوقوف في دار ميّه	واعتزل ذكر زينبٍ وأُميه
ومنها أنّ هذا الانسان لم يك عبداً	اثبتتــه الشرائــع المدنيّه
انت حرّ فاعلم بهذا وعلِّم	انت حرّ وهــذه اوّليــه
ولكم قد رأيت من حيوانٍ	يقضم الحبــل بغية الحرّيه
لست عبداً انا ولا انت مولىً	ايّهـا اللابس الحلى الذهبية
هكذا الناس ايها الناس طرّاً	ما لزيدٍ عــلى عُبيد مزّيه

وانه ليتراءى لنا من خلال الظلمات التي كانت تغشى البلدان العربية قبل عهد الدستور فئة من احرار الادباء الذين تبرز في ادبهم هذه النزعة الانسانية يمثّلهم اديب اسحق اذ يقول من فصل له[2] مشيراً الى الثورة الافرنسية واثرها الاجتماعي - «تلك ثورة الفرنسيس برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها، وعن النفوس حجابها، فآنست من جانبها روح الحرية، وخلعت جلابيب الرق والعبودية». ولما تصدى لها اعداؤها تلقتهم «وهي ترى الموت في الحرية حياة والحياة في الرق موتاً، فلم يبلغوا منها قصداً، ورسخت في عالم الوجود قدماً وكثر الملأ من حولها وادهشت الدنيا بشدة حولها». ويذهب الياس ابو شبكة الى ان ادباء الشرق ما تأثروا

---

(١) راجعها في المقتطف ١٣ - ٦٠٦

(٢) راجعه في كتاب الدرر ١٠٣

بعامل اجتماعي كما تأثروا بمبادىء الثورة الفرنسية . تلك المبادىء التي « يُستنشق الروح الفلسفي والانساني في كل منها »[١] .

على ان فكرة الحق لم تنضج في الادب العربي ولم تصبح موضوعاً للاقلام الا بعد ان شاعت في ابناء هذا القرن الحاضر حقائق العلوم الاجتماعية والطبيعية، وبعد ان تفتحت العيون على النظم الغربية الحديثة من سياسية واقتصادية. يقول عباس العقاد في مقال موضوعه « اثر الاجانب في نهضة مصر »[٢] « ومتى تحوّلنا الى هذا الجانب (اي المجتمع والمظاهر الاجتماعية) فالذي نشاهده ان اهم اثر للاجانب في نهضتنا هو تحرير المرأة اولا ثم تجديد النظم الحكومية ثانياً، ثم عدد الذين تعلموا وكان لتعليمهم علاقة بالنهضة القومية لانه رشّحهم لقيادتها وحضّهم على طلب النهوض » . واذا اضفنا الى ذلك توجيههم نحو المثل الديموقراطية والانسانية فان كلامه يصدق على كل قطر .

ولفكرة الحق في ادبنا الحديث وجهتان رئيسيتان – وجهة عامة ووجهة خاصة . الاولى تتناول الحقوق الانسانية والثانية الحقوق القومية . فلنلق نظرة على كل منهما .

الوجهة الانسانية العامة

ان الكلمات السحريّة الثلاث – حرية – مساواة – اخاء – كانت شعار الثورة في حملتها على الملكية المطلقة والارستقراطية الممتازة . على ان لها معنى انسانياً عاماً هو عند التحقيق اساس كل مجتمع دستوري راقٍ . فالحرية هي حق الفرد ان يفكر ويتصرف كما يشاء ضمن نطاق القانون . والمساواة ان يفتح للجميع على السواء ابواب التقدم لا يعوقهم عن ولوجها عائق ولادة او مال او مقام . والاخاء تضامن افراد الامة على تحمل التبعات خدمة لمصلحة المجموع . بهذا المعنى العام تبرز هذه الكلمات في ادبنا الحديث . ومع ان في العالم العربي اليوم فئة

(١) المكشوف (بيروت) ع ٢٣٢
(٢) الهلال ٤٥ – ٨٤٤

من الادباء تميل الى الشيوعية وتناصرها باقلامها والسنتها[١] فان الادب عموماً لا يزال كما كان منذ بزغ العهد الدستوري موالياً للنظام الديمقراطي محبذاً الاستقلال الفردي والتراث الروحي، على انه يطالب ان يطبّق الدستور تطبيقاً حقيقياً، ويؤلمه ان يرى التقاليد المذهبية والاقطاعية والعناصر الاستغلالية عثرةً في سبيل الحياة الوطنية.

وقد كان طبيعياً في هذا العصر الذي انتشرت فيه الثقافة الانسانية الحرة ومبادىء النشؤ العمراني ان يتحول الادب عن ابواب العظماء من ارباب السيف والمال الى خدمة الشعب والاهتمام بمصالحه. فما هو بعد وسيلة لاستنداء اكفّ الاغنياء او للتزلف الى الاسياد والحكام، بل هو - الا في زوايا قليلة - رسالة سامية تعكس لنا جمال الحياة.

وذلك لا يعني ان الروعة الفنية وقف على الادب المثالي لا توجد خارجه، بل يعني ان النزعة الانسانية قد اصبحت عامة في ادبنا الحديث، ومن السهل ان يراها كل مطلع على نفثات كتابنا وشعرائنا.

فمنهم من حمل لواء الثورة الاصلاحية كامين الريحاني، وما خطبه ومقالاته التي جمعها في «الريحانيات» الا نفثات مشبعة بالمبدأ الانساني[٢]. وهو يقف فيها، بل في سائر مؤلفاته وقفة المجاهد في سبيل الحق والعدالة والنور حاملاً على المظالم والتقاليد والخرافات مهيباً بابناء قومه الى السير قُدُماً نحو العلى. كقوله[٣] «ان المرء يحتاج دائماً الى من يذكّره انه من ابناء اليوم لا من بقايا الامس - يحتاج دائماً الى من يريه الربقة والقيود على روحه - يحتاج دائماً الى من يهمس في اذنه ويصرخ في وجهه انك انسان حرّ لا آلة في يد هذا او ذاك يتصرف بها ساعة يشاء وكيف يشاء.» وبعد ان يدعو الشرقيين الى الثورة الادبية والنهضة الروحية يقول - «اي اخواني اسمعوا التقيّة تهمس في اذن هذا الشيخ

---

(١) ويمثلها كتّاب مجلة الطريق في بيروت ونظراؤهم في سائر الاقطار العربية

(٢) راجع مثلاً مقالاته التالية - على جسر بروكلين - الحرية والتهذيب - الثورة الادبية - الاخلاق - خطاب المسيح - المدينة العظمى - الحق والقوة.

(٣) الريحانيات - ٢ - ٥٣

حافظ على مركزك، والخوف يقول لذلك الصحافي حافظ على مصلحتك . اسمعوا الذلة ترشد اخانا الفلاح قائلة "اتق بطش سيدك، والجبانة تهمس في قلب الراهب "اتق الفضيحة وحافظ على ثوبك . فالتقية والخوف والذلة والجبانة هي اعداء حرية الانسان الحقيقية، وان لم يحرر نفسه منها بنفسه فمئة قانون ومئة دستور لا تحرره »

وفكرة الثورة الاجتماعية في نفس الريحاني قوية جداً وقد تتقد فيقذفها قلمه شعراً منثوراً كقوله منذراً الطغاة والمستبدين[١] .

هي الثورة وابناؤها الحفاة وصبيانها المسترجلون العتاة
ورجالها الاشداء الكماة ونساؤها المتنمرات
ويلٌ يومئذ للظالمين
أنذرهم بأغلالٍ وسعير بقنابل تنفجر ويوم عسير
يوم لا ينهون ولا يأمرون ولا يطلقون فيهربون
ويل يومئذ للظالمين

وهكذا يجري في هذا النشيد وغيره مذكراً الناس بعتاة التاريخ وكيف دكت عروشهم ونال المظلومون من الظلام حقوقهم .

ومن الادباء الانسانيين من حمل لواء التمرد على الاوضاع والنظم الموروثة ويمثلهم جبران جبران في اكثر ما كتبه بالانكليزية وبالعربية، ويكفي ان نذكر له هنا « العواصف » فهي كأسمها عواصف تهبُّ من اعماق نفسه لنسف المعتقدات والعادات القديمة التي تقيد حرية الانسان وبالتالي تحول دون سعادته . فالحياة البشرية عنده مثقلة بقيود الذل والهوان، وما الانسان تحت الاوضاع الحاضرة الا عبد لا يعرف نعمة الحياة الطليقة — عبد لتقاليد موروثة لا خير فيها — عبد للماضي وسنن الجدود — عبد لما تتطلبه البيئة — عبد الشرائع الجائرة والمطامع القاهرة . واذن فلا يرجى له صلاح الا بهدم ما بناه الماضي في حياة الانسان واستئصال كل ناخر وفاسد من جسم العمران . « وماذا عسى ان افعل بأيامي ولياليّ لانفع الناس ؟ اتخذ حفر القبور صناعة تريح الاحياء من جثث الاموات

(١) الريحانيات — ٢ — ١٨٤

المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم ، هكذا يقول في مقاله الرمزي – حفار القبور – الذي يرمز به الى نفسه والى رسالته الادبيه . وعلى هذا الغرار يجري في مقاله العبودية اذ يقول – « انما الناس عبيد الحيـاة وهي التي تجعل ايامهم مكتنفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدموع » وبعد ان يستعرض لنا التاريخ والمجتمع يقول – اتبعت الاجيـال من ضفاف الكنج الى شاطىء الفرات الى مصب النيل الى جبل سينا الى ساحات اثينا الى كنائس روما الى ازقة القسطنطينية الى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها الهاً، ثم يسكبون الخمور والطيوب على قدميها ويدعونها ملكاً، ثم يحرقون البخور امام تماثيلها ويدعونها نبياً، ثم يخرون ساجدين لها ويدعونها شريعة، ثم يتحاربون من اجلها ويدعونهـــا وطنية، ثم يجدّون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالا وتجارة »[1] .

ويظهر تمرد جبران كما ذكرنا آنفاً – في اكثر اقواله ولكنه تمرد يراد به نصرة الحق الانساني والحياة المثلى وهو يرسمه لنا بصورة ادبية خلابة[2].

وما يدعو اليه جبران عن طريق الخيال الشعري يدعو اليه جملة صالحة من الكتّاب عن طريق البحث الحر . فكتاب « في الادب الجاهلي » مثلاً لطه حسين – وان لم يخصص للمباحث الانسانية – ينضح بروح جريئة تجاهر بما تعتقد وتطالب بحرّية التفكير وحق الانسان ان ينظر في الامور – ماضيها وحاضرها – نظراً غير مقيّد بتقليد او مذهب، وان يعرض نظره على الجمهور دون محاباة او وجل . وهذه الروح هي التي تظهر في وصفه للروح الجامعي اذ يقول[3] « الروح الجامعي الذي يسمو على كل الفروق ويرتفع فوق كل لون من الوان الخلاف هو الذي ميّز الانسان وسيميّزه من الكائنات الحيّة كلها، هو حب الحق والبحث عنه، هو الرغبة في المعرفة والحرص عليها، هو الاقبال على العلم من حيث هو لا من حيث ما قد يُنتج من الخير او يحقق من النفع » .

(١) راجع الفصلين الاولين من العواصف

(٢) راجع ايضاً الفصول التالية : الملك السجين – يا بني امي – ابناء الالهة – المخدرات والمباضع الاضراس المسوسة – العاصفة .

(٣) الهلال ٤٦ – ٣٦٥

وما يقال عن كتاب « الادب الجاهلي » من حيث الروح الانسانية الحرة يقال عن عدد من الكتب والرسائل التي ظهرت في هذا العصر « كتحرير المراة، « والمراة الجديدة » لقاسم امين، « وحرية الفكر » لسلامه موسى، «وثورة الادب» لحسين هيكل ؛ « والغربال » لمخايل نعيمه ، وسواها ،

وليست العبرة في هل هذه الكتب جميعها تنطوي على حقائق لا تقبل المناقشة بل في الدوافع النفسيّة التي دفعت كتّابها الى وضعها وتحمّل تبعاتها .

واذا التفتنا الى الشعر رأيناه لا يقل عن النثر تأثراً بهذه الروح . ومن الشعراء الذين عرفوا بذلك جميل الزهاوي الذي شغف بالحرّية حتى جعلها فتاة شعره وغاية مناه . وقد دفعه هذا الشغف الى مهاجمة الحجاب وعبث الحكام وجمود الرجعيين وغير ذلك بما كان يراه حائلاً دون التقدم . وهو يهاجم غير متردد او هيّاب مفاخراً بصبره وثباته في ساحة الجهاد — يقول

يريدون ان يخفي الجريحُ أنينَه ويسكتَ اهل الحق عن طلب الحقّ
ولكنّني ابقى بحقّي مطالبــاً الى ان يسدَّ الموت في ساعةٍ حلقي[1]

ومثل الزهاوي محمود الخفيف (مصر) في قصيدة يذكر فيها ابطال الحرّية في التاريخ وان الحرّية مهما اخفق الزمان صوتها فهي تتجلى في الطبيعة وفي ارواح الشعراء اذ هي من روح الله هيهات ان توثق[2]

وقد تبلغ الحرارة ببعضهم درجة الثورة على الاوضاع السياسية السائدة . كما فعل محمد مهدي الجواهري في مطوّلته « عالم الغد »[3] . حاملاً على النظـــام الديمقراطي الرأسمالي ويسميه تهكما نظام الاحسان والصدقات . يقول فيها —

يا نظام الاحسان والصّدقاتِ واقتطاع الاجراء والنفقاتِ
من حساب الاسلاب والسرقات
واحتضان اللقيط في الطُرقات
واحتيــال القانون للطبقـــات

(١) ديوانه اللباب ١٨٣

(٢) راجعها في الرسالة ١٥ ـ ٥١٣

(٣) راجعها في مجلة الطريق (بيروت) مج ٢ ج ٢٠ ومج ٣ ج ١

موبقـاتٌ تُرَمُّ بالموبقـــاتِ

يربأ الكون واثقـــاً مقداما ماشياً – والانوفُ رغمٌ – اماما

غازياً بؤرة العقول اقتحاما

تاركاً خلفه الرياءَ حُطـاما

أن ترى انت الشعوب نظاما

ومثل الجوهري كاظم السماوي في اغاني القـافلة وهو يمثل الشباب المتنبه لحقوقه الناقم على الاستعمار والاستبداد

ومن الشعراء الانسانيين من يتخذ طريقة التأمل والاعتبار، كاسماعيل صبري مثلًا اذ يرى سنة ١٩١٠ مذنب هالي ويسمع ما يقال فيه ويشاع عنه فيفكّر الشاعر في حياة الناس ويقول من قصيدة[١]

والورى طـاردٌ ازاء طريدٍ وعُقـاب تُمسي تطارد صقرا

وجيوش يغلّ من بعضها البعضُ وهضبٌ كبرى تناطح صُغرا

عِبَر كلّها الحيـــاة ولكن اين من يفتح الكتـابَ ليقرا

واذا صحّ ان الحق ضائع في الورى وانّ لا صلاح للكون في زعمه الا بالفناء فلا غرابة ان نراه يرّحب بهذا المذنّب الذي يزعمون انه سيصدم الارض ويُودي من عليها .

وبعد وقفة اسماعيل صبري لدى المذّنب بعشر سنوات يقف متأمل آخر على نهر لندن وكانت بريطانيا قد خرجت ظافرةً من الحرب العالمية الاولى واخذت توّطد قوتها الحربيّة فيخاطب تلك القوّة الجبارة بقوله من قصيدة[٢]

ايّهـا القوّةُ مهلًا فاحذري انّ في التاريخ للناس خبرْ

والِيَّ اصغي قليلًا واذكري ومعي سيري تري فيه العِـبَر

كم هوت من قوّةٍ قبل الاجل

---

(١) ديوانه ١٤٢

(٢) مجلة الكلية ٨ - ٣٨ والمورد الصافي ٧ - ١١٠

وعـــروش وشعوبٍ ودول
بعدما صـــالوا بجندٍ وخول
انهم بالسيف قاموا وعلوا وبه ايضاً من الاوج هوّوا

وهنا يلتفت بعين الخيال الى مدافن الامم في التاريخ فيرينا كيف طويت امجاد القوى الغاشمة ثم يختم القصيدة مشيراً الى هذه المدافن .

ههنا السيفُ سيعلوه التراب ههنا المدفع يصدا في الظلامْ
ههنا الرمح سيبلى والحراب ويذلُّ الفخر في جوف الرّغام
ليس للقوّة سلطان الوجود
ليس للسيف العلى او للجنود
انما الحقّ سيعلو ويسود
ايهـــا القوّةُ هلّا تعقلين هوذا الحكمة تدعو العالمين

وفي التاريخ كثير من العبر . والادب كثيراً ما ينظر الى وقائع المستبدين وما آل اليه امرهم . كما فعل خليل مطران في بضع قصائد له منها « مقتل بزرجمهر » و « الاهرام » و « نيرون »[1] . وهذه الاخيرة تصف لنا في نحو اربعمئة بيت حياة نيرون واستبداده الجنوني ثم خنوع الناس لديه وتزلفهم اليه . والشاعر يلوم الناس على هذا التصرف ويعتقد انهم هم الذين يسهلون طريق الاستبداد والفساد للمستبدين فيقول في مطلعها —

ذلك الشعبُ الذي آتاه نصرا هو بالسبّة من نيرون احرى
ايّ شيء كان نيرون الذي عبدوه ؟ كان فظّ الطبع غرّا
انمـــا يبطش ذو الامر اذا لم يخف بطش الألى ولّوه امرا

ويختمها بقوله —

من يـــلمْ نيرون اني لائم امّةً لو كهرته ارتدّ كهرا
كل قوم خـــالقو نيرونهم قيصر قيل له ام قيل كسرى

(١) تجد جميع هذه القصائد في ديوانه ١٩٤٩ ج ١ – ١٢٠ و١٠٤ وج ٣ – ٥٠

ومن هذا الشعر الانساني قصيدة لمحمد تيمور موضوعها « عقبى الظالمين » او خوفو[١] . وقصيدة لرئيف الخوري موضوعها « قمة الزمان »[٢] وكثير مما لا يمكن حصره هنا . وكلها تعكس هذه الروح التي تدافع عن الحق وتتغنى بالحرية وتحمل على الاستبداد المادي والروحي فتصبح بلسان ابي القاسم الشابي التونسي[٣] .

الا ايّها الظـلم المصعّر خدّه   رويدك ان الدهر يبني ويهدمُ
هو الحقّ يبقى ساكناً فاذا طغى   باعماقه السخط العصوف يدمدم
وينحطّ كالصخر الاصمّ اذا هوى   على هام اصناف العتوّ فيحطم

الوجهة الانسانية الخاصة

واذا نعتناها بالخاصة فليس لانها تختلف عن العامة بروحها بل بمداها ومرماها. وذلك لانها محدودة تنحصر في حياة الامة وتبرز في نفثاتها القومية . وليس غرضنا الآن ان نعود الى شرح العواطف التي رافقت تطور العرب القومي وتغير اوضاعهم السياسية قد تناولنا ذلك باسهاب في الجزء الاول من هذا الكتاب. وانما غرضنا ان نوجه النظر الى ما في هذه العواطف من نزعة انسانية، ومن نصرة لمبدأ الحق والعداله . ولعلّ اهم العوامل الفعالة في تقوية هذه النزعة هي ما يلي :

١ – اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ وقد بينا في غير هذا المقام كيف اهتزت له القلوب وكيف اعتبره الجميع اثبت ضمانة للحق وافعل وسيلة لازالة الفساد[٤].

٢ – مبادىء الرئيس ولسون الاربعة عشر .

٣ – الميثاق الاتلانتيكي سنة ١٩٤٢ .

٤ – انشاء منظّمة الامم المتحدة

٥ – اعلان حقوق الانسان

. . .

(١) المقتطف ٥١ - ٣٩٧
(٢) مجلة الطريق (بيروت) ٣ ع ٢٠
(٣) الرسالة (مصر) ٢ - ٢٠٦٧
(٤) الجزء الاول ٣٤

لما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها برز مبدأ تقرير المصير كما اعلن في مبادىء ويلسن المشهورة . فحرك ذلك الامم المستضعفة واحيا آمال النفوس الوطنية الحرة حتى جعلوا منه مصادر وحي لكثير من ادبهم القومي[١]. فكان العرب مثلاً كلما سنحت فرصة ذكروا الرئيس الاميركي بالخير واثنوا على مساعيه كما فعل عبد المحسن الكاظمي في قصيدة القاها سنة ١٩١٩ – « تحية لرسول السلم» وهي طويلة وتتجسم لك روحها في البيتين التاليين منها :[٢]

يا خـيرة الرؤساء انت فضيلة سارت مسير النجم في الديجور
عمرت مجالسنا بذكرك وانحنى لرفيع قـــدرك سائر المعمور

وقد يقرنون الثناء عليه بالاسى لتغلب الدهاء السياسي في اوروبا على مثالية مبادئه كقول خيري الهنداوي[٣] في قصيدة :

فوعى ولسون الرئيس من القول نصوصاً قـــد نُمّقت تنميقا
وتلا ملقياً عـــلى القوم آياً قبلوها واظهروا التصديقـــا

ولكنهم في الحقيقة لم يؤمنوا بها ولا طبقوها فذهبت ادراج الرياح وهكذا عم الانتداب معظم الاقطار العربية وذهب بأماني العرب وآمالهم في تقرير مصيرهم .

ومن الطبيعي ان يثير ذلك في نفوس القوميين منهم شعوراً حاداً بالخيبة وان يرسخ في عقولهم المعتقد بانهم مظلومون مهضومو الحقوق حتى صرت تراهم – رغم تكتلاتهم السياسية والاقليمية – مرتبطين معاً برباط واحد من الاسى والمرارة النفسية ولسان حالهم يردد مع الرصافي قوله من ابيات نشرها سنة ١٩٢٠[٤].

وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدّعي باشياء من بطلانهـا ضحك الحقُّ
فهم منعوا رق الاسير وانمـــا اجازوا لهم ان يشمل الامم الرقُّ

(١) راجع مثلاً خطاب مكرم عبيد الثورة النفسية في الشرق الذي القاه في دمشق ـ تجده في جريدة الاخاء الوطني بغداد ع ٣١ اب ١٩٣١

(٢) راجعها في ديوانه ص٢٢٦ وراجع مثلها قصيدة لمصطفى الرافعي في المقتطف ٥٤ـ١٧٠

(٣) راجعها في الادب العصري في العراق (بطيّ) ١ ـ ١٦٩

(٤) الهلال ٢٩ ـ ١٨

ولهذا الشاعر قصيدة تهكمية موضوعها « القوة تصف الحرية » يقول فيها[١] :

يا قـــوم لا تتكلموا ان الكلام محرم
فاذا ظُلمتم فاضحكوا طرباً ولا تتظـــلموا
او قيـل هـذا شهدكم مرٌّ فقولوا علقـــم
او قيـل ان بلادكم يا قـــوم سوف تقسّم
فتحمّدوا وتشكروا وترنحـــوا وترنمـــوا

امثال هذه النفثات الشاكية كانت ترتفع في جميع الاقطار العربية معبرة عن شعور عام بتقهقر الحق امام الباطل وتغلب المطامع الاستعمارية على الامال القومية وقد كان لهذا الشعور ابان الحرب العالمية الثانية عمل في صرف الفئة الكبرى من العرب عن الحلفاء.[٢]

ولما اعلن الميثاق الاتلانتيكي سنة ١٩٤٢ وقفت العواطف العربية موقف المتردد بين المعسكرين حتى أعلن استقلال بعض البلدان العربية وقبولها في جمعية الامم المتحدة فقضى ذلك على التردد وجعل العرب عموماً في جانب الديمقراطيات الغربية . على ان الاعتداء الصهيوني في فلسطين ومناصرة الديموقراطيات الكبرى له قد اوقف العرب موقف الريب والحذر ودفع كثيرين منهم الى هوّة اليأس والنقمة ولا ندري ما ستلده الايام من تطورات تتبدل معها مجاري العواطف في الممالك العربية، ولكنّنا ندري ان تربتنا قد زرع فيها من البزور الفكرية ما سيكون له شأن في توجيه ادبنا الانساني . فالايمان بالديمقراطية، ونشوء الفكرة بجامعة دول عربية ، والشعور بالاستقلال السياسي ، وقيام الاحزاب والمنظمات الشعبية — كل ذلك وان لم يكن بعد قد تأصل في حياتنا القومية سيجد فيه الادب مجالاً واسعاً لتعزيز الروح الوطنية ضمن إطار المبادىء الانسانية الحرّة .

. . .

ونحن لا نزعم ان تاريخ الامم العربية لم يكن سوى سلسلةٍ من عهود خنوع

(١) راجعها في ديوانه (١٩٣١) ٤٢٦

(٢) راجع تزكية لذلك ما كتبه مراسل ال Sunday Times في القاهرة الى جريدته وقد نقلته جريدة البلاد البغدادية في عددها ٨ شباط ١٩٣٩

واستكانة، وان ادبهم لم يكن الا ادب تزلف وارتزاق. فمنذ ايام الجاهلية الى هذا اليوم يمر امامك على صفحات التاريخ الادبي ما يشير الى ان انصار الحق والحرية لم ينقطعوا في عهد من العهود. على انه من الانصاف ان نقرر انه لم يكن عهد تشرّب ادبه روح الانسانية وادرك معنى العدالة الفردية والاجتماعية كهذا العهد الاخير. حتى ان بعض قادة الفكر بيننا يعتبرها الاساس الصحيح للتعليم العالي. وعلى ذلك يقول فيليب حتي[١] – « ان غاية التهذيب يجب ان تكون الغاية الاجتماعية المقصود بها تأهيل الطالب لخدمة المجموع ولمنفعة بني الانسان. فحريٌ بنا ان ننعم النظر في كل درس نريد ان نعطيه في هذه الجامعة لنتأكد علاقته بالحياة ومشاكلها ولنتحقق ما اذا كان يساعد الطالب في المستقبل على العيشة الديمقراطية الاجتماعية الحرة ».

بل يذهب احمد امين الى ابعد من هذا فيطلب « ان يكون مبدأ الانسانية ديناً يبشّر به ويُعمل من اجله وتحوّر مناهج التعليم وقواعد الاخلاق على حسبه»[٢]

ومهما اختلفت نظريات الادباء في معنى الديمقراطية وفي علاقة الفرد بالمجموع فانهم متفقون على مناصرة الحق الانساني. ولا شك ان اعلان وثيقة حقوق الانسان كما اقرّتها الامم المتحدة في اواخر السنة ١٩٤٨ سيقوّي في ادبنا وفي ادب كل امة هذه الفكرة السامية التي هي ضالّة الامم المنشودة.

ولا ينكر ان الغرب قد سبقنا شوطاً بعيداً في هذا المضمار فلم يظهر فينا بعد من يضاهي كارليل (Carlyle) ورسكن (Ruskin) وديكنس (Dickens) وكنسغلي (Kinsgly) وموريس وروسّو وهيغو وتولوستوي وامثالهم من امراء الادب الانساني الذين الهبوا شعور الناس فكان لهم يد تذكر في اصلاح المجتمع. على ان الشرق الجديد آخذ بالتقدم[٣] وقد بدأ يتأثر بالحركات الشعبية التي تفعل فعلها اليوم في البلدان الراقية. وطبيعي ان ينعكس ذلك في ادبه وان يزيد مع الايام اهتماماً باحوال الشعب ووسائل اصلاحها[٤].

---

(١) من خطبة القاها في بيروت ١٩٢١ (في حفلة الجامعة الاميركية) المورد الصافي ٧ - ١٢٢

(٢) من مقالة اكاذيب المدنية - الهلال ٤٥ - ٧٣٣

(٣) يكفي ان يكون احد واضعي وثيقة حقوق الانسان لبنانياً من ابناء العربية

(٤) راجع من هذا القبيل اراء الكتاب في الجزء الاول من الهلال مج ٤٥

٥ ـ القضية النسائية واثرها الادبي

اذا استثنينا بابي الرثاء والغزل فقلما نرى للمرأة في ادبنا القديم من اثر او مقام يذكر . فهي في الرثاء قد شاركت الرجل فنظمت ما جادت به طبيعتها من شعر تحدّر بعضه الينا واصبح جزءا من تراثنا الادبي[١]

اما الغزل فنصيبها فيه نصيب الموحي فقط وذلك طبيعي اذ هي المقصودة والمطلوبة . لاجلها كان الرجل يبثّ عواطف الوجد ويتغنى باناشيد الهيام . وفي ادبنا العربي منذ عهد امرىء القيس الى وقتنا الحاضر سلسلة من الغواني اللواتي تأثر الشعر بهنّ فوصف جمالهن ووجد النفس بهنّ . ولا يزال باب الغزل مفتوحاً على مصراعيه وسيظل الشعراء الى ما شاء الله يصفون الجمال ولواعج الفؤاد ويعزون الى المرأة كل اسباب الهناء والشقاء .

(ومما يلاحظ هنا انه برغم ما حاوله الشرع الاسلامي من تحسين حال المرأة العربية ظلت منزلتها في الادب دون منزلة الرجل) . وقد قام من النساء قديما من احرزن مكانة عالية في الحياة العمومية والادبية كزنوبيا ملكة تدمر وكعائشة ام المؤمنين وسُكينة بنت الحسين والعباسة بنت المهدي والسيدة زبيدة زوجة الرشيد والسيدة نفيسة وست الملك بنت العزيز الفاطمي وشجرة الدر وولادة بنت المستكفي وعائشة الباعونية وسواهن . على ان ذلك لم يغير نظر الادب عموماً الى المرأة فظلت منحطة المنزلة ولاسيا بعد ان طغا على المجتمع العربي الفساد بانتشار الجواري وذيوع الترف والانصراف الى الملاهي . حتى ان ابا العلاء المعري، وهو الشاعر الحكيم الذي وقف اكثر شعره على التنديد بمعائب جيله لم يرتفع عن سواه في نظره الى المرأة فوصفها وصفاً قاتما كما ترى في هذه الابيات من قصيدة يحذّر فيها الرجال من كيد النساء ويبدي رأيه في صفاتهن وما يلزم لهن قال[٢] —

فوارس فتنة اعلام غيٍّ لقينك بالاساور معلماتِ

---

(١) راجع كتاب رياض الادب في مراثي شواعر العرب (شيخو) بيروت ١٨٩٧

(٢) اللزوميات ١ – ٨٨ (مصر ١٨٩٥)

فلا ترمق بعينك رائحاتٍ الى حمّامهن مكتّمات
فما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرّمات
وحمل مغازل النسوان اولى بهن من اليراع مقلّمات
وساوِ لديك اتراب النصارى وعِيناً من يهود ومسلمات

ولقد يكون المعري في نظره الى المرأة شديد التحرج ثقيل الوطأة ولكنه لم يكن نسيج وحده بل هو يعكس لنا المعتقد العام في جيله وفي اكثر الاجيال . والواقع ان المرأة كانت عند اكثر الامم القديمة مقيدة بقيود شديدة من العادات والشرائع . ولم تتحسن حالها في اوربا الا في عهود متأخرة وبطريقة تدريجية على ان اوربا قد سبقت الشرق العربي في الاخذ باسباب الاصلاح الاجتماعي فلم تبزغ شمس النهضة النسائية عندنا الا في اواخر القرن الماضي . في ذلك الحين ادركت المرأة المتعلمة كما ادرك الرجل ان لها حقوقاً ضائعة وانه من الواجب ان تفتح لها ابواب التقدم[1] . وقد نشأ عن هذا الشعور مع الزمن حركة ادبية ترمي الى رفع شأنها وتحريرها من قيود التقاليد الجائرة وهي تتجلى في ظاهرتين رئيسيتين – الاولى ما قام به انصار المرأة من الرجال والثانية ما قامت به هي في هذا السبيل . فلننظر في كل منهما .

انصار المرأة وآثارهم الادبية

لعلّ رفاعة الطهطاوي المتوفى ١٨٧٣ اول من ارتفع صوته في مصر بالدعوة الى تعليم المرأة[2] . اما في سوريا ولبنان فالمعروف ان بطرس البستاني صاحب محيط المحيط هو اول وطني اهتم بهذا الامر[3] . وقد توفي البستاني سنة ١٨٨٣

---

(١) راجع المقتطف ٧ - ١٧ و٥٨٤ - وراجع مقال عبد الفتاح عبادة « نهضة المراة المصرية والعربية » في الهلال ٢٧ - ٧٠٥ و٨٤١ و٨٨٢

(٢) راجع الهلال ٤٣ - ١١٣ مقال طاهر الطناحي . وراجع الثقافة ٥ ع ٢٣٥ ص ٩ حيث نجد ان اول مدرسة في مصر انشئت في عهد اسماعيل ولا يرضى الراي العام يومئذ عن ذلك فيقف الشيخ رفاعة الطهطاوي مدافعا عن ذلك محبذا تعليم البنات

(٣) المقتطف ٨ - ٦

وفي تلك السنة يلقي ولده سليم خطبة موضوعها « ان التي تهز السرير بيسارها تهز الارض بيمينها » وهي طويلة وفي ختامها يقول[١] « فان النساء اساس البناء التمدني ولا يشاد في امة الا على ذلك الاساس . والشعب الذي يحاول ذكوره التقدم دون النساء كالرجل الذي يحاول السفر برجل واحدة » . ولفارس الشدياق من هذا القبيل اقوال شتى في مجلّته الجوائب .

والواقع انه منذ عهد الطهطاوي والبستاني قد توالت المقالات والخطب والمناظرات بشأن المرأة وحقوقها ومقامها في المجتمع بالنسبة الى الرجل . ولما كان كل الكتبة او جلّهم يومئذ من المسيحيين[٢] لم يكن الحجاب من الامور البارزة في اقوالهم .

على انه لم يكد ينبثق فجر القرن العشرين حتى دوى في مصر صوت هز العالم الاسلامي العربي من اقصاه الى اقصاه . وهو صوت قاسم امين يدعو ابناء وطنه وملته الى وجوب تعليم الفتاة وتخفيف الحجاب او رفعه وتنظيم الزواج والطلاق ومنح المرأة حقوقها الاجتماعية وحريتها الطبيعية مستنداً في كل ذلك الى النصوص القرآنية والنبوية محاولا تفسيرها بما يلائم روح العصر . ولما طلع قاسم بحججه على الشرق العربي تصدى له المحافظون فعانى منهم ما يعانيه كل مصلح لا يأنس الى كلامه الرأي العام[٣] والى ذلك يشير شاعر النيل حافظ ابرهيم في قصيدته التي مطلعها — لحاظك والايام جيش نحاربه[٤] .

أقاسم ان القوم ماتت قلوبهم ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه

بيد ان نفخته لم تكن في رماد فقد حركت نفوس محبّي التجديد والحرية

---

(١) المقتطف ٧ - ٧٠٩

(٢) امثال صروف في اماكن شتى من المقتطف وزيدان في الهلال ١٦ - ٢٣٩ و٢٢ - ١٦٣ والطبيب شبلي شميل - المقتطف ١١ - ٤٠١ و١٢ - ٥٠ والطبيب بشاره زلزل راجع خطابه في تقرير جمعية باكورة سوريا ١٨٨٨ . وخليل سعد - المقتطف ١١ - ٧٤٨ ووديع الخوري - المقتطف ٧ - ١٧ وجرجي يني - الباحث « طرابلس » ١ - ٢٩٥ وسواهم

(٣) راجع كتاب تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب ١٩٢٣ ، ٩ - ١٠ ومقال محمد حسين هيكل « بعد قاسم امين » الهلال ٤٣ - ٢٥

(٤) الشعراء الثلاثة للسندوبي (١٩٢٢) ص ٣٥٧

فاخذوا يلهجون بهذه المسألة على صفحات الجرائـد وفي المنازل والمنتديات[١] .
ومن ذلك فصل لجرجي زيدان موضوعه المرأة الشرقية قال في مطلعه[٢] « كثر تحدث الناس في اوائل هذا العام (١٩٠١) في المرأة والحجاب[٣] على اثر ظهور كتاب المرأة الجديدة لقاسم بك امين صاحب تحرير المرأة فراينا ان نفرد فصلا للبحث في المسألة الشرقية وما عانته من الاهوال في اثناء القرن الماضي، بعد ما طرأ علينا من عوامـل التمدن ما لم يتفق للشرق في دور من ادوار عمرانه منذ الخليقة الى اليوم . ثم يتناول المرأة المسيحية في سوريا يومئذ فيذكر ما كانت عليه حتى السنة ١٨٦٠ من التأخر وسوء الحال . وانه بعد تلك السنة اخذت الارساليات الافرنجية بتأسيس المدارس للبنـات وهكذا بدأت النهضة النسائية الحديثة ولكن ببطء وحذر . وقد قضت المرأة الجديدة في سوريا اعواماً وهي عرضة لانتقاد الجمهور .

وبواسطة الصحف والمنابر والمطابع تسنّى لطلاب الاصلاح الاجتماعي ان يعلنوا آراءهم ويبثّوا خوالج نفوسهم فتركوا لنا من آثارهم في هذا المضمار ما هو جدير بالدرس والاعتبار . وتبدو لنا هذه الاثار في ابواب ثلاثة هي : باب المباحث المتعلقة بالمرأة وحقوقها — نفثات العطف من الشعراء والمترسلين — حملات المحافظين والمعارضين . واليك كلمة في كل من هذه الابواب

---

(١) المنار (مصر) ٢ — ٣٦٩ و٣ — ٨٥٠

(٢) الهلال ٩ — ٣٥٠

(٣) راجع مثلاً بحث محمد حسين هيكل في الهلال ٤٣ — ٢٨

اقوال الباحثين

من المتعذر ان نحصر هنا كل ما يدخل في هذا الباب من مباحث ورسائل ومحاضرات ومصنّفات فنكتفي باختيار الامثلة التالية منها

(١) كتاب تحرير المرأة وكتاب المرأة الجديدة لقاسم امين
(٢) كتاب المرأة في الشرائع والتاريخ وكتاب المرأة في التمدن الحديث لمحمد جميل بيهم
(٣) كتاب تحرير المرأة في الاسلام بقلم مجدي الدين ناصيف
(٤) رسالة في نهضة المرأة المصرية والمرأة العربية لعبد الفتاح عباده
(٥) كتاب اكليل غار على راس المرأة، والنسائيات لجرجي نقولا باز
(٦) من عبقريات نساء القرن التاسع عشر ليوسف يعقوب مسكوني
(٧) كتاب حول المرأة لنجوى جمال الدين وشحاده الخوري
(٨) كتاب المرأة في عصر الديموقراطية لاسماعيل مظهر

اما كتابا قاسم امين فقد ذكرنا آنفاً ما أحدثاه من ضجة في العالم العربي وها نحن نثبت شيئاً منهما تبياناً لروحهما ولاسلوب كاتبهما . قال في التمهيد الذي وضعه لكتاب تحرير المرأة — « سيقول قوم ان ما انشره بدعة . فاقول نعم اتيت ببدعة ولكن ليست في الاسلام بل في العوائد وطرق المعاملة » . ويذهب في كتابه الى ان انحطاط المرأة ملازم لانحطاط الامة[1] . ولذا كانت حالة المرأة في بدء الحضارة لا تختلف عن حالة الرقيق . وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلا تحت سلطة ابيها ثم زوجها ثم من بعده من اكبر اولادها . وكان المباح عند العرب قبل الاسلام ان يقتل الاباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا عدد محدود ولا تزال هـذه السلطة الان عند القبائل المتوحشة . ولو التفتّ الى البلاد المتمدنة وجدت ارتقاء النساء في امة مناسباً لدرجة ارتقاء تلك الامة . وليس ذلك بفعل الدين هناك كما انه ليس بفعله تأخر

(١) تحرير المرأة ص ٩

المرأة عندنا . فليس في احكام الديانة الاسلامية ولا في ما ترمي اليه من مقاصدها ما يمكن ان ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة، بل الامر بالعكس فانها اكسبتها مقاما رفيعاً في الهيئة الاجتماعية[1] . الى ان يقول — « ولكن هو الاستبداد الذي طغى وهو اذا غلب على امة اتصل من الحاكم بمن هو دونه ونفث روحه في كل قوي بالنسبة الى كل ضعيف . . . فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لا يحترم الا القوة . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بارجله على شخصيتها له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء ولها الظلمة والسجن . له الامر والنهي ولها الطاعة والصبر . له كل شيء في الوجود وهي بعض ذلك الشيء الذي استولى عليه »[2]

ويقول في مقدمة « المرأة الجديدة »[2]. « والمطلع على الشريعة الاسلامية يعلم ان تحرير المرأة هو من انفس الاصول التي يحق لها ان تفتخر بها على سواها . لانها منحت المرأة من اثني عشر قرناً مضت الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربية الا في هذا القرن وبعض القرن الذي سبق . فاذا كانت شريعتنا قررت للمرأة كفاءة ذاتية في تدبير ثروتها والتصرف بها وحثّت على تعليمها وتهذيبها ولم تحجر عليها الاعتراف بأي صنعة والاشتغال بأي عمل وبالغت في المساواة بينها وبين الرجل الى حد ان اباحت لها ان تكون وصية على الرجل وان تتولى وظيفة الافتاء والقضاء — اذا كانت شريعتنا تحامي عن المرأة الى هذا الحد وتمنحها هذه الدرجة من الحرية فهل يجدر بنا في هذا العصر ان نغفل عن مقاصد شرعنا ونهمل الوسائل التي تؤهل المرأة الى استعمال هذه الحقوق النفيسة ونضيع وقتنا في مناقشات نظرية لا تنتج الا تعويقاً عن التقدم في طريق اصلاح احوالنا »

« **المرأة في الشرائع والتاريخ والمراة في التمدن الحديث** » في هذين الكتابين يعتمد المؤلف العرض التاريخي . فيتتبع الحركة النسائية وتطورها عند مختلف الامم القديمة والحديثة وهو لا يتخذ فيها طريق الداعية للمرأة او المحامي المدافع عن حقوقها كما فعل قاسم امين . ولا يحاول مثله تفسير النصوص الدينية او تأويلها

---

(١) تحرير المرأة ص ١٣

(٢) ص ١٥ و١٦

اثباتاً لما يؤمن به . ولكنه يقود القارىء بلطف في مسالك التاريخ فلا يصل الى حيث يلقي عصا الترحال حتى يكون قد امتلأ عطفاً على المرأة وقضيتها عطفاً قائماً على تفهّم التاريخ وتطوراته .

ويرى عبد الفتاح عباده في رسالته « **نهضة المرأة المصرية** » ما قامت به المرأة المصرية الحديثة من الاعمال الوطنية والاجتماعية فيحفزه ذلك الى درس الاطوار التاريخية التي مرت بها المرأة العربية . يحدّثنا عن مقامها في التاريخ القديم ومكانتها الاجتماعية والعلمية . ثم يذكر كيف دار بها الزمان فانحط شأنها حتى بلغ الحضيض في القرنين الاخيرين . ويلتفت الى نهضتها الحديثة في مصر مبيناً اسبابها وما كان من اثر التطور الفكري والسياسي في اظهار مواهبها . « وان ذلك سيضمن ما اندرس من مجدها فتباري الغربيات . ولا غرو ففضلها في المدنية سابق لفضلهن »

وهذا الالتفات الى التاريخ تراه ايضاً في رسالة « **تحرير المرأة في الاسلام** » وهي ثلاثة فصول مستقلة يحاول الكاتب في الاول منها ان يتبين ان « استحقاق المرأة للنصفة والكرامة وتسويتها بالرجل ليس بدعة اليوم وانما هي امور نعرفها من التاريخ » . فيستعرض حالها في التاريخ وفي اقطار مختلفة ويأتي بالشواهد على نبوغ الكثيرات من النساء قديماً وقيامهن بالتبعات الاجتماعية والعلمية كافضل الرجال . ويدعم آراءه في المرأة بشواهد من القرآن والحديث واقوال بعض المشاهير . اما الفصلان الآخران فاحدهما ترجمة للملك ناصف « مؤسسة النهضة النسوية في مصر » والثاني ترجمة هدى شعراوي « زعيمة الحركة النسوية في مصر » وفيها حديث مفصل عن مساعيها في سبيل هذه الحركة .

ويتحدث صاحب « **اكليل غار** » حديثاً تاريخياً عن حسنات المرأة في الشرق والغرب ذاكراً مساعيها في مناحي الحياة الاجتماعية كالدين والعلم والاختراع والصحافة والتمريض والطب والهندسة والمجالس الانتخابية والمناصب الادارية . وانها في كل ذلك لا تقل عن الرجل . وغاية الكاتب ان يزيل من النفوس تلك الخرافة القائلة « ان الرجل افضل من المرأة وانها لا تستطيع القيام الا باعمال المنزل » . وله غير هذه الرسالة اقوال كثيرة في مجلته الحسناء ورسائل اخرى في هذا الباب .

وفي كتاب «من عبقريات القرن التاسع عشر» عرض واف لمكانة المرأة في حياتنا الاجتماعية ثم بسط لسيرة كل من عائشة التيمورية ووردة اليازجي وزينب فواز مع شرح لشعرهن ومزاياهن وهو اوفى ما كتب عن هؤلاء الاديبات .

اما كتاب «حول المرأة» الذي ظهر مؤخراً (دمشق ١٩٤٧) فيتناول مشكلة المرأة ويعالجها معالجة علميّة تاريخية ويدعو الى مساواة الجنسين ورفع الحجاب واعطاء المرأة حقوقها السياسية والاجتماعية . وكذلك كتاب المرأة في عصر الديموقراطية (١٩٤٩) الذي يبحث في تطورنا الاجتماعي وما بلغته المرأة بفضل الحضارة الاجتماعية والانقلاب الاقتصادي

ومن المباحث التي نوجه النظر اليها « اثر المرأة في تكوين الرجل » لمحمد مظهر سعيد[١] « واثر المرأة » لفخري ابو السعود[٢] « والرجل والمرأة في كفتي الميزان » لنقولا حداد[٣]

وكنا نود ان نضيف الى قائمة المباحث كتاب السفور والحجاب لنظيره زين الدين (١٩٢٨) فهو من اهم ما ظهر في هذا الباب وقد شغل الناس كما شغلهم كتابا قاسم امين، ولكنه صدر باسم فتاة لا باسم رجل من انصار المرأة فهو خارج عن نطاق بحثنا الان وسنذكره في غير هذا المقام

نفثات الشعراء والمترسلين

لهذه النفثات ظاهرتان رئيسيتان الاولى وصفية والثانية اصلاحية . فالاولى تنزع بالاكثر الى تصوير المرأة الفاضلة وتبيان اثرها المحمود في حياة الافراد والمجتمع . ومن هذا القبيل خطبة للامير امين ارسلان في المرأة وتأثيرها في الهيئة الاجتماعية[٤] وخطاب لجرجي باز « تأثير المرأة في الارتقاء[٥] » وخطبة للدكتور

---

(١) الهلال ٤٣ — ٦٩

(٢) الرسالة (مصر) ٥ — ٩٧٥

(٣) الهلال ٥٣ — ٢٤٢

(٤) نشرتها المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٩٢ وتجدها في مجلة الطائف (مصر) ٧ — ١٦٩

(٥) طبع على حدة ١٩٠٢

نقولا فياض موضوعها « المرأة والشعر »[١] وهي تعكس لنا اثر المرأة في الحياة ولاسيا حياة الادباء والفنانين . وقد ذيلها بمحاورة شعرية بين المرأة والشاعر ذكر فيها فضلها كأم واخت وزوجة وختمها بقوله :

ضلّ الذي ظن الحياة جميلة   في البعد عنك ومن يطيق بعادا
الكون شعر انت بيت قصيده   لولاك ما عرف الورى انشادا

ومثل هذا التغزل بمناقب المرأة قول عساف الكفوري من قصيدة[٢]

ما عسى اخبركم عن فضلها   وهو بحر زاخر لن ينضبا
اي مغتم براه كربه   لم تنفّس غمه والكربا
او جبان قاعد واهي القوى   لم تجدد منه عزماً قد نبا
او شحيح كفه قد جمدت   لم تفجّر من يديه الذهبا

وعلى هذا الغرار قصيدة لفوزي المعلوف موضوعها عظمة المرأة[٣]

والمتغزلون بالمرأة كثيرون . ولكن ليس كل متغزل يعد من انصارها . فشتان ما بين غزل يُعنى بجمالها واثرها الروحي في الحياة، وغزل لا يرى غير الجسد وما يثيره من شهوات . ان الغزل الجسدي وهو لغة الشعر منذ اقدم الازمنة لا ينظر الى المرأة كعضو حي في المجتمع لها ما له وعليها ما عليه . فسيان عنده الجواري المتبذلات والسيدات المصونات، بل كثيرا ما تراه يمدح خَلقهن ويذم خُلقهن فيصفهن بالانانية والطمع وعدم الوفاء والتقلب في الرأي . مثل هذا الشعر قد يبلغ الغاية في جمال الوصف ولكن لا شأن له في ما نحن بصدده

. . .

اما النزعة الاصلاحية فشائعة في ادبنا الحديث تشترك فيها جميع الاقطار العربية[٤]. على ان لكل قطر صبغة خاصة . فقد كان الادب المصري – برغم ثورة

(١) راجع كتابه (على المنبر) ٤٧ و٢٨٥ وقد طبع على حدة ١٩٠٤

(٢) راجعها في المورد الصافي ٥ – ٢٦٤

(٣) راجعها في المورد الصافي ١٥ – ١٩٣

(٤) راجع مثلاً من النثر – المورد الصافي ٦ – ٩٧ و٩٨ و٨ – ١٥٨ ومجلة الكلية (بيروت) السنة ١٩٢١ ص ٣٥٤ ومناهل الادب العربي (مكتبة صادر) ٤ – ٤٢ ومجلة لغة العرب ٢ – ٤٤٥

قاسم امين – اميل الى الاعتدال والتحفظ . خذ شوقي مثلا فهو مع رغبته في تنشيط الحركة التجددية لا يقف موقف الداعية المطالب بتحطيم القيود والقضاء التام على سطوة التقاليد . يثني على هؤلاء المتجددات « النافرات من الجمود كانه شبح الممات »[1] ولكن ذلك لا ينفي حذره وخوفه من ان يصيب المرأة شر من جراء الحرية المطلقة . ويعبّر عن ذلك بمخاطبته لطائر في قفص جعله رمزاً للمرأة فيقول بشيء من الاسى والشفقة :

بالرغم مني ما تعالج في النحاس المقفلِ
حرصي عليك هوى ومن يحرز ثميناً يبخلِ

وهو يحس بتشوق الطائر الى الحرية وبما يشعر به من مرارة العبودية – وان مشهد الحياة مشوبة بالرق مثل الحنظل

ولكنه يرى الصبر على الحبس اولى فقد يكون في انطلاق الطائر سبب هلاكه ولذا يناشده بعطف الوامق المشفق

صبراً لمـــا تشقى به   او ما بدا لك فافعل
ان طرت عن كنفي   وقعت على النسور الجهّل

ومثل هذا الموقف يقف حافظ ابرهيم . فهو في قصيدته « كم ذا يكابد عاشق ويلاقي[2] » يصرح ككل مصلح ان تأخر الشرق ناجم عن تأخر المرأة

من لي بتربية النساء فانها   في الشرق علة ذلك الاخفاق
الام مدرسة اذا اعددتها   اعددت شعباً طيب الاعراق

ولكنه محاذر لا يدعو الى الحرية الكاملة بل يرغب في السير المتئد ولهذا يقول مستدركاً

انا لا اقول دعوا النساء سوافرا   بين الرجال يجلن في الاسواق
يدرجن حيث اردن لا من وازع   يحذرن رقبته ولا من واق
كلا ولا ادعوكم ان تسرفوا   في الحجب والتضييق والارهاق
فتوسّطوا في الحالتين وانصفوا   فالشر في التضييق والاطلاق

---

(١) من قصيدة في ديوانه ١ – ١٠٤

(٢) راجعها في ديوانه ١ - ٢٧٩

وهذا الحذر يبدو في قصيدة لعبد الحليم المصري[١] حيث يرى ان الحجاب لا يمنع المرأة من التقدم . وفي فصل المنفلوطي يطلب فيه[٢] « ان تنفّس عنها من ضائقة سجنها لتفهم ان لها كياناً مستقلاً وحياة ذاتية وانها مسئولة عن ذنوبها وآثامها امام نفسها وضميرها لا امام الرجل » على انه لا يريد لها « ان تتخلع وتستهتر وتهيم على رأسها في مجتمعات الرجال وتمزق حجاب الصيانة . » بل هو ينحي باللائمة على من يقولون برفع الحجاب[٣]. وغاية ما يتمنـاه ان يهتم الرجل برفعها الى مستواه ليستطيع ان يجد فيها الصديق الوفي والعشير الكريم » .

وعلى هذا الغرار احمد حسن الزيات الذي يطلب لها الحرية والتربية الصحيحة «على ان لا تندفع في اتون الحياة المستعر »[٤]، ومحمد فريد وجدي في مقال له موضوعه « المرأة تهدم »[٥]

تلك كانت العاطفة الغالبة في الادب المصري على ان نزعة الحرية في مصر ما زالت تقوى حتى تغلبت على نزعة التحفظ فلم يكد يمر ثلث قرن على صرخة قاسم امين حتى تبدلت الاحوال فنالت المرأة المصرية حريتها المنشودة

ومما يلاحظ ان انصار المرأة من شعراء العراق كانوا اكثر جرأة من زملائهم في مصر .

فمعروف الرصافي مثلاً يعزو ذل الشرقيين الى نشوئهم في احضان الذليلات—يقول

الم ترهم امسوا عبيـداً لانهم على الذل شبّوا في حجور اماء[٦]

وهو يهاجم الرجعيين المتعصبين من زعماء ورؤساء مصرّحا ان داء الشرق من كبرائه وان لا صلاح يرجى الا على ايدي الشباب[٧]. ويكفي ان نشير الى قصيدته المعروفة « هي الاخلاق تنبت كالبنات » حيث يشتد في الدعوة الى تعليم

(١) راجعها في المقتطف ٢ — ٦٢
(٢) مقاله احترام المرأة في النظرات ج ٣
(٣) مقالة الحجاب في النظرات ج ٣
(٤) مقالة في المرأة — الرسالة ١ ع ٩
(٥) الهلال ٤٣ — ٣٧
(٦) ديوانه (١٩٣١) ص ٣٢١
(٧) راجع قصيدته المرأة في الشرق في ديوانه ٣٢١ او الهلال ٣٠ - ٧١٤

المرأة ورفع مستواها مبرئاً الاسلام من تهمة التضييق عليها.[١]

وعنده ان الجهالة لن تكون حصناً للمرأة وان حبسها في المنزل احتقار لها لا مسوّغ له. وفي بعض اقواله يندد بالطلاق ويدعو الى تقوية ربط الزواج والحياة العائلية[٢]

على ان الرصافي لم يتعرض لمسألة الحجاب تعرض زميله جميل الزهاوي الذي ينفث في قصيدته «الحجاب والسفور» نفثاتٍ من نار اذ يصيح:

مزّقي يا ابنة العراق الحجابا واسفري فالحياة تبغي انقلابا
مزقيه واحرقيه بلا ريثٍ فقد كان حارساً كذّابا

وفيها يشير الى النزاع القائم بين المحافظين والمجددين فيقول مدافعا عن هؤلاء:

ان هذا الحجاب ان كان يرضي الشّيب فاليوم ليس يرضي الشبابا
زعموا ان في السفور سقوطاً في المهاوي وان فيه خرابا
كذبوا فالسفور عنوان طهر ليس يلقى معرّةً وارتيابا

وكل القصيدة على هذا المنوال. وقد لقي الشاعر من المتعصبين نقمة شديدة ومتاعب جمة[٣] ولم تقف حركة التجدد في العراق بل ظلت منذ نهاية الحرب العالمية الاولى تتقدم على ايدي الجيل الجديد ولكنها برغم تحمس دعاتها لم تبلغ المرأة فيه من الحرية بعد ما بلغته في مصر وبعض الاقطار الاخرى.

. . .

اما في سوريا ولبنان فقد كان ادب المناصرة للقضية النسائية ابرز في البيئات المسيحية. وفي هذه البيئات لم تكن المشكلة مشكلة الحجاب والانعزال الجنسي، ولذا ترى الاقلام اميل الى النظر في حقوقها الاخرى كحرية الحياة في اختيار الزوج والمحافظة على حقها الشرعي وحمايتها من ظلم الوالدين والاخوة. فقد ظلت الى عهد قريب تفرض عليها الطاعة العمياء لارادة ابيها او زوجها ولا يحق لها ان تتصرف او تعمل كاخيها. والى ذلك يشير جبران جبران في مقالته «العبودية»[٤]

---

(١) الديوان ٣٢٧

(٢) المقتبس ٢ – ٤٩٨

(٣) الرسالة ٥ – ٤٠٢

(٤) راجعها في مجموعته «العواصف» ١٠

اذ – يقول – « دخلت منازل الاغنياء الاقوياء واكواخ الفقراء الضعفاء فرايت الاطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء، والصبايا يرتدين الملابس المبطنة بالانقياد والخنوع، والنساء يهجعن على اسرة الطاعة والامتثال » . وله ولسواه اقوال كثيرة من هذا القبيل بدأت في اوائل النهضة بالدعوة الى تعليم الفتاة وانتهت بطلب الحرية الكاملة لها[١] . وقد جارى الشعراء الكتبة فنظموا القصائد القصصية وغير القصصية تقبيحاً لظلم الوالدين وقسوتهم في امر الزواج والميراث كما فعل شبلي الملاط في قصيدته « بين العرس والرمس »[٢] وخليل مطران في تمثيليته « الطفلان »[٣] ويوسف مراد الخوري في « القميص المخضب بالدم » وهي حادثة جرت في لبنان[٤]. وامثال هذه الوقائع الشعرية غير قليلة في ادبنا الحديث[٥] .

ولا شك ان ما بلغته المرأة من التقدم والحرية لم يبق مجالا واسعاً لمثل هذا النوع من الادب . وقد بدات المناصرة تتحول الى المطالبة بحقوق المرأة السياسية ووجوب مساواتها للرجل في جميع انحاء الحياة العمومية .

حملات المعارضين

اثار حركة المعارضين امور شتى اهمها ثورة الانصار على الاوضاع القديمة وحسبانهم ذلك خطراً على المجتمع ، ثم تطرُّف بعض العصريات في توخي اسباب الحرية والتجدد . فالمعارضون فريقان، فريق يدافع عن التقاليد الموروثة ، وفريق يخشى عواقب الاسراف وسطوة الازياء .

وطبيعي ان يكون معظم الفريق الاول من الغيورين على ما يعتبرونه فرضاً دينياً وواجباً اجتماعياً لا يجوز التساهل فيه[٦] ولهم في ذلك اقوال

(١) وقد تطرف جبران فوضع في ذلك روايته الاجنحة المتكسرة
(٢) راجعها في ديوان الملاط ٣٢٩
(٣) الهلال ٢٧ – ٨٠٥ وديوانه ٢ – ٦١
(٤) كتاب ثار الافكار (نيويورك) ٢ – ٦٨
(٥) راجع ديوان المنقود لاسكندر الخوري البيتجالي ص ٦٤ – ٦٧
(٦) راجع اسماء بعضهم في الباب الرابع من كتاب الفتاة والشيوخ لنظيره زين الدين

كثيرة[١]. ويجري مجراهم عدد من الشعراء مثل حسين الظريفي وبهجت الاثري وعبد الحسين الازري وعبد الرحمن البنا[٢] وجواد الشبيبي[٣] في العراق، وامين ناصر الدين[٤] وعلي الحوماني في لبنان[٥] وابراهيم الدباغ[٦] ومحمد حسن النجمي في مصر[٧] وسواهم في سائر الاقطار

اما الفريق الثاني فقد قصر همّه على ذم التطرف في التبرج والازياء محاولا ان يحذّر الناس من عواقبه الوخيمة. والواقع ان الخوف من هذه العواقب كان يشغل بال الادباء منذ اوائل النهضة. ففي سنة ١٨٧٢ نسمع الاديب الحلبي فرنسيس مرّاش يدعو الى تعليم المرأة ولكنه يرى ان يحصر مدى علمها بالقراءة والكتابة وشيء من الحساب والجغرافيا وقواعد اللغة - يقول -[٨] «ولا عجب من جعلي تربية النساء مقصورة على ابسط العلوم لان توغلهن في عباب العلوم ينتهي الى عكس المطلوب». ويقصد بعكس المطلوب اندفاعها نحو الحرية «بحيث تحذو حذو الرجال وتصبح غير مكترثة لالتزاماتها نحو البيت والعيال وربَّ عنَّ لها «ان تضع نفسها فوق الرجل»

ذلك ما كان يخشاه الادب في اواخر القرن الماضي وقد ظل كذلك الى عهد قريب جدا. وعن هـذه الخشية التي ثارت في نفوس الرجال منذ اخذت

---

(١) للاطلاع على امثلة من اقوالهم راجع كتاب مختارات في الحجاب والسفور لجامعه مصطفى عبد الجبار القاضي وهو مجموعة مقالات لكتاب مختلفي الغرض. منها لتفنيد مزاعم السفوريين واظهار المصائب الناجمة عن مخالفة الشرع الحكيم والعرف المتبع. وكذلك كتاب خلاصة الادب لحسين محمد الرفاعي وكتاب نظرات في السفور والحجاب للشيخ مصطفى الغلاييني وكتاب «قولي في المرأة» لمصطفى صبري ورسالة الشيخ مصطفى نجا في مشروعية الحجاب ورسالة الفتى والفتاة لعبد الرحمن الحص وما الى ذلك من المصنفات والمقالات.

(٢) راجع بعض نفثاتهم في كتاب مختارات في السفور والحجاب لمصطفى القاضي بغداد صفحة ١٢٠ الى ١٣٣

(٣) مجلة الاعتدال العراق ٦ - ١٧٧

(٤) ديوانه صدى الخاطر ١٩٠

(٥) ديوانه ١٩٢٧ - ٧٤

(٦) ديوانه الطليعة ٨٧

(٧) كتاب قولي في المرأة ٨٦

(٨) مجلة الجنان «للبستاني» سنة ١٨٧٢ ص ٧٦٩ و ٧٧٠

المرأة تسير في موكب التقدم نشأ في عصرنا الحديث نوع من الادب يصح ان نطلق عليه اسم « ادب الشكوى » من تطرف المرأة . فلا غرابة ان يعد «التفرنج» عند بعضهم مرادفاً للتقليد المعيب وان تكون الازياء الجديدة مدعاة لكثير من التهكم اللاذع والنظر المريب[1]

والكلام في ذلك شائع شعراً ونثراً ولا يخلو احياناً من ذم « فتى العصر » لتعلقه بسخائف الحياة واندفاعه في سبيل التقليد والتبذير[2]

على انه لا بد من القول ان النقد والشكوى اللذين ظهرا في ادبنا الحديث واشتدا جداً على اثر الحرب العالمية الاولى لم يغيرا الحال كثيرا ولم يوقفا تيّار التطور الاجتماعي فظل التجدد يقوى ويعم حتى طغت النزعة العصرية على معارضة المعارضين وندب النادبين ونقمة الناقمين وقلما ترى اليوم من ادباء العصر من يثور على الزي العصري او يتعرض لوسائل التجميل والتزيين او يحارب اجتماع الجنسين في معاهد العلم والمنتديات والملاهي العامة والخاصة . فكل ذلك اصبح مألوفا يستحسنه العصريون ويغضي عنه المحافظون بل لقد صار بعضهم يمدحون الازياء على انها نمو فني يستحق التقدير والاعجاب[3]

ومما لا ريب فيه انه قد كان لحركة التجدد التي قام بها في تركيا مصطفى كمال اتاتورك واعوانه اثر بعيد في مختلف البيئات الشرقية . فقد شجعت انصار الحرية على المضي قدماً في سبيلها . وها نحن اليوم نرى شمس الحضارة الجديدة قد علت في سماء الشرق العربي مرسلة اشعتها الى جميع الطبقات . وبرغم المعارضة التي لا تزال حية في بعض الجهات متأهبة للوثوب فان المثقفين في مصر والعراق وسوريا ولبنان هم بناة المجتمع العربي الجديد وعلى تعاونهم معا كرجال ونساء يقوم صرح المستقبل المجيد

(١) راجع مثلاً مجلة الزهور مصر ١ – ٤٥٧ ـ المورد الصافي بيروت ٨ – ٣٦٩ ـ ديوان مشاهد الحياة للبيتجالي ١٢٩ و١٤٥ – تغاريد الصباح لمحمد الاحمر ٢٠٥ – الموضة ومذهب التفرنج لفريده بستاني الهلال ٩ – ٣٦٦ – المدخنات لعلي الجندي مجلة الكاتب ١ ج ٧ ص ١٢٢

(٢) راجع ديوان وديع عقل بيروت ٩٧ وديوان مصطفى الرافعي ١ – ٦٤ والالهام لامين ناصر الدين ١٧٥

(٣) مجلة الطريق بيروت ١ ع ١٧ ص ٢٠

المرأة في الميدان الادبي

في هذا المعترك الذي احتدم فيه النزاع بين انصار المرأة من الرجال وخصومهم لم تقف هي مكتوفة اليدين تنظر من بعيد نظرة المتفرّج . بل نزلت الى الميدان واشتبكت مع الفرسان . وقد ادركت منذ بدء النهضة في القرن الماضي انها في حالة متأخرة جدا وان سبب ذلك جهلها وعدم الاهتمام بترقيتها . ففي سنة ١٨٧٤ نسمع صوت امرأة يرتفع محرّضاً النساء على طلب المعرفة لتكون في ايديهن وسائل التربية الصحيحة لانشاء جيل راقٍ والحصول على مكانة في المجتمع ومن كلامها ما نصه[١] – « ان ارتفاع درجة الافراد والامم انما تكون بالمعارف. والبرهان القاطع الفرق بين حالة اوروبا في زمان ظلماتها في القرون المتوسطة وهذا الزمن . ولما كانت المرأة ذات قابلية لجميع ما يجمعه الرجال ولادراك ما يدركونه من سلّم الادب والمعارف كان لا بدّ من ان تكون الواسطة الرافعة لشأنها والمثقفة لعقلها نفس وسائط تقدم الرجال . وبرهانه ما يجري في البلدان المتمّدنة في هذه الايام مما يدل على تقدم النساء ونفعهن للهيأة الاجتماعية . »

وفي سنة ١٨٨٢ نرى الحركة النسائية في لبنان وسوريا تظهر في جمعيّة علميّة ادبيّة يجتمع فيها عدد من النساء المهذّبات « لترويض عقولهن بالخطب والمباحث العلمية والنظر في حالتهنّ الاجتماعية »[٢] . على ان النهضة الحقيقية لم تشتدّ او تنتشر الا في قرننا الحالي . ففيه ألفت الجمعيّات النسائية ثم تنظمت هيئات لاتحاد النسائي الاقليمية والعامة واقبلت الفتيات على التحصيل العلمي العالي وعلى منافسة الرجل في ميادين الحياة المختلفة[٣].

فمن الطبيعي ان يكون للمرأة مساهمة واسعة في الحقل الادبي . واكثر ما يظهر ذلك في الابواب التالية – الصحافة – الترّسل والخطابة – الشعر – القصص.

---

(١) مدام منصور شكور – الجنان ٥ – ٢٧١

(٢) المقتطف ٤ – ٢٤٩ (ولعلها باكورة سوريا في بيروت ١٨٧٩ – ١٨٩٣)

(٣) راجع مقال النهضة النسائية لهدى شعراوي – الهلال ٢ ١٩٤ – ومقال طاهر الطناحي – الهلال مج ٤٣ – ١١٢ – ومقال يوسف مظهر – الهلال ٤٥ – ٦٩٩

وقد شرعت منذ دخلت الجامعات تباري الرجل في ميدان المباحث والنقد . على انهـا لا تزال قليلة الاثار في العلوم الطبيعية والرياضية والتشريعية والفلسفية . وهاك شيئاً من آثار المرأة في الحقل الادبي .

الصحافة

لم تعنَ المرأة بالصحافة اليومية بل انصرفت بالاكثر الى المجّلات المختصة بالشؤون العائلية والاجتماعية فظهر منها منذ ١٨٩٢ الى الوقت الحاضر عشرات[1]. وها نحن ننشر ما استطعنا تحقيقه منها حسب تاريخ ظهورها

المجلة	منشئتها	تاريخ ظهورها	محلها
الفتاة	هند نوفل	١٨٩٢	القاهرة
الفردوس	لويزا حبالين	١٨٩٦	»
انيس الجليس	الكسندره افرينو	١٨٩٨	»
العائلة	استير ازهري مويال	١٨٩٩	»
شجرة الدرّ	سعديّه سعدالدين	١٩٠١	الاسكندرية
المرأة	انيسة عطاالله	١٩٠١	القاهرة
السيدات والبنات	روز انطون	١٩٠٣	الاسكندرية
السيدات والبنات	ماري فرح	١٩٠٣	»
السعاده	روجينا عواد	١٩٠٣	القاهرة
فتاة الشرق	لبيبه هاشم	١٩٠٦	»
العروس	ماري عجمي	١٩١٠	دمشق
الجميلة	فاطمه توفيق	١٩١٢	القاهرة
العالم الجديد	عفيفه كرم	١٩١٢	نيويورك اميركا
فتاة النيل	ساره الميهيّة	١٩١٤	القاهرة
الكرمه	سلوى سلامه اطلس	١٩١٤	سان باولو (البرازيل)

(١) ويقدرها جرجي باز في النشرة مج ٨٢ ع ١ ص ٧٠ بنحو ٨٠ مجلة

المجلة	منشئتها	تاريخ ظهورها	محلها
فتاة لبنان	سليمه ابو راشد	١٩١٤	بيروت
فتاة الوطن	مريم الزّهار	١٩١٩	زحله
الفجر	نجلا ابو اللمع	١٩١٩	بيروت
الخدر	عفيفه صعب	١٩١٩	الشويفات وعاليه
نور الفيحاء	نازك عابد بيهم	١٩٢٠	دمشق
المرأة المصرية	بلسم عبدالملك	١٩٢٠	القاهرة
المرأة الجديدة	جوليا طعمه دمشقيه	١٩٢١	بيروت
فتاة مصر الفتاة	املي عبدالمسيح	١٩٢١	القاهرة
الحياة الجديدة	حبوبه حداد	١٩٢٢	باريس وبيروت
السيدات والرجال	روز انطون حداد	١٩٢٢	القاهرة
ترقية الفتاة	نبويه موسى	١٩٢٣	القاهرة
ليلى	بولينا حسون	١٩٢٣	بغداد
مورد الاحداث	امينه الخوري المقدسي	١٩٢٣	بيروت
مينرفا	ماري ينى	١٩٢٣	»
الحسان	فريده فوزي	١٩٢٥	القاهرة
الامل	منيره ثابت	١٩٢٥	»
دوحة المياس	ماري شقرا	١٩٢٨	حمص
مجلة المرأة	نديمه المنقاري	١٩٣٤	حماه فحلب فالشام
المستقبل (سياسية)	الفيرا لطوف	١٩٣٨	طرابلس شام
صوت المرأة	جامعة نساء لبنان	١٩٤٤	بيروت
بنت النيل	درّية شفيق	١٩٤٥	القاهرة
صدى الشرق	دلال الصفدي	١٩٤٦	اميركا
المرأة والفن	جانيت ابرهيم	١٩٤٨	بيروت
مجلّة الاتحاد النسائي العراقي			بغداد

والذي يلاحظ انّ ما ظهر منها في مصر يفوق سواه عدّاً . على ان اكثر

منشئات الصحف ومحرّراتها هنّ من لبنان وسوريا[1] . وهذه المجلات قد طواها الزمان وليس منها حيّاً للان غير ثلاث او اربع من حديثات العهد . ولا يعني ذلك ضرورة ان المرأة قد تأخرت في الميدان الادبي لا تزال جادة ومندفعة الى الامام ولكن جهودها قد اخذت تتحول الى غـــير الناحية الادارية من الحقل الصحافي .

ج — الترسل الكتابي والخطابي

او التعبير الفني عن الخواطر والخوالج ويتناول المقالات والخطب الادبية والاجتماعية . ولو اردنا ان نتحدث بتفصيل عن جميع اللواتي ضربن بسهم في هذا الباب وعن آثارهن فيه لاحتجنا الى مجـلّد ضخم او اكثر من مجلد — فمن المترسّلات والخطيبات بعض زعيمات النهضة في شتى الاقطار . ومنهنّ منشئات الصحف المار ذكرهنّ وقد تركن من آثار اقلامهنّ ما يؤلف مكتبة كبيرة[2] — . وانما غرضنا هنا ان نشير الى ما بلغته المرأة من التقدّم في هـذا السبيل . ويكفي لذلك ان نذكر بعضاً ممّن نشرت آثارهن الادبية وشُهد لهن بطول الباع في الترسّل الادبي . ولعلّ المعهنّ مي زياده (المتوفاة ١٩٤١) . فقد كانت تتقن بضع لغات وتركت وراءها اثني عشر كتاباً مطبوعاً وعدّة مخطوطات . وكانت خطيبة ممتازة وكاتبة قديرة .

ومن المترسّلات اللامعات — غير من ذكرنا من منشئات الصحف — سلمى صايغ وسهير قلماوي وعائشة عبدالرحمن وجميلة العلايـلي وعنبره سلام الخالدي ووداد سكاكيني وروز غريب وسواهنّ ممّن سيذكرن تحت موضوع آخر .

---

(١) راجع مقال النهضة النسائية في المورد الصافي ٧ — ٣٦٣ . وراجع ايضا Hartmann, the Arabic Press Egypt.

(٢) ذكر جرجي باز ان لديه من ذلك مجموعات اربعين مجلة ومئة كتاب — مقاله في النشرة (بيروت) ١٨٢ ع ١

الشعر

ليس للمرأة في هذا الباب ما للرجل . فالشاعرات الحقيقيات قليلات العدد ودواوينهن اقلّ . واذا استثنينا من الشعر النسائي الحديث بعض المنظومات الجديدة امكننا القول انه عموما ينقصه روعة التعبير وبعد مرامي الخيال . ولعلّ ذلك لانه لم يمرّ عليها سوى عهد قصير في ممارسة هذا الفن الجميل . وقد عرف بنظم الشعر منذ بدء النهضة جملة من الاديبات كوردة اليازجي ووردة الترك وعائشة التيمورية وزينب فوّاز ومريانا المرّ ومريانا مرّاش واميّه نجيب وملك حفني ناصف وماري عجمي وجميلة العلايلي ومنيرة توفيق وفدوى طوقان ونازك الملائكة وعاتكة الخزرجي ورباب الكاظمي وفتاة غسان[1] وسواهن

والذي يظهر من مقابلة الشعر النسائي اليوم بما كان ينظم في اوائل النهضة يرى تطوّراً واضحاً في الاسلوب والموضوع فالجديد عموما اكثر رواء وماء واوسع نظراً في الحياة ، ومنه ما لا يقل عن الجيّد من شعر الرجال

الفن القصصي

لم تبلغ المرأة بعد في هذا المضمار من ادبنا الحديث ما بلغه الرجل على انها تتقدم باطّراد ولها عدد غير قليل من القصص والروايات الموضوعة والمترجمة ونذكر منها على سبيل التمثيل ما يلي —

بين عرشين (١٩١٢) بهجة المخدرات ايام بومباي الاخيرة	فريدة عطية	مصرع القيصر الابن الضال	اسما طوبي
حسناء سالونيك (١٩٠٩)	لبيبه صوايا صدقه	المغفرة البائسة الغفلة تحت راية فيصل	منيرة طلعت
حسن العواقب (١٨٩٩)	زينب فوار		

---

(١) راجع سيرة بعضهن وامثلة من شعرهنّ في كتاب «الشعر النسائي العصري» لمحمد محمود ـ وفي مقال للدكتور صفا خلوصي في شاعرات العراق الهلال مايو ١٩٥٠ ـ وفي مقال في مجلة ابولو مج ٢ ص ٢٧٠

شيرين ١٩٠٧ } لبيبه هاشم
قلب الرجل ١٩٠٤

بين رجلين
الشيخ حمدي وقصص اخرى } وداد سكاكيني
مرايا الناس

بديعة وفؤاد
غادة عمشيت } عفيفة كرم
فاطمة البدوية

صائبة – اديل بطرس بستاني

احاديث جدتي وقصص اخرى – سُهير قلماوي
راعية الغنم – جميله العلايلي
رجعة فرعون وقصص اخرى – عائشة عبدالرحمن
الرداء وروايات اخرى (ترجمة) – تمام داود

وهناك عدد غير قليل من الحكايات والمسرحيات لكاتبات مختلفات وكلها تشير الى تقدم المرأة في هذا المضمار

المباحث العلمية

ذكرنا آنفاً ان المرأة حديثة العهد بالثقافة الجامعة العالية فمن الطبيعي ان لا يكون لها حتى الآن الا القليل من الدراسات العلمية سواء أكان ذلك في حقل الادب والتاريخ او حقل العلوم الطبيعية والاقتصادية . ولا ينكر ما ظهر لبعض الكاتبات من مؤلفات تاريخية او اجتماعية ككتاب الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب فواز، وبلاغة النساء في القرن العشرين لفتحية محمد، والنسائيات لملك ناصف، وباحثة البادية وعائشة التيمورية لمي زياده، وكتاب السفور والحجاب لنظيره زين الدين[1] ، وكتاب الامومة لروز عطاالله شحفه . وبعضها من الطبقة العالية ولكن معظمها من باب العرض التاريخي او التوسّل الاجتماعي

فلما صارت الفتاة تؤمّ الجامعات للتحصيل العالي والتخصّص اتسعت لديها آفاق الحياة الفكرية وصارت تتقدم لنيل الشهادات العليا برسائل او اطروحات

(١) في هذا الكتاب مباحث خطيرة وقد ذكرنا آنفاً انه احدثت ضجة كبيرة في البلدان العربية فانتصر له كثيرون وقاومه كثيرون (راجع المورد الصافي ١٣ ص ٣١١)

تتبع فيها منهاج البحث العلمي الصحيح – وفي ما نشر من ذلك حتى الآن[١] ما يدل على ان المرأة ليست دون الرجل اذا تيسّرت لها اسباب التقدم

. . .

فاذا وقفنا قليلا نستعرض وسائل التقدم الثقافي التي اصبحت المرأة اليوم تتمتع بها وكيف رفع ذلك مستواها الاجتماعي فحطّم اكثر القيود التي كانت تحول دون اندفاعها الى الامام لم نستغرب ما نراه فيها من طموح الى مساواة الرجل في جميع الحقوق والواجبات العموميّة ومجاراته في مضمار الحياة السياسيّة فالمنظمات النسائية في كل قطر عربي راقٍ تسعى الى هذه الغاية ، وهي على ما يظهر جادّة في هذا السبيل ولن تهدأ دون الوصول الى هدفها المنشود[٢] . على ان الناس في ذلك فريقان – فريق محاذر لا يرى في المساواة الجنسية المطلقة ما تحمد عقباه – وفريق متساهل يراها نتيجة طبيعيّة لسنّة التطوّر في الحياة . وسيبقى الاختلاف بين هذين الرأيين قائماً حتى يعطي الزمان قوله الفصل في هذا الشان . والذي يبدو ان الحياة العربية متجهة نحو الحرّية الاجتماعية المطلقة وليس من طبيعة الادب الجديد ان يعارض هذا الاتجاه .

---

(١) باقلام بعض الخرّيجات من جامعة فؤاد بمصر والجامعة الاميركية في بيروت

(٢) خطت سوريا منذ ٣ سنوات خطوة في هذا السبيل اذ منحت المرأة حق التصويت في الانتخابات النيابية على ان تكون من حاملات شهادة الكفاءة (بروفه)

المهاجرة واثرها الادبي

ولئن كان اتصال الشرق بالغرب عن طريق المهاجرة يمس جميع اقطار الشرق العربي، فمما لا ريب فيه ان السوريين عامة واللبنانيين خاصة النصيب الاوفر من هذا الاتصال . فمنذ منتصف القرن الماضي (او قبل ذلك) اخذوا يركبون البحر زرافات ووحدانا الى المهاجر الاميركية وسواها، حتى انك قلما تجد في لبنان اسرة ليس من اعضائها احد هناك، بل ان بعض هذه الاسر قد نزح اكثر اعضائها او كلهم .

ومع اننا نرى الكثيرين اليوم يؤمون اوروبا واميركا طلباً للعلم او للتخصص في فرع من الفروع، فان ذلك لم يتسع نطاقه الا في عهد متأخر . اما الحافز الاول والاهم الى المهاجرة فقد كان طلب الرزق، ويتلوه الهرب من الظلم والفساد. ولم يخطىء صاحب كتاب « المهاجر السوري » اذ قال — « وكان الباعث الاكبر على المهاجرة اختلال الاحوال الاقتصادية في السلطنة العثمانية بفساد الحكومة الاستبدادية التي جرت على مذهب فرّق تسد . حتى تضعضع الامن وسادت الفوضى ودرس العلم وثقلت المعيشة » .

« وما بشّر الناس بخيرات اميركا، حتى هرع الكثيرون الى البواخر تحملهم الى شواطىء العالم الجديد حيث افلتوا من عُقل التقاليد ، وانفكوا من قيود الفقر والمظالم وتنفسوا الصعداء . »[1]

وفي اضطرار اللبنانيين الى الهجرة يقول الشاعر اللبناني[2]

امسي بنوك وما في الحي مرتزق لهم ولا لأبيٍّ منهم شغل
فازمعوا البعد عن اوطانهم حذراً من فاقة اهلها بين الورى همل

---

(١) عن مجلة الزهور (مصر) ١ — ٤٤٥ . ومثله قول المؤرخ جرجي يني في مجلته المباحث ١ - ٨٣٩ حيث يعزو الهجرة الى سوء ادارة البلاد وعسف كبرائها واولي الامر فيها مما جعل العمل عسيراً والرزق صعبا . وقول توفيق ضعون في كتابه ذكرى الهجرة ص ١٢

(٢) امين ناصر الدين في ديوانه الالهام ١٠٦ .

مضوا وقـــد حملتهم كل جارية تفري العباب وفيهـا النار تشتعل
لم يبرحوك اختيـــاراً بيد انهم ضاقت بهم جنبات العيش فانتقلوا

ويصل ذلك بوصف حال البلاد وتقاعس اغنيائها عن تأسيس الاعمال النافعة. ثم يصف اميركا وعظمتها وما فيها من فرص سانحة لاهل العزم والايمان.

وكان همّ المهاجرين اولاً جمع المال وارساله او العودة به الى اهلهم وانسبائهم، فتدفقت ملايين الريالات على هذه البلاد وظلت كذلك حتى الى ما بعد الحرب العالمية الاولى ولا تزال نوعاً ما الى الان.

والذين عادوا الى الوطن حملوا معهم فضلاً عن المال روحاً جديدة وآمالا جديدة، كان لها اثر في ترقية الحياة المعنوية لا في قطرهم فقط بل في الاقطار المجاورة ايضاً.

ولا ينكر ان القسم الاكبر من المهاجرين قد استوطنوا ديار غربتهم، وهناك نشأت منهم اجيال ضعيفة الصلة بالوطن الاصلي. على انهم برغم ذلك لم يفقدوا شخصيتهم المعنوية. فقد حملوا الى شتى المهاجر لغتهم وادبهم فانشأوا الصحف والنوادي وشاركوا العالم العربي في نهضته الفكرية، فنبغ بينهم جماعة من كبار الكتاب والشعراء. والى ذلك يشير شاعر النيل حافظ ابرهيم في قصيدته « لمصر ام لربوع الشام تنتسب »[1] اذ يصف اقدامهم ومساعيهم المادية وخدماتهم الادبية.

لم تبد بارقـــة في افق منتجَع الا وكان لهـــا بالشام مرتقب
ما عابهم انهم في الارض قد نثروا فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت امُّ اللغات بذاك السعي تكتسب
فأين كان الشآميّون كان لهـــا عيش جديد وفضل ليس يحتجب

والذي يطالع آثارهم الفكرية يلمس ما للبيئة من تأثير فيها. وهذه الآثار تتجلى لنا في بعض نزعات نفسية ترجع عند التحقيق الى اثنتين رئيسيتين هما — حب الحرية — والحنين الى الشرق. وغرضنا فيما يلي ان نحلل هاتين النزعتين ونتبين اثرهما في ادب المهاجر الاميركية.

(١) ديوانه ١ — ٢٦٨

حب الحرية

ويرادفه حب التجدد او التخلص من كل ما يعيق المرء عن السير في سبيل التقدم وهي النزعة الانسانية التي تسود ادب المهجر . وقد سعى الادب المهجري في هذا السبيل سعي المجاهدين وغرس لنا في حقول الوطن والدين واللغة غروساً طاب جناها للآكلين . وتظهر الحرية فيه بثلاثة مظاهر – الحرية الوطنية والحرية الدينية والحرية اللغوية . وها نحن نمرّ عليها مراً سريعاً ونعرضها بما يمكن من الايجاز.

الحرية الوطنية

ترك المهاجرون اوطاناً ترهقها المظالم ويغشاها الفساد الاجتماعي والاداري . فلما استنشقوا نسيم الحرية في المهاجر وتذوقوا لذة الادارة المنظّمة شعروا بغبطة لم يعهدوها من ذي قبل ، فاخذوا يتغنّون بالحرية ويشيدون بمحاسنها . على ان لهذا التغني في كل من الاميركتين طابعاً خاصاً . فالشماليون عموماً اميل الى المثالية العامة : يلتفتون الى اوطانهم القديمة وفسادها الاداري ويقابلونها باوطانهم الجديدة وحياتها الراقية فيقولون مع رشيد ايوب[١] .

الا لا ارانا الله عوداً لدولة نكون لها اسرى واموالنا نهبى
السنا الالى عافوا الحياة بظلها وجابوا بلادالله واستوطنوا الغربا

واقوالهم في هذا المعنى كثيرة يضيق دونها هذا المقام . وكلهم يشعر في دار هجرته شعور الاسير فُكّ من اساره . وكلهم – فقيرهم وغنيّهم – يتنعم بكرامة لم يعرفها قبلًا في عقر داره . على ان ذلك لم ينسهم اوطانهم الاولى فهم يدعون لها بالخير ويتمنون ان تحظى بالحرية والعدالة ، ولسان حالهم يردد مع امين الريحاني اذ وقف على جسر بروكلين مواجهاً تمثال الحرية القائم على مدخل مرفأ نيويورك فقال يخاطب تلك الالهة[٢] .

---

(١) من قصيدته ـ بلادي – الايوبيات ٤٠ .
(٢) الريحانيات ١ – ٥٦ .

« متى تحوّلين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ؟ ايتأتى ان يرى المستقبل تمثالاً للحرية بجانب الاهرام ؟ امكن ان نرى لك مثيلاً في بحر الروم ؟ ايتها الحرية متى تدورين مع البدر حول الارض لتنيري ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة » . ثم يلتفت الى البواخر المقلّة خيرات اميركا الى الشرق فيقول : « خذي معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشّي سواحل مصر وسوريا وفلسطين والاناضول . والى كل جزيرة تمرّين بها وكل بلاد تقصدينها وكل شعب تحيّي سواريك قباب كنائسه ومآذن جوامعه، احملي سلام هذه الآلهة التي تنير طريقك في الخروج من العالم الجديد » .

هذا الشغف او هذا الايمان بالمثالية الديمقراطية يبرز في ادب المهاجرين الشماليين وقد يتحول عند بعضهم الى دعوة للاشتراكية تمزج فيها النقمة على ارب المال والاعمال بالعطف على الفقراء من العمال . ولا غرو فالادب حسّاس مرهف الشعور واكثر الادباء كما سنرى ممن عضهم الدهر بنابه وحرمهم من اكثر اسبابه .

اما الجنوبيون فيمتازون بما تصطبغ به نفثاتهم من حماسة قومية ونزعات عربية ويزكيّ ما نذهب اليه شهادة الذين زاروهم وخبروا احوالهم . وهاك من ذلك هذه الكلمة التي نقتبسها من مقال للدكتور خدّوري ممثّل نادي القلم العراقي وقد بناه على اختباراته خلال رحلته الى اميركا الجنوبية لحضور مؤتمر نوادي القلم الذي عقد في بونس ايرس صيف ١٩٣٦ . قال[١] : « اما الشعراء والكتاب فارواحهم دوماً في البلاد العربية واجسادهم فقط في المهجر . وهم يتتبعون بدقة زائدة تطور القضيّة العربية . وينظمون الشعر ويتلون الخطب الحماسية خدمة للبلاد العربية . ومنهم الامير امين ارسلان بجريدته « الاستقلال »، والسيد موسى يوسف عزيزه بجرائده اليومية والاسبوعية ، والدكتور جورج صوايا بمجلته « الاصلاح »، والسيد موسى كريم بمجلته « الشرق » والشاعر الياس قنصل بمجلته «المناهل» . وعلى هذا الاساس تجد الجالية العربية في اميركا الجنوبية تشعر وتتحسس بما يشعر ويتحسس به العرب في كافة البلاد العربية »[٢] .

---

(١) راجع مجلة المعلم الجديد (بغداد) حزيران ١٩٣٩ .

(٢) نضيف الى قائمة المجلات المذكورة اعلاه «العصبة الاندلسية» فان لها يدا تذكر في خدمة العربية

وقد طالعنا بانفسنا اكثر هذه المجلات عندهم وقرأنا اقوال شعرائهم وكتبتهم كقيصر وفوزي وشفيق المعلوف والشاعر القروي وابي الفضل الوليد وعقل الجر وشكرالله الجرّ والياس فرحات والياس قنصل وجورج صوايا وحبيب مسعود وتوفيق ضعون وحبيب اسطفان وتوفيق قربان وسواهم ، واطلعنا على اعمال نواديهم وجمعياتهم وما كانوا يقيمونه من حفلات تعزيزاً لقوميتهم . وهو الذي يحدونا ان نقرر لهم هذا الطابع القومي الخاص .

ولعل الفرق بين الطابعين الشمالي والجنوبي راجع الى عدة اسباب من اهمها اختلاف البيئة . فالمهاجرون وجدوا انفسهم في الجنوب بين اقوام لا يفوقونهم رقياً وعزماً فكان ذلك من اسباب بروزهم كعنصر يفاخر بماضيه ومآتيه . ولم يتيسر لهم ذلك في الشمال حيث هالتهم الحضارة الاميركية بنظامها وتفوقها المادي فدفعتهم برغم اكبارهم لها الى التنديد بالماديّة والتفاخر بروحانية الشرق ، كما سيجيء بعد .

الادب المهجري

الحرية الدينية

وكما كره الادب المهجري الظلم وسوء النظام منادياً بالحرية الانسانية او داعياً الى الاستقلال القومي . كره التعصب الديني والنعرات الطائفية التي مزّقت وحدة اوطانهم وجعلت منها فرقاً متعادية ومذاهب متضاغنة .

احتك المهاجرون ولاسيما في الشمال باقوام يعظّمون الجامعة الوطنية ويرفعونها فوق كل شيء ولا يرون في اختلاف العقائد ما يحول دون تآلفهم في سبيل المصلحة القومية وتعاونهم على ما فيه الخير العام . وقابلوا ذلك بحال اوطانهم الاصلية وما يسودها من شقاق وتخاذل فتحركت في نفوسهم عاطفة النفور من التعصب المذهبي حتى قام منهم من اخذ ينادي بالدين الانساني وبالايمان الشامل ، او على الاقل يدعو الى حرية المعتقد وعدم التعرض بسوء لمن يخالفنا في رأي او مذهب . كقول احدهم[1] : « عرفت قوماً يفضلون شعر المتنبي وآخرين يفضلون المعري او الشريف الرضى ولكنهم لا يتباغضون من اجل ذلك . اما اتباع

(١) وليم كاتسفليس في بلاغة العرب في القرن العشرين (رضا) ٢٥٣ .

موسى وعيسى ومحمد فلا يكتفون بالتفضيل » ثم يتساءل متهكماً . « سبحان الله امن المعقول ان ابغض اخي لانه رفض ان ينجو من النار على يدي ؟ اما كفاه قصاصاً ما سيلاقيه من عذاب الاخرة لرفضه اعتناق عقيدتي ؟ »

ولو جئنا نضرب الامثلة على ما جاشت به صدورهم من ذلك لاخرجنا مجلداً يضم طائفة كبيرة من الخطب والمقالات والقصص والقصائد . والحق يقال ان ادباء المهجر الا القليل منهم عصريّو التفكير والشعور – على ان لكل منهم لوناً خاصاً يميزه . فهناك المصلح الاجتماعي كامين الريحاني، والمتمرد الروحي كجبران جبران، والمفكر الانساني كمخايل نعيمه، والفنان العاطفي كايليا ابو ماضي، والمتحمس القومي كرشيد الخوري (الشاعر القروي) . وكلهم يحفزهم شعور واحد وكلهم يرمي الى غاية واحدة، بل كلهم يصرح مع محبوب الشرتوني[1] :

كل شعب فشا التعصب فيه هان والموت من وراء هوانه

ويتساءل في حيرة مع الريحاني[2] – « اليس في وسع المرء ان يعيش في هذا العالم دون ان تطبع روحه بطابع الملة وتصبغ بصبغة الطائفية » . وادب الريحاني من اوله الى آخره ينضح بهذه الروح الانسانية الواسعة التي لا تعرف من الدين الا نقاوة الضمير وحب الخير . فان الدين في نظره هو « ما اثار القلب . ومتى كان ضمير جاري كنور الشمس حياً نقياً وقلبه كوردة تتفتح في الفجر لتستقبل ندى السماء، فلا فرق اذ ذاك عندي ان ذكر بين الدراويش او سجد مع اليسوعيين او اغتسل في نهر الكنج مع البوذيين ، فهو المؤمن الحقيقي – هو الصادق في دينه – هو رجل الله الامين[3] » .

وهذه الروح تشع في اقوال الكثيرين منهم . وقد تتقد في صدور البعض ولاسيما من كان منهم كالشاعر القروي يحسب التعصب الطائفي ضربة قاضية على وطنه وقوميته فتجمع به الحماسة الى مثل قوله من قصيدة في عيد الفطر[4] .

(١) ديوانه ١٢٠ .
(٢) الريحانيات ١ – ٣٤ و٣٧ .
(٣) الريحانيات ١ – ٢١٦ .
(٤) الاعاصير ١١١ .

هبوا ليَ عيداً يجعل العُرب امة   وسيروا بجثماني علـــى دين برهم
فقد مزقت هذي المذاهب شملنا   وقد حطمتنـــا بين ناب ومنسم
سلام على كفر يوحّد بيننـــا   واهـــلاً وسهلاً بعده بجهـــنم

ولم يكن القروي كافراً وانما هي مرارة نفس حساسة تتألم لحال الوطن وتطغى عليها الحماسة فتخرجها ساعة عن حد الاعتدال . فقد عرفت هذا الشاعر وقرأته ولا احسبه يرمي الى غير التساهـل وتعظيم المثالية على انه عنيف في عباراته حاد في تصريحاته .

الحرية اللغوية

والادب المهجري نفور من التقاليد اللغوية او الانشائية التي يحاول بعض النصوصيين تقييد الادب بها . ولا نقصد هنا الخوض في مسألة النزاع بين المحافظين والمجدّدين فتلك مسألة قديمة ولهـا مقام غير هذا المقام . وانما يهمنا ان نقرر موقف المهاجرين منها واثرهم فيها . والواقع ان لهم في ذلك يداً تذكر واخص بالذكر منهم اعضاء الرابطة القلمية في نيويورك . فهؤلاء قد تذوقوا الادب الغربي واشربوا الروح الرومانتيكية . فلما التفتوا الى الحركة الادبية في الشرق ورأوها تسير ببطء نحو التجديد وقـد وقف لها بالمرصاد المتشددون المتنطسون ، هالهم ان يكون الادب خاضعاً لاحكام هؤلاء ، مقيد الخطى بقواعدهم . ولعلهم خافوا ان يؤدي ذلك الى رجعية تعنى بالقشور دون اللباب فرفعوا لواء الثورة وهاجموا المحافظين هجوماً عنيفاً . وهاك على سبيل التمثيل شيئاً من اقوال جبران ونعيمه .

قال الاول على طريقته الشعرية او الخطابية من مقال موضوعه « لكم لغتكم ولي لغتي »[١] – « لكم منها القواميس والمعجمات والمطوّلات ولي منها ما غربلته الاذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله السنة الناس في افراحهم واحزانهم . لكم من لغتكم البديع والبيـان والمنطق ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب ودمعة في جفن المشتاق وابتسامة على ثغر المؤمن واشارة في يد

(١) راجعه في بلاغة العرب في القرن العشرين ٥٠

السموح الحكيم . . لكم منها الفصيح دون الركيك والبليغ دون المبتذل، ولي منه ما يتمتمه المستوحش ، وما يغصّ به المتوجع وما يلثغ به المأخوذ – وكله فصيح وبليغ . لكم منها القلائد الفضية ولي منها قطر الندى ورجع الصدى وتلاعب النسيم باوراق الحور والصفصاف . . . لكم منهـــا الترصيع والتنزيل والتنميق وكل ما وراء هذه البهلوانيات من التلفيق، ولي منها كلام اذا قيل رفع السامع الى ما وراء الكلام واذا كتب بسط امام القارىء فسحات في الاثير لا يحدّها البيان »

اما نعيمة ففي « غرباله » كثير من هذا الباب . ونشير بنوع خاص الى مقاله « نقيق الضفادع ». ويعني بالضفادع الرجعيين من الكتاب المتمسكين باهداب التقليد السائرين وعيونهم الى الوراء . يقول – « ان اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع الا لقوانين الحياة . فهي تنتقي المناسب وتحتفظ بالانسب فعلام وقوقة الموقوقين في كل الاقطار العربية ؟ . تكاد لا تفتح جريدة او مجلة من جرائد سوريا ومجلاتها الا وتجد فيها باباً للوقوقة يدعونه تهذيب الالفاظ . فالقوم هناك في حرب عوان – ذاك يقول ان التعبير كذا وكذا خطأ ويستشهد بالثعالبي وذاك يقول انه جائز ويستند الى الزمخشري . وهم يحسبون ان الحيـــاة باسرها انحصرت فيما ينفون وما يثبتون . ولم يعدموا في مصر اخواناً لهم يتوسّدون القواميس ويتلون عليها صلواتهم . وكل غايتهم في الحياة ان يقفوا من قصيدة او مقالة على كلمة او تركيب لم تألفها اذواقهم ولا رضيت عنهما قواميسهم واذ ذاك يسمعونك نغمتهم العذبة واق واق ! »

ولم ينحصر حب التجديد عندهم في الثورة على النصوصيين والمتنطسين بل تجاوزها الى تجديد المواضيع الادبية والتفنن في اخراجها . ويبرز ذلك اكثر في ادب الشماليين وخصوصاً الشعر منه ولا ريب انهم متـــأثرون باساليب الادب الانكليزي والاميركي وفي طريقة نظر الغربيين الى الحياة والطبيعة .

ولا ينكر انهم بذلك قد ساهموا مساهمة فعالة في توسيع الافق الخيالي وفي توليد افانين من النظم التوشيحي وسنشير الى ذلك ونمثل عليه في الكلام على الاتجاه الفنّي

الحنين الى الشرق

الانسان بطبيعته ميال الى ما يألفه فاذا غاب عنه افتقده وشعر بدافع قوي يدفعه اليه . وقد عبّر عن ذلك المتنبي بقوله :

خلقت الوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع الراس باكيا

وهو قول يصدق على الكثيرين من ادباء المهجر . ففي نفثاتهم الادبية نراهم شديدي التحنان الى ربوعهم الاولى يذوبون شوقاً الى مرآها كأنّ البين قد محا سيّئاتها ولم يبق لتذكرهم غير حسناتها[1] .

ومما ساعد على اثارة الحنين في نفوسهم احوال لازمتهم في ديار الغربة وآلمتهم. واكثر ما يظهر ذلك في ادب المهاجر الجنوبية . فكم من شاب غض الاهاب ترك ذويه واحباءه وركب البحر متجشماً المتاعب والاخطار وهو يأمل ان يوفق في مسعاه ثم يعود الى وطنه مثقلاً بالنضار . ولكن الاقدار خانته فعاش في غربته حزين النفس يقيمه الشوق ويقعده اليأس، وكأن الشاعر المهاجر نعمة الحاج قد نطق بلسانه اذ قال من قصيدة[2] —

تذكرت اهلي في النوى وبلاديا وقد طال شوقي للحمى وبعاديا
تذكرت هاتيك الربوع واهلها ويا حبذا تلك الربوع زواهيا
تطير لها نفسي من الوجد والجوى ويمسى لها دمعي على الخد جاريا

وكم من مهاجر كان يحسب العالم الجديد منبعاً للخير ومرتعاً للهناء، وسرعان ما وجد انه معترك هائل وجهاد عنيف وان عليه ان يكدّ اضعاف ما كان يفعل في وطنه ليكسب الرزق — اضنته حياة المعامل ونهكته الاسفار حاملاً بضاعته على ظهره ، او ثقل عليه تحكّم اصحاب المال وارباب الاعمال فتذكّر اذ ذاك قريته المتواضعة وحياتها الهنيئة وثار فيه تحنان اليها . ولكن انّى له الرجوع وبينه وبينها الوف الاميال وفراغ الجيب من المال ! هكذا يصوّر مسعود

(١) راجع هنا قصيدة (هل يا ترى نعود اليك يا لبنان) لرياض معلوف في ديوانه خيالات ٢٦
(٢) ديوانه ١٧٧

سماحة حال المهاجر وقد قذفه سوء الطالع الى دار الغربة حيث صدمته النوائب وعاركته الشدائد فيقول من قصيدته « المهاجر »[1]

كم طويت القفار مشياً وحملي فوق ظهري يكاد يقصم ظهري
كم قرعت الابواب غير مبال بكلال وقرّ فصلٍ وحر
كم ولجت الغابات والليل داجٍ ووميض البروق شمسي وبدري
كم توسدت صخرة وذراعي تحت رأسي وخنجري فوق صدري

وهذه صورة صادقة لحال كثيرين من المهاجرين ولاسيما بعض ادباء منهم اذ يحدثوننا عن اختباراتهم المرة ويشرحون لنا خوالجهم الشخصية كالشاعر الآنف الذكر، وكزميله القروي (رشيد الخوري) في قصيدته « السوري التائه »[2]. وهو يستهلها بالحنين الى الاوطان ثم يصف لنا حاله وبيئته البرازيلية وما كانت تقتضيه مهنته (مهنة بائع متجول) من اسفار ومكابدة ومشاق . وفيها يقول :

دفنت ربيع عمرك في بلاد بها طالت لياليك القصارُ
اذا لم تحو تربتها حجاراً فبين ضلوع اهليها الحجار
ثمارك من طوافك سعي نمل وحظٌ صراصر ، بئس الثمار
فكم من يقظة الك في الدياجي تقضّى قبلها نوم غرار
وفي اذنيك صوت مستمر « رشيد » افق لقد صفر القطار

وهكذا نرى الشاعر يطوف المدن والقرى راكباً اليها البحر والبر ولكنه لا يلقى من ذلك الا العناء والقهر . فهو اسير بيئة يود التخلص من نيرها وقرين هموم لا نجاة منها —

هموم لا ازال لها اسيراً وشر مصائب الحر الاسارُ
متى يا رب ينزع غلّها عن يدي ويفكّ عن نفسي الحصار
اروم الى ربى لبنان عوداً ويمسكني عن العود افتقار
ولو خيّرت لم اهجر بلادي ولكن ليس في العيش اختيار

(١) ديوانه ٣٣ .
(٢) القرويات ٥٣

وهذا الشعور الاليم لترك الوطن والاضطرار الى الاقامة في دار غربة لا تقدّم للمقيم بها سوى العناء والشقاء تحس بحرارته في نفثات ابي الفضل الوليد وخصوصاً في قصيدته « تأمّل وتأميل » التي يقول فيها[١] —

فديتك يا ارض الشآم فمنك لي ثراء على فقر وسكر بلا خمر
متى اطأ الترب الذي هو عنبر واملأ من ارواح تلك الربى صدري

وهو يعود بالذكرى الى ايام صباه في لبنان ويحدّثنا عن رغبته الشديدة في التغرب والحاحه على اهله ان يسمحوا له بذلك، وبذلك يعبّر عن شعور كثيرين من الفتيان الذين اندفعوا في تيار المهاجرة بالرغم عن نصائح الاصدقاء والعارفين —

فكم قيل لي اجّل رحيلك يا فتى لئن تدخل الدنيا رمتك على عسر
فلم انتصح حتى اذبت حشاشتي وعانيت ما عانى الشجاع من الاسر
لقد كنت ظماعاً فاصبحت راضياً بأيسر شيء اذ غلبت على امري

وممن رسموا شقاء المهاجر واسمعونا نغمات اساه وانات شوقه الى ربوعه القديمة رشيد ايوب في ذكرى لبنان[٢] وقيصر المعلوف في قصيدته « الهجرة »[٣] وفرحات في قصيدته « حياة مشقات »[٤] وانشودته « وطني »[٥] ومحبوب الشرتوني في « خطرات مغترب »[٦] ونعمة قازان في « معلّقة الارز »[٧] وندرة حداد في ذكرى الغريب[٨] وابو ماضي في قصيدتيه « تأملات » و « لبنان »[٩] . وفي هذه الاخيرة يقول معبّراً عن عواطف الجميع .

---

(١) ديوانه اغاريد في عواصف ٧٠ .
(٢) ديوانه هي الدنيا ٤٢ .
(٣) تذكار المهاجر « ديوانه » ٢٠
(٤) راجعها في ديوانه وهو القائل في « احلام الراعي » (١٩٥٢) ٦٦ واصفاً احوال المهاجرين — لنا ألفة في النوى واخرى بذكر الوطن .
(٥) مجلة البرق « بيروت » ٣٤٣٦ . والمجلة (لسعاده) ٨ — ٧٢
(٦) ديوانه ٧٨
(٧) نشرتها دار الطباعة بالبرازيل ١٩٣٩
(٨) ديوانه اوراق الخريف ١٢٠ .
(٩) ديوانه الخمائل ٧٩ و١١٢ .

اثنان اعيا الدهر ان يبليهما لبنان والامـــل الذي لذويه
نشتاقه والصيف فوق هضابه ونحبه والثلـــج في واديه

ولغيرهم كثير من هذا القبيل .

ولقد نلاحظ ان هذا الحنين كان منشأه في اول الامر شعور المهاجرين بالم الغربة . على ان هذا الشعور لم يبق على حاله بل اخذ يخف مع الزمان حتى كاد يتلاشى . وما يصلنـا الآن من شوق المهاجرين الى الشرق او ميلهم الى الاتصال به فعن طريقين مختلفين : طريق سياسية وطريق روحية . فالسياسية تحمل الينا اهتمام اخواننـا في المهاجر المختلفة باحوالنا السياسية ومشاطرتهم ايانا آلامنا وآمالنا . ولست ببـالغ اذا قلت ان منهم من هو في مقدمـة الذين جاهدوا في سبيل استقلالنا وعنوا اشد العنـاية بالدعاية لاتحادنا والمحافظة عـلى كياننا . وقد ظهر لهم من الشعر والنثر ما لا يقل عن افضل ما ظهر في الشرق العربي نفسه .

ومنذ اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ الى الثورة العربية ١٩١٦ الى اعلان الملكية العربية بدمشق ١٩١٨ الى واقعة ميسلون ١٩٢٠ – الى الثورات الوطنية في العراق والشام وفلسطين ومصر الى الحرب العالمية الاخيرة وما عقبهـا من الاعتراف باستقلال اكثر الاقطار العربية وما يتصل بذلك من مفاوضات ومشادات – كان للادب المهجري شعراً ونثراً يد تذكر في المدافعة عن حقوقنا واذكاء نار الحمية في نفوسنا .

هـذا فضلًا عمـا قامت به الصحافة العربية في الجنوب والشمال مما يطول بنا شرحه .

اما الطريق الروحية . فيظهر الحنين المهجري فيهـا بشكل نفور من المادة الغربية والتجـاء الى الروحانية الشرقية . فقد سُحر المهاجرون في اول امرهم بعظمة الغرب العمرانية وتفوقه العلمي والصناعي على انهم بعد ان خاضوا غمرات الجهـاد هناك وذاقوا الامرّين في سبيل الرزق ظهرت لهم الناحية السوداء من المدنية الحديثة – هذا الكفاح المضني لاجل المال . وهذه الحياة الميكانيكية الخاصة

من الجمال. هالتهم مدنية الآلات والمعامل – مدنية السرعة والزحام والتكالب والخصام، فاخذ الادباء منهم يصورونها للناس تصويراً ينفرّهم منها ويحبب اليهم جمال الطبيعة وبساطة الروح. ولكن اين يحظى الانسان بذلك؟ سؤال كان جوابه عندهم او عند اكثرهم: في لبنان – في تلك القرى الجميلة حيث يخف الزحام على الرزق وحيث يسود السلام بين الخلق. هناك غبطة القناعة وجمال التواضع وسكينة النفس.

وهكذا نسمع فرحات يقول في نشيده « موطني » المار ذكره

نازحٌ اقعده وجـــدٌ مقيم في الحشا بين خمود واتقاد
كلما افترّ له البدر الوسيم عضّه الحزن بانيـاب حداد
يذكر العهد القـديم فينادي
اين جنــات النعيم من بلادي[1]

او ليس ذلك ما يرسمه جبران لنا في مقاله « مناجاة ارواح »[1] اذ يقابل بين طلوع الصباح على اكبر مدينة اميركية وطلوعه على جبال لبنان – فيقول –

« قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكفّ النهار الثقيلة. فازيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة. وذهب التعساء الى المعامل وداخل اجسامهم يقطن الموت بجوار الحياة. وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف كأنهم منقادون قهراً الى عراك هائل مهلك. ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويـــل البخار. واصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني الظلوم باتعاب الفقير المسكين ».

هذه صورة الصباح في الحاضرة الاميركية اما في لبنان فقد – « استفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي. وترنمت اجراس الكنائس وملأت الاثير نداء مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح. وقد غادرت العجول مرابضها

(١) بلاغة العرب في القرن العشرين « رضا » ٤٩ .

وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الاعشاب المتلمّعة بقطر الندى . ومشى امامهـا الرعاة ينفخون الشبّابات ووراءها الصبـايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح » .

وللشاعر القروي كثير من هذه الحملات على مادية الحياة الغربية وهو يقرنها عادة بذكر الحياة الهنيئة في لبنان حيث يجد راحة النفس من متاعب الزمان. ومن ذلك قصيدة يقول فيها[1] –

يا برازيل لو أفضتِ عليّ المال فيضاً ما طاب فيك المقـــام
اين فصل الربيع فيك واين الشمس – اين الهـلال – اين التمام
انت نعم البلاد جوداً وخصباً غير ان الهنـــاء فيك حرام

وسبب ذلك عنده وحشية الناس في تكالبهم على حطام الدنيا .

وكأن الورى وحوش بآجام وتلـــك الشوارع الاجـام
منكبٌ حكّ منكباً وجبين شجّ رأساً . علام هذا الزحام ؟

ومثل اختبارات القروي اختبارات زميله الياس فرحات . ففي شعره ما يشعرك بنفس ذاقت الامرّين في معتركِ الحياة . ولا تحتاج الى اكثر من نظرة في قصيدته « بين الطفولة والشباب »[2] لترى خوالجه الحساسة الثائرة على المادية بين الناس . وفيها يقابل بين حاله وهو فتى في منزل والديه بكفرشيما (لبنان) وحاله في المهجر يجاهد ويعارك في سبيل الارتزاق فيقول :

واهاً عـــلى هاتيكم الليالي واهاً على ساعاتهـــا الغوالي
وحبذا « الغدير والحيّـــالي » وما لدى النهرين من جمـــال
وما لتلـك الارض من جلال

. . .

فانني مـــذ غبت عن لبنانا ما زلت امشي تائهاً حـــيرانا

(١) القرويات ٥٩ .

(٢) بلاغة العرب في القرن العشرين ٢٠٧ .

علـــيّ ان احالف الخسرانا او لا فان احتمـل الهوانا
والنفس لا تقبل ان تهـــانا

. . .

امشي من الاحزان والاوجاع كأنّ صنين عـــلى اضلاعي
احاذر الذئاب والافـــاعي والناس عند الذهب اللمـاع
شرّ من الحيّـــات والسباع

وعلى هذه الوتيرة قصيدته « عجل الذهب »[١] وسواها حيث يرينا .

— اناســـاً تدوس اله الضمير وتحني الرؤوس لعجل الذهب

وكل البلاء عنده كما عند سواه من ادباء المهجر راجع الى هذا التكالب على الاصفر الرنان . وما تقتضيه « المادية » من تنازع وظلم وبهتان !

ومن اجمل الرسوم الفنية في هذا الباب مشهدان بقلم مخايل نعيمه[٢] يقابل فيهما بين الحياة الماثلة في مدينة نيويورك وينعتها بالتنين ، وحياة قريته الوادعة القائمة على سفح صنين . وفي المشهد الاول « التنين يتنفس » نراه جالساً على مقعد في حديقة عمومية وسط تلك المدنية الجبارة وهو يرسم لنا ما يراه من مختلف اشكال الناس واعمالهم . ثم يتساءل —

« من هؤلاء الناس ؟ من اين اتوا — ۖلماذا اتوا وماذا يعملون في جهنم الارض ؟ أطرح عليهم هـذه الاسئلة بعيني فتجيبني وجوههم المجبولة من تربة كل ارض بكل السنة الارض : ومن انت — ومن اين اتيت — ولماذا اتيت — وماذا تعمل في جهنم الارض ؟ فاصمت حائراً واعود اقلّب نظري في جماهيرهم المتألبة . . . وبعد ان يعرض علينا مشاهد المدينة المختلفة يقول — « الشمس في السماء . ولكن من في الحديقة لا يشعرون بها ولا يرونها لانها مقنعة بقناع اغبر كثيف ليس ضباباً ولا سحاباً . ان هو الا انفاس التنين المتصاعدة من الوف المداخن وملايين النوافذ، وجبال متراكمة من الحديد والحجر والقير والاسفلت، وقوافل لا يدرك اولها من آخرها من العجلات المسيّرة بالغاز والمسيّرة بالبخار والمسيرة بالكهرباء .

---

(١) بلاغة العرب في القرن العشرين ٢٠٨ .

(٢) المراحل ٦٥ .

تتصاعد هذه في الهواء فينوء تحتها الهواء . ترفعها الارض بكل قواها الى فوق فتشمئز منها السماء وتضغط بها الى اسفل فتظل عالقة بين الارض والسماء، خاطفة من الشمس حرارتها ، خانقة من النسيم انفاسه، ضاغطة بصفائح من حديد محمية في نار جهنم على صدر التنين المتمدد بين نهرين[١] الفاغر فاه ليشرب البحر ويبتلع البر دون ان يرتوي يوماً او يشبع » .

وتحمله الذكرى وهو على تلك الحـــال الى عهد حداثته في لبنان – الى مزرعة في سفح صنين حيث السماء الصافية والميـاه الجارية والاعشاب الزاهية والطيور المغردة . وبعين الخيال يرى نفسه هناك مستلقياً على صخرة بيضاء فيعيد لنا بعض ذكرياته –

« عن يساري شاب سقاه صنين العافية والعزم والامل . هو مكبّ على بقعة من سنابل القمح يقطعها بمنجله قبضة قبضة . اراه ينتصب ثم ينحني . . اسمع رنات منجله تندمج بنبرات صوته الفتي المتموج –

من هونْ لارض الدير	من هون لارض الدير
والسر اللي بيننـــا	اش وصّـلو للغـــير
ون كان ما في ورق	لكْـتب عجنـح الطير
ون كان ما في حبر	بدموع عينيـــا . . .

ثم اراه يجمع ما يقطعه من السنابل كوماً كوماً حاملاً منجله على ذراعه وماسحاً عرق جبينه بيديه » . ويختم وصفه بقوله –

«صنين يتنفس ويحلم احلامه (قابل ذلك بتنفس التنين)، والحاصد عن يساري يقطع سنابله ويحلم احلامه ، والبقرة عن يميني تجترّ وتحلم احلامها . . . العصافير في البلوطة تسدي الخالق شكرانها والمكاري في الوادي يرفع الى الله صلاة حبه. النهار يتقلص والاظلال تستطيل ، وعلى الصخرة الدهرية البيضاء صبي (يعني نفسه) يحلم بجنات مدنيّة غريبة قصية » .

مشاهد حقيقية – حياة التنين وحياة صنين ! المدينة الجبارة التي لا تنام والقرية

(١) مدينة نيويورك واقعة بين نهر الهدصون والنهر الشرقي .

الوديعة الغارقة في لطيف الاحلام – هناك الدخان والضجيج والجهاد والزحام والعناء والناس تحرق على مذابح الاصنام . وهنا الهناء والقناعة والجمال والحرية تتصاعد بخوراً الى اله السلام .

نظرات سوداء يلقيها الادب المهجري على الحياة في مدن الغرب، ولا عجب فالادباء مجبولون على رقة الشعور ومرعة الانفعال لا يشبع نفوسهم غير التمتع بالحرية والجمال . فهم صوت واحد في الدعوة الى البساطة الطبيعية والابتعاد عن شقاء المدنيّة . وفي هذه الدعوة كما رأينا يتجلى حنينهم الصادق الى الشرق الفتان وخصوصاً الى وطنهم الحبيب – الى موئل الارز – لبنان .



الاتجاه الى التامل الفكري

الأَدب التأمّلي

توطئة

يراد بالادب التأمّلي ما ينعكس عن تأمّل الانسان في الحياة والطبيعة وما بعدهما . وليس ذلك بجديد في تاريخنا الادبي فان للقدماء منه نثراً وشعراً ما لا يخفى على الباحث المطّلع . على ان الذي يدقق النظر لا يسعه الا ان يلاحظ ان في الادب العربي الحديث من هذا القبيل اتجاها خاصّاً يميّزه عن سواه . وهو ما نحاول بسطه تحت الابواب الرئيسية التالية –

(١) التفكير الجديد في الحيــاة الروحية – (٢) الالتفات الى المواضيع المجرّدة – (٣) النظر المعنوي الى الريف والطبيعة

التفكير الجديد في الحياة الروحية

كان الانسان قديماً اذا فكّر في علاقته الروحية بخالقه وبمجتمعه فانّ تفكيره عادة يدور حول نظام معيّن من التعاليم والعبادات يرى فيه الطريق الاوحد او الامثل للتمتع بسعادة الدنيا والآخرة . وكثيراً ما يقترن هذا الاعتقاد بعصبيّة طائفية يعكسها لنا ادب جماعة من الجماعات او عصر من العصور، كما يعكسها في ادبنا القديم مثلاً شعر ابي تمام والبحتري وابي فراس والمتنبي وابن الساعاتي وابن عبدون والرُنــدي وسواهم ممّن ادركوا الحروب الرومية او الصليبيّة او الاندلسية . ولم تنحصر هذه العصبيّة في طائفة دون طائفة او في قوم دون قوم، بل كانت عامّة عرفها الغرب كما عرفها الشرق . وقد تحدّرت الى عهد قريب منّا بل بلغت عهدنا فكانت في الشرق العربي من اهمّ عوامل التفريق والتخاذل ولا يزال بنوه يعانون مرارتها ويودّون التخلص منها .

على انه منذ اواخر القرن الماضي (التاسع عشر) اخذت النظريات القديمة تتقلّص امام نور العرفان والحضارة، حتى ليندر اليوم ان تجد في البيئات الادبيّة منِ تروقه المنـاظرات الكلاميّة والمماحكات الجدليّة التي لم تكن غريبة عن

عصر جدودنا الاقربين[١] . بل قلمّا ترى اليوم اديباً او مفكـّراً لا يدعو الى الوئام وحسن التفاهم والقضاء على النعرات المدّامة .

ومن اقدم الدعوات الى ذلك ما جاء لسليم البستاني في مقال موضوعه « الغد »[٢]، اذ قال « قد فتحنا الكلام بطلب قتل العصبيّة الدينية وسنختمه بها لانه بدون ذلك لا امل لنا من نوال المرغوب . واذا قال احد ان ذلك ضرب من المحال اقول له ان العصر الذي قتل التعصّب الديني في اوروبا سيقتل عنصر التعصّب من بلادنا الخ » .

ولقد كان من هذه الحملة على التعصّب الطائفي ان بعض المتحمّسين من الكتاب والشعراء اخذوا يهاجمون رؤساء الدين ملقين على عواتقهم تبعة هذا الامر متّهمين اياهم بالعمل على التفرقة بين الطوائف والوقوف في سبيل التجديد. كقول جبران جبران « ماذا تطلبون من الحياة يا بني امّي ؟ ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم تعد تحسبكم من ابنائها . ارواحكم تنتفض في مقابض الكهّان والمشعوذين واجسادكم ترتجف بين انياب الطغاة والسفّاحين . فماذا ترجون من وقوفكم امام الشمس ؟ »[٣]. واكثر منه تحمّساً وتطرّفا قول احد شعراء العراق[٤]

ورجال الاديان اصنام شركٍ باسم تدليسها المسخّر تُعبَدْ
بعث الدين للوئام بشيراً فاستغلّوه للخصام المؤبّد
واراد الاله بالخلق يُسراً فابادوه بالعناد المشدّد

ومثل هذين القولين كثير شائع في مطلع قرننا الحالي وما يليه[٥]. واكثره من باب التعميم العاطفي الذي لا يصحّ تطبيقه على جميع الرؤساء وقد عُرف منهم كثيرون من الساعين في سبيل الحياة الفضلى والخير العام. على انه يشير الى ثورة فكرية

---

(١) للاطلاع على شيء من روح ذلك العصر راجع ما كان بين بطرس كرامه وصالح التميمي في مجلة الزهور ١ - ١٨٨ - وما كان بين اليازجي والابياري في النبذة الاولى من ديوان ناصيف اليازجي ٩٣ وما نشر من كتب ومقالات دينية جَدلية بين الطوائف المختلفة .

(٢) الجنان (١٨٧٠) ص ٦٧٦

(٣) العواصف ١٥

(٤) صالح بحر العلوم – ديوانه ٦٥ . راجع له اشدّ من ذلك ص ٧٧

(٥) واعنف من كل ما ذكر قول الريحاني في الريحانيات ٢ – ٤٣ حاملاً على الكهان ورجال الدين

اخذت تنتشر بين الطبقات العربيّة المستنيرة على نحو ما سبق من انتشارها في اوروبا . وكما نشأ في الغرب طبقة من ارباب الاقلام تدعو الى طرق جديدة في التفكير هكذا نشأ في البلدان العربيّة كتبة وشعراء يدعون الى ذلك ومعظمهم ممّن تاثر بالحضارة الغربية – كشبلي شميّل ويعقوب صروف وقاسم امين وولي الدين يكن وجبران وامين الريحاني وفرح انطون وطه حسين وحسين هيكل واحمد امين وميخايل نعيمه وسلامه موسى[1] وكثيرين سواهم من سترد اسماؤهم مع ما نستشهد به من اقوالهم . وانك ستجد فيهم المبدع والعادي والمعتدل والمتطرف والعميق والضحضاح . وهم بمجموعهم يمثّلون لنا الاتجاه الروحي العام في ادبنا الحديث . ومن مطالعة اقوالهم وغربلة افكارهم تتجلى لنا في النزعات الرئيسية التالية –

١ – مسايرة العلم الحديث

لم تكن حياتنا الفكرية حتى اواسط القرن الماضي قد تأثّرت تأثراً بيّناً بالنضال المحتدم في الغرب بين الطبيعيين والالهيين فظلّ التأمل الادبي محصوراً ضمن نطاق الايمان الموروث يستمدّ وحيه من الكتب السماوية ويعتبر العالم الروحي حقيقةً لا تقبل مناقشة ولا تحتاج الى برهان . فلما انتشر كتاب داروين في اصل الانواع واخذ مفكّرو الغرب يبحثون في نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي ان يبقى طويلًا بمعزلٍ عن هذه الموجة الفكرية العامّة . وهكذا قام فيه جماعة من الباحثين الذين أُخذوا بهذه النظريات فاقبلوا على اقوال داروين وسواه من دعاة التطور الطبيعي فدرسوها ثم نشروها باللغة العربية فكانت مثاراً لصراع عنيف اشترك فيه نخبة من كتاب العربية[2] . منهم من وقف في صف المدافعين عن الايمان والنصوص الدينية كابرهيم الحوراني . وفي

(١) يمثل فكرة التجدد المقالات التالية لسلامه موسى الدين والتطور ـ الهلال ٣٤–١٣ – الشباب وناموس التحول ـ الهلال ٣٤ – ٣٥١ – الحضارة الجديدة ـ الهلال ٣٦ – ٦٩٠

(٢) راجع مثلًا المقتطف ٨ ص ٧١٢–٧١٩ – والمقتطف ٩–٧٠٤ – ومجلة الزهور ١–١٢٦

وقفاته يستند الى المنطق اللاهوتي حينا والى الادلة الخطابية حينا آخر[١] ويتجلى لك موقفه في القصيدة التي رثى بها الشيخ ابرهيم اليازجي حيث يتناول مسألة الخلود ويغمز من قناة اهل الشك والجحود فيقول[٢] —

يا ذا اليقين غداً اراك فما بنى   اهلُ الشكوك علي سوى المتزعزعِ
قالوا الممات من الحياة وما دروا   ان الحياة من الممات المفجع
انّ الخلود حقيقة ازليّةٌ   نفيُ النُّفاة لها هباءٌ زعزعِ
لم ينفها العلم الحديث وأثبتت   في مجمع العلم القديم الُمجمع

ومن امثلة الدفاع عن المبدأ الالهي كتاب « على اطلال المادية » لفريد وجدي. فالماديّون عنده ضالون يبنون احكامهم على افتراضات واهية . وهم على حدّ قوله[٣] « يدّعون انهم تحرّروا من ربقة الايمان بالغيب وما دروا انهم وضعوا في اعناقهم اغلالاً من الايمان بالطبيعة ينوؤن بحملها وفي ارجلهم قيوداً يرسفون في سلاسلها . وزعموا انهم ترّفعوا عن القول باله ٍ خلق العالم بقدرته وادارته وما علموا انهم تسفّلوا الى القول بالهيّة المادّة . ونحلوها بخيالاتهم من القوى والقُدَر ما لا يمكن تحقيقه بحجّة ناهضة ولا يتأتى شهوده بتجربة ٍ حاسمة . » وقد راج مثل هذا الدفاع في اوائل القرن الحاضر ولم تنقطع المناقشات الجدلية في حقيقة الانسان والوجود حتى وقتنا الحاضر . على ان العلم لا ينقضه غير العلم ومذهب داروين لا يحقّقه او يفنّده اقوال الخطباء والبيانيين . « فكما ان المسائل الفقهية » يقول يعقوب صروف[٤] « لا تحل بالبراهين الهندسية ولا القضايا الفلكية بالقواعد النحوية هكذا مذهب داروين لا ينقض بالبراهين اللاهوتية ولا بالاقيسة الشعرية والنكت البيانية »[٥]

---

(١) راجع كتابه « حق اليقين في الرد على بُطل دروين » . وفصوله المعروفة بالرُّقم في النشرة الاسبوعية السنتين ١٩٠٢ و١٩٠٨

(٢) راجعها في المورد الصافي ٢ — ٧٣

(٣) كتاب احسن ما كتبت (دار الهلال) ١٩

(٤) المقتطف ١٠ — ٣٩١

(٥) راجع من الاقيسة الشعرية قصيدة خواطر في العلم لمحمد الحليوي (الرسالة مصر) ٣ - ٨٢٧

ومما لا شكّ فيه ان النضال الروحي قديم العهود عند الامم . ومهما يكن تاريخه فالواقع انه قد احدث في ادبنا الحديث هزّةً عنيفة تزعزعت من جرائها تقاليد وتطوّرت معتقدات . ويصف هذا التطوّر علي عبدالرزاق في مقال له موضوعه « الدين واثره في حضارة مصر الحديثة . »[1] حيث يحاول ان يرجع سببه الى اتّصال الشرق بالحضارة الاوروبية ذلك الاتصال الذي نجم عنه جيل جديد من الناس ونوع جديد من الثقافة – يقول – « نشأت مع هذا الجيل الجديد وتلك الحضارة الحديثة ظروف وتطوّرات اجتماعية كان لا بدّ ان تتأثر بها الحياة الدينية في مصر . وقد تأثرت بها الحياة فعلاً فكان من ذلك ما رايتم من الخلاف الشديد بيننا وبين اجدادنا في مظاهر الحياة الدينية ومناهجها »

على ان هذا الكاتب المفكر لا يرى ان هذه التغيرات تتصل بجوهر الدين (الاسلام) او انها تؤثر في اركانه وقواعده . بل بالعكس هي ناشئة عن روح حية متجددة تحاول ان تحرر الدين من كل ما يعوقه عن التقدم .

وهذه النظرة التجدّدية في الدين تحارب من جهة النزعة المادية التي كان يدعو اليها في ادبنا الدكتور شبلي شميّل ومن ذهب مذهبه . ومن جهة اخرى تأبى التقيد بقيود الجمود التقليدي الذي يحول دون النموّ الروحي والذي لا يحسب حسابا للتفكير العقلي الصحيح . ومن رجالها الذين احدثوا اثراً يذكر في الفكر العربي الحديث جمال الدين الافغاني[2] . والشيخ محمد عبده[3] وعبدالله فكري[4] وغيرهم ممّن مرّ ذكرهم في اول هذا الفصل .

فالعلم لم يهدم الدين ولكنه كما قال بعضهم نقله الى ميدان آخر[5] . فنشأ عن ذلك ادب روحي جديد – ادب يقف خاشعاً لدى النظام الازلي مقدساً للقيم الالهية التي هي مثل الانسانيّة العليا . واذا كان اساس تقدمه الحرية المطلقة

(١) راجعه في كتاب حضارة مصر الحديثة (مصر ١٩٣٣) ١٥١

(٢) راجع خاطرات الافغاني للمخزومي (١٩٣١) ١١١ و ١٨٥

(٣) راجع مقال الدين والفلسفة في المقتطف ١٠٥ ومجلة الطريق مج ٢ ج ١٧ ص ٢٠

(٤) المقتطف ١ – ٢١٧

(٥) الرسالة (مصر) ٤ – ٩١٣

التي يرى طه حسين انها « تعلو به عن ان يعتبر علما دينياً او وسيلة دينية[١]. والتي تدعو الى التساهل وطلب الحق رافضةً ما يغلّ العقل عن التقدم فليس ذلك عن طريق الالحاد كما قد يتبادر الى الذهن بل عن طريق الايمان المبنيّ على اشرف ما اختبره البشر في تطوّرهم . « فلا شيء » يقول يعقوب صروف[٢] « افسد من هذا الوهم ولا اقبح منه تهمة على العلم لان العلم والكفر مستقّلان كل الاستقلال، فكم عالم من اشدّ الناس تديّناً وكم كافر يجهل مبادىء العلم».

على هذا الاساس يحاول المفكّرون ان يوجّهوا الادب العربي الجديد . فمنهم من يرى في العلم والدين والفن ثالوثاً على انسجام عناصره المذكورة واندماجها تقوم سعادة الانسان[٣]

ومنهم من يوازن بين نظريات العلماء في الاخلاق الانسانية العالية ويخلص من هذه الموازنة الى القول ان مصدر الاخلاق ليس بيولوجياً او اجتماعياً كما يذهب بعض العلماء ولكنّه راجع الى ذلك النّبل الروحي المتأصّل في طبيعة الانسان الذي يستمدّ حياته من حياة علوية مجهولة ابدية خالدة هي اصل الكمال كله والذي ما يفتأ يغري البشرية بالتطلع اليه والاندماج فيه[٤] .

ومنهم من يرى ان تطوّرنا العلمي سيزيد شوقنا الى معرفة صلة الانسان بالكون كله ، وسيثير شعورنا بهذه الوحدة الروحية التي صبا الانسان منذ بدء حياته الى الاحاطة بها . وبمقدار اتصالنا بالكون ستنفسح دائرة علمنا الوجداني وبالتالي سنرى لزاماً علينا ان نعيد نظام حياتنا على اساس هذا الاتصال وذلك العلم، وستكون تلك هي المدنية الحقة . وعلى اساس تنظيم العمل ان الغرب قد انصرف الى بناء العمران المادّي فليس من ريب ان يكون الوقت قد آن لتلقي المقادير على كاهل الشرق حظّه من تقسيم العمل لتنظيم وحدة الكون

---

(١) في الادب الجاهلي (١٩٢٧) ٥٦

(٢) المقتطف ٧ — ٥٦٥

(٣) امير بقطر في الهلال ٤١ — ٣٦

(٤) راجع مقال ابرهيم المصري (بين العلم والدين) الهلال ٣٦ — ١١١٩

على الاساس الذي آمن به الشرق دائماً والذي تتابعت وسائل الوحي فيه على رسله وانبيائه[١] .

وصفوة القول ان الادب العربي الحديث قد تأثر تأثراً عميقاً بالنظريات العلمية الجديدة ولم يرَ مندوحةً عن مسايرة العلم والخروج في ميدان التفكير عمّا ألفه الادب القديم . على ان مسايرته العلم لم تطوّح به في مهامه المادّية بل فتحت امامه آفاقا جديدة من الايمان وانارت له سُبلا لم يعرفها من قبل لادراك وجوده وعلاقته بالحق الاعلى وباخيه الانسان[٢] .

٢ ــ الايمان بقيمة الحياة

ممّا لا ينكر ان في ادبنا الحديث ما يدلّ على تأثره بروح ابي العلاء المعرّي . وللروح العلائية ظاهرتان رئيسيتان . احداهما الاستسلام للتشاؤم حتى لا ترى في الوجود غير الشقاء . والثانية الاعتماد على العقل دون سواه في نظرنا الى الحياة . اما التشاؤم فلا نرى اليوم من يتخذه مذهباً كما اتخذه المعري في لزومياته ولكنه يظهر من آن الى آخر في حياة البعض منا فتصطبغ به بعض اقوالهم كقول الرصافي مثلاً

ارى الخير في الاحياء ومض سحابة بدا خلباً والشرّ ضربة لازمِ
جهلت كجهل الناس حكمة خالق على الخلق طرّاً بالتعاسة حاكمِ[٣]

وسنرى بعد لغير هذا الشاعر ما يرجع الى هذه النزعة العاطفيّة . وقد يكون للطريقة الرومانتيكية التي حلّت محل الكلاسيكية في مطلع هذا القرن والتي تستعذب الالم الوجداني يدٌ في تقويتها عند بعض ادبائنا .

واما النظر العقلي فقد رأينا آنفاً انه نزعة عامّة في الادب الحديث ولا

---

(١) بتصرف عن مقال لمحمد حسين هيكل الهلال ٤٢ – ٣٩٧

(٢) راجع بهذا المعنى مقالا لسلامه موسى في الهلال ٣٥ – ٨١٣ وراجع ايضاً مقال الشيخ عبدالرازق في مجلة المكشوف ٥ع٢٠٥

(٣) ديوانه (١٩٣١) ١٦٤

نعتقد انه يرجع الى تاثير المعرّي بقدر رجوعه الى استنارة الاذهان بنور العلم وتشبع النفوس من روح الحضارة الجديدة .

وبرغم ما نلمسه من اثر التشاؤم العلائي في ادبنا الحديث فالواقع ان التفكير الادبي الحديث يتجه في طريق اخرى وهي الايمان بعظمة الحياة وقدر قيمتها[١]

واذا كانت النزعة الروحية في القرون الوسطى قائمة على توجيه النفس الى العالم الآخر والتماس السعادة عن طريق امتهان الجسد ورغائب النفس ، والى تحقير الطبيعة البشرّية على انها دنسة غير قابلة للاصلاح فان بين ادباء هذا العصر نزعةً تكاد تكون معاكسة لتلك . فقد حوّل الزمان اهتمامهم الى الحياة الحاضرة ورفع في اعينهم قدر الانسان والقى على الوجود المادّي مسحةً من الجمال يعكسها لنا كثيرٌ من اقوالهم . حتى الذين نراهم احيانا ينفثون نفثات التشاؤم العلائي يجارون المتفائلين في هذا الامر ويؤمنون ايمانهم بقابليّة الانسان للسير في طريق التقدم .

هناك شيء نسمّيه الحياة الكريمة وهي في الادب الجديد ممكنة فليس الوجود مجرّد عبث او شقاء وفساد بل هو امر جدّي له معناه وله قيمته .

فمنهم من يرى ادراك هذه القيمة بواسطة الجهاد المستمرّ . وعلى ذلك قول عبدالرحمن شكري[٢] —

أنضُ عنك الحذار من حدَث الدهر فليس الحذار يُغني فتيلا
انما العيش ان تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلا

وقد يتخذ الجهاد شكل التمرّد على القديم البالي . وهنا تتجلّى لنا روح جبران جبران ومدرسته . فهو يدعو الى تحطيم كل قيد يعوق الانسان عن النموّ نحو الافضل . ان الشقاء عنده هو وليد العبودية — يقول[٣] — انما الحياة عزم يرافق

(١) مما يذكر هنا انه في سنة ١٩٤٧ ظهر ديوان سماه ناظمه احمد مخيمر «اللزوميات» وقد عارض فيه لزوميات المعري بتفاؤل واقبال على الحياة وايمان بالخلود

(٢) ديوانه ج ٣ — ٤

(٣) راجع مقاله « يا بني امي » في العواصف (١٩٥٠) ٣٨

الشبيبة وجّد يلاحق الكهولة وحكمة تتبع الشيخوخة . اما انتم يا بني امّي فقد ولدتم شيوخاً عاجزين ثمّ صغرت رؤوسكم وتقلّصت جلودكم فصرتم اطفالاً تتقلّبون على الاوحال وتترامون بالحجارة » هذا ما يقرّره متألماً ثم يصيح بالناس

« فلنتمرد على كل ما يجعلنا عاجزين ولنسر الى الامام بقلوب ملؤها العزم واليقين . نحن ابناء الآلهة ، كنّا بالامس أُلعوبة بيد القضاء فاصبحنا نقوده فينقاد. كنا نخضع ونلوي رقابنا امام السلاطين فصرنا لا ننحني الا للحق ولا نتبع غير الجمال . كنا نحرق نفسنا امام الاصنام فصرنا لا نحرق بخوراً الا لانفسنا لان اعظم الالهة قد جعل هيكله في صدورنا »

والتمرّد في عرف جبران هو الخروج عن الذات الى ما هو اعزّ واسمى . لان في هذا الخروج مهما كانت عواقبه ما يتمّم قصد الحياة فينا . وذلك ما يرمي اليه في حديث « البنفسجة الطموحة »(١) حيث يرينا في الحديقة بنفسجة وضيعة كانت دوماً تشتهي ان تتحوّل الى وردة زاهية شامخة الراس . ورات الطبيعة ان تتمّ لها هذه الرغبة . ولكن ما كادت تصبح وردة تزهى بجمالها وسموّها حتى هبّت عاصفة شديدة نثرت اوراقها وحملت الموت الى عروقها . على ان ما اصابها لم يجعلها تندم على تركها حياة البنفسج الوضيع الآمن اذ ادركت بذلك ان حقيقة الحياة انما هي ترك القديم والتحوّل الى الجديد . وهاك ما يضعه الكاتب على لسانها — « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود . وما زلت اتمرّد على نفسي واتشوّق الى ما ليس لي حتى انقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة . فطلبت الى الطبيعة ان تحوّلني الى وردة ففعلت ». وتجري على هذا النحو الى ان تقول — « انا اموت الان — اموت وفي نفسي ما لم تكنّه نفس بنفسجة من قبلي . اموت وانا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدتُ فيه . وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الغرض الكائن وراء عرضيّات الايام والليالي . »

وقد تجد بين ادبائنا من يرى في البنفسجة وتمردها غير ما رآه جبران فيقول مثلاً مع الشاعر(٢) —

(١) راجعه في العواصف ١٧٧

(٢) الدكتور فياض في مجلة الزهور ٣ — ٢٦٠

مسكينةٌ قد غرّها تَرفٌ هو كالسراب لكلّ مغترِ
ظنّت بان لها العلاء غنى فاذا به فقرٌ على فقر

ولكن هذه الفكرة لا تمثل الاتجاه الروحي الجديد كما تمثله الفكرة الاولى التي قد اصبحت شائعة يكاد لا ينجو من تأثيرها قطر مهما نأى عن مركز النهضة الادبية . ففي الحجاز نسمع الشاعر احمد قنديل يقول[1] —

ان الحياة تدافع وتسارع والموت في لونيه شيمتُه الركودْ
لم يدر الوان الحياة وطعمها من بات منزوياً يرافقه الجمودْ
يخشى التمرّدَ والتمرّدُ لم يزل باباً الى طرق المفيد من الجديد

وفي تونس يُنطق ابو القاسم الشابّي الارض فتقول[2] —
ابارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذّ ركوب الخطرْ
وألعن من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجرْ
اذا طمحتْ للحياة النفوس فلا بدّ ان يستجيب القَدر

وتشترك جميع الاقطار العربية في هذه النزعة التقدّمية المشبعة بالايمان

. . .

ومن لوازم الايمان بقيمة الحياة هذا التفاؤل المتزن الذي يقينا من جهةٍ مغبّة السقوط في مهاوي القنوط ومن جهة اخرى يساعدنا على تأويل الواقع تأويلًا رضيّاً . على ان فكرة الرضى في الادب الحديث هي غير فكرة الرضى عند بعض القدماء .

فالشاعر الجاهلي طرفة مثلًا يرى الحياة « كنزا ناقصاً كل ليلة . » ولكنه يرضى بهذا الكنز لينفقه في سبيل لذاته .

ولولا ثلاثٌ هنّ من لذّة الفتى وربّك لم احفل متى قام عوّدي[3]

وهذه الثلاث هي الخمر والنساء وركوب الخيل . وكذلك رضى ابي نواس اذ يقول :

---

(١) كتاب وحي الصحراء (١٣٥٥هـ) ١٢٤
(٢) الهلال ٤٣ — ٣٠٢
(٣) راجع معلقته شرح الزوزني

رايت الليالي مرصدات لمدّتي　　فبادرت لذّاتي مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكاس وشادن　　تحيّر في تفصيله فطِن الفكر[١]

وليس في رضى هذين الشاعرين واضرابهما شيء من الايمان بقيمة الحياة بل هو بالعكس استهتار بها وازدراء لها . ومن هذا الباب رضى الزّهاد والنسّاك الذين يتجنبون خوض الحياة لانها في نظرهم عرض زائل لا يستحق عناء الجهاد بل لم توجد الا كممر لدار المعاد .

اما في الادب الجديد فالرضى قائم على الاعتقاد باسباب الرقي ونظام التطور الازلي . فما لذة الحياة ان نغمرها بالمخدّرات او ننفقها جزافاً في سبيل الشهوات . ولا ان نتهرب منها فنقبع حيث نكون بنجوة من همومها ومصاعبها . تلك فكرة تشاؤمية قديمة اصبحت الآن تتراجع امام فكرة اخرى هي ان نرضى بالواقع على انه سلم لما هو افضل فنجابهه غير وجلين واثقين انه بالتغلب على الصعاب يتم لنا ما ننشد من نموّ وسعادة .

والى هذا يشير الشاعر المهجري نسيب عريضه اذ يقول من قصيدة[٢]

يا اخي يا اخي . المصاعب شتى　　وبعيدٌ مُرادنــا والمواردْ
فلنسر في الظلام في القفر في الوحشة في الويل — في طريق المجاهدْ
فلنسر أعزلــين الا من الحق سلاحاً ، والفكرُ هادٍ وقائد
فكفانا انّا ابتدأنا وانّا　　ان عجزنا فقد بـدانا نشاهد

وقريب من هذا قول حسين محمود البشبيشي[٣]

خذ من حيــاتك ما ترى　　ودع المذاهب لــلورى
مر في طريقــك واثباً　　تجتــاح آفــاق الذرى

فما الحياة الا ما تتحرك به نفسك وما تدركه بارادتك

وحياة يومك بنت فكرك　　بنت روحــك والشعور
فدع المخــاوف وانطلق　　فالعمر وثّاب المسير

(١) ديوانه (المطبعة الرشيدية) ٢٢٣
(٢) راجعها في ديوانه الارواح الحائرة (١٩٤٦) ١١١
(٣) الثقافة ٩ ع ٤٥٨ ص ٣

فالسير المتواصل في سبيل الحق والنور هو الكفيل بان يروي ظمأ نفوسنا. نعم اننا مهما حاولنـا ومهما جاهدنا فلن نصل الى آخر الطريق – الى هدف الاهداف الاقصى . ولكن الوجود يفقد معناه دون السعي والاقدام ودون الرضى بمجابهة الايام .

ومن الانصاف ان نقول ان في ادباء العصر من ينظر الى الحياة نظرة ابي العتاهية فلا يرى فيها الا الخراب والتّباب والمصير المحتم الى التراب . ولكن النزعة الجديدة غير ذلك، فان للحياة برغم نوائبها وغيرها جانباً وضّاء يستهوي الادب الحديث . وقد حاول مصطفى صادق الرافعي ان يرسمه لنا في قصيدته « الهموم » فقال في التوطئة لها[1] – تتدّفق حياة الانسان بين شاطئين يمتدّان من غياهب الماضي الى غيب المستقبل . احدهما شاطىء الانسانيّة والآخر شاطىء من رحمة الله . وبينهما تجري الحياة الى غايتها متغيّرة متدافعة متجدّدة لا تثبت منها قطرة على قطرة . متى قرّر الانسان ذلك في قلبه عرف ان ما يُلمّ به من اكدار الحياة انما هو سبب من اسباب الحياة وان هذه الاكدار يحملها عنه النهر فيما يحمل »

ويرى احدهم انّ الهموم والبلايا هي سبيل الرقي والحياة[2] –

كان الفكر العام عند القدماء ان الحياة الارضيّة ناقصة ولذلك فهي ستظلّ شقيّة حتى تصل الى الكمال في العالم الثاني . على ان الفكر العـام اليوم ان الحياة ليست ناقصة وشرّيرة وبالتـالي شقيّة بل انها متطوّرة والتطوّر اساس جمالها وسعادتها . وما على الانسان الا ان يجاري ناموس التطوّر وان يستقبل الحياة مستبشراً مؤمناً بانه يستطيع ان يجد فيها اسباب الكمال والجمال . والى هذا يشير باحث اذ يوازن بين نظر القدماء ونظر المحدثين في قوله[3] – « هم حسبوا الكمال مستحيلاً على الارض ونحن نحسب اننا على طريق الكمال . هم عدوّا التنـافر بين مصلحة الانسان ومحيطه من نواميس الطبيعة التي لا يطرأ

---

(١) المقتطف ٨٣ – ٣٨٥

(٢) راجع قصيدة انشودة السلوان في الثقافة مج ١٠ ع ٤٨٥

(٣) من مقال لموسى ناصر موضوعه الى الكمال – المقتطف ٤٥ – ٦٠

عليها تغيير . ونحن لا نعدّ هذا التنافر الا عَرَضيّاً لا بدّ من زواله في المستقبل. هم توّهموا الحياة السعيدة بعد الموت . اما نحن فنسعى لجعل حياتنا سعيدة على الارض قبل الموت . هم حسبوا الشرّ من طبيعة الانسان ونحن نحسبه نتيجة عدم التآلف بين الانسان ومحيطه . ومتى حصل هذا التآلف فلا نعود نسمع بالشرّ .»

وتتضح هذه النزعة في قصيدتي ايليا ابو ماضي « فلسفة الحياة »[١] « والغبطة »[٢] وفلسفة الحياة عنده انها جميلة ولكنّ جمالها لا يدركه الا ذوو النفوس الجميلة فشرُّ النفوس واشقاها من يلتفت الى الورد فلا ترى فيه الا الاشواك . واسعدها من ترى ما حولها بعين الرضى فتُسرّ وتَسرّ الاخرين – يقول

والذي نفسهُ بغير جمال   لا يرى في الحياة شيئاً جميلا
ليس اشقى ممّن يرى العيش مُرّاً   ويظنّ اللذّات فيه فضولا
أحكمُ الناس في الحياة أُناس   علّلوها فاحسنوا التعليلا

وفي هذه القصيدة يخاطب الانسان قائلا له – كن كالنهر المغرّد لا غراباً يطارد الدود في الارض وبوماً في الليل يبكي الطّلولا

كن غديراً يجري فيروي الحقول ويُنعش النفوس –

لا وعاء يُقيّدُ الماء حتى   تستحيل المياه فيه وحولا

كن نسمة الفجر وكوكب الليل لا ريح السّموم وداجي الظلام . وهكذا يستمر الشاعر في نصحه حتى يختم القصيدة بقوله –

ايّهاذا الشاكي وما بك داء   كن جميلًا تر الوجود جميلا

. . .

والحياة فوق ذلك ذات منطق رائع وان كنّا لا نفهمه احيانا . ويعبّر عن ذلك احمد امين في مقال له موضوعه « ما نعلم وما لا نعلم »[٣] – « وقد دلتنا الدلائل كلها على ان العالم خاضع للمنطق وان له غرضاً يسير اليه وليس

---

(١) المورد الصافي ١٦ ص ٢٩٦ ومطلعها ايّهاذا الشاكي وما بك داء –

(٢) الخمائل ٩٧ وراجع ايضا قصيدته « ابتسم » ص ٣٧

(٣) فيض الخاطر ج ١ ص ٢١١

يسير حسبما اتفق » الى ان يقول متمثلا بحياة العلماء — « فحياة الكفاح العلمي التي يحياها العلماء الذّ حياة عُرفت بل لا اظنّ ان حياة العلماء تكون سعيدة لو انّ كلّ شيء انكشف لهم من غير بحث ومن غير عناء . فالقليل ينال بعد التعب خير من كثير ينال من غير نصب . وما الذّ منظر العالِم يحار ثم يحار ويدور حول الشيء ويدور . ويتجه يميناً فلا يُفلح ثم يتجه يساراً فلا يُفلح حتى يُعمّى عليه الامر . ثم يبدأ بالبحث مرّة اخرى لا يكلّ ولا يمل . واخيراً يدرك منه الشيء القليل فيغتبط به الاغتبـــاط العظيم ويرى الدنيا بحذافيرها ولذّاتها وسعادتها لا تساوي شيئاً بجانب ما ناله من المعرفة ولو بالشيء القليل بعد الجهد . »

وليس الكون اضغاث احلام او فوضى دون نظام، بل هو حركة تجدّدية ذات غرض يبعث على الاستبشار ويملأ النفس بالجمال . حركة يصفها مخايل نعيمه بقوله[١] — من الجهل الى المعرفة من الخير والشرّ الى ما فوق الخير والشرّ، من الجزئيات الى الكليّات، من الحق الذي لا يقوم بغير القوّة الى القوّة التي لا تقوم بغير الحق، من الغريزة المخلوقة العمياء الى الارادة الخلّاقة المبصرة

ومثل هذا الوصف تجده في فصل لاحمد امين موضوعه « غاية العالم » يقول فيه — « وتاريخ الانسانية من بدئها الى الآن ليس الا مراحل للتقدم الى الامام » . والذي ينظر اليه نظرة شاملة يرى « انه يسير الى الامام دائماً وانه على حد قول ارسطو يسير نحو تحقيق العقل »[٢]

والمهمّ ان يدرك الانسان جمال النظام الكوني فيسعى لاتمام التآلف بينه وبين نفسه . وقد يتم له ذلك بان يقابل الواقع بنفس خـيّرة تتغلّب على انانيتها بمساعدة الآخرين على رؤية الجانب الوضاء من الحياة . ولعلّ هذا ما يقصد اليه العقّاد بقوله[٣] —

شكوتُ من بعض الحياة الاذى   وما لها عندي شكاةٌ تشين

---

(١) راجع مقاله « في موكب التجدد » — كتابه النور والديجور (بيروت ١٩٤٧-٤٩) ١٦٩
(٢) راجع المقال في مجلة الثقافة (مصر) ٣ ع ١٢٩ ص ٦
(٣) ديوانه عابر سبيل (١٩٣٧) ١٠٦

ان التوَ منها الشرَّ لقيتُها خيراً وان خانت فاني الامين

وهنا لا بدّ لنا من القول ان فكرة الخير قديمة في كل ادب وعند كل الامم . وطالما كان الانبياء والحكماء حريصين على الدعوة اليها والعمل في سبيلها. على ان لها في الادب الحديث صبغة خاصّة . فقد كانت قديماً مقترنة بغاية دينيّة هي ارضاء الآلهة طمعاً بثواب الآخرة . اما اليوم فالدافع اليها انسانيّ محض. هو الطمع بالحياة نفسها – بل هو الايمان ان وجودنا الارضي هو الوجود الهامّ وان قيمة هذا الوجود اعزُّ من ان نعتبره زائلًا لا خير منه . واذن لم يبق لنا الا ان نرضاه ونكافح مصاعبه لنتقدّم نحو الافضل . وأن نساعد الآخرين في كفاحهم لان في ظفرهم ظفراً روحيّاً لنا وسعادة لا ننالها باليأس والانكماش على الذات .

ولا ينكر ان توالي المحن السياسية على الشرق العربي وما نشأ فيه منذ نهاية الحرب العالمية الاولى من صراع بين الروح القومية والقوى المستعمرة، وخصوصاً بعد التوسّع الصهيوني في فلسطين، قد اثار في الادب العربي موجة من السخط والتشاؤم مما اضعف الايمان بالعدل الانساني وحدا كثيرين الى التماس الخير عن طريق القوى المادّية . لكن ذلك لم يرجع الادب العربي الى سبيل القدماء الذين كانوا عقب النكبات يلجأون الى ما وراء الطبيعة بل زاده تحوّلاً الى هذه الحياة وتوخّي ما يعزّزها ويستغلّ القوى الكامنة فيها .

٣ ـ التفسير اللاتقليدي للغيبيات

ان الادب اليوم – وقد انصرف كما راينا الى الحياة الحاضرة ـ اصبح قليل الوقوف امام العالم الثاني . وهو اذا وقف لا ينظر اليه بنفس العين التي ينظر بها من يعتقد بظواهر النصوص المنزلة ـ هناك اتّجاه الى تفسير الغيبيّات تفسيراً روحيّاً معقولا يزعم اصحابه انهم يتخلّصون به من الجدليّات الكلامية العقيمة والنظريات اللاهوتية القديمة، وهكذا يوجّهون النفس في سبل الحيـاة الفضلى . ولنمثـل على ذلك بتصوير بعض المجدّدين لطبيعة الله وصفاته ـ فنقول

ان الله لا يزال له في حياتنا الادبية المقام الاسنى . وبرغم الالحاد الذي اخذ يشيع مع بعض المذاهب الاقتصادية ترى الادب العربي عموماً اميل الى الاعتقاد بقوّة عليا توّجه البشرية للامام وتهدي خطاهم وسط الظلام . يقول عباس العقاد في ختام كتابه « الله » — « وخاتمة المطاف ان الحسّ والعقل والوعي والبديهة جميعاً تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الايمان بالذات الالهية، وأن هذا الايمان هو خير تفسير لسرّ الخليقة بفعله المؤمن ويدين به المفكّر وبتطلبه العقل السليم » . ومثل ذلك ما نراه من اقوال اكثر الكتبة في هذا القرن[١] .

ولا يقصّر الشعر في تبيان عظمة الله وعجز الانسان عن ادراكها — كقول احدهم

حارت عقول الباحثين وقصّرت وسواك كلٌ عاجزٌ ومقصّرُ
لم يعثروا الا بما اوحيته وأذعنه لهمُ ولمّا يعثروا[٢]

وقول الآخر في الانسان الذي لا يدرك نفسه ويحاول ان يدرك خالقه بواسطة العلم

لم يدرِ من هو وهو يطمع باحثاً بالعلم فيمن عاش في آلائه
وارى العقول تعود بعد جهادها للعلم بالخلّاق عودة تائه[٣]

وفي الشعر الحديث كثير من مثل هذه الخواطر[٤]

على ان ادبنا الجديد يشهد اليوم بعض التطور في تفسير الطبيعة الالهية . فجبران يتحدث عن الله كضمير العالم ويسمّي اقانيمه الثلاثة — الحب والتمرّد

---

(١) راجع مثلا قول جرجي زيدان في الهلال مج ١٥ — ٩٥ ومج ٤٥ — ٥١٩ وقول الطنطاوي في الرسالة (مصر) ٦ — ٩

(٢) ديوان مسعود سماحه ٧٦

(٣) ديوان خيرالدين الزركلي ٥٤

(٤) راجع مثلاً قول اسماعيل صبري في ديوانه ١٩٤ — وقصيدة « الله » لشوقي في ديوانه وفي الهلال ٣٢ — ٧٨٨ — وقصيدة لفواد الخطيب في المقتطف ٧٢ — ٥١٤ — وقصيدة«الله»لمحمد البيومي في الثقافة ١٠ ع ٥٢١

والحرية[١] . وابو ماضي يجعله – الفكر المبدع والشعور الفياض[٢] . ويناجي امين الريحاني الله قائلاً – « انك الهي ولا اله الاك » . فيجيب الله « اني نبض الحياة وروح الحب فيك ونور الحكمة . كن عليها اميناً ذهي الالوهية ديناً ويقيناً»[٣] . وانك لتلمس الصوفية بل الحلولية في قول مخايل نعيمه – « ما كان الانبياء ليعرفوا الله لو لم يكن الله فيهم لانه يستحيل على الانسان ان يدرك ما كان خارجاً عن نطاق وجوده . ولو لم يكن الانبيـــاء واثقين من وجود الله في كل انسان لكان اقلّ سخافةً ان يكرزوا بالله على الحجر منه على خلائق خالية من الله . انما النور وحده يفهم النور ، واللامتناهي يستوعب اللامتناهي انما الله وحده يستطيع ان يعرف الله – هو الكائن في الانبياء الذي عرف وكشف اله الانبيـاء – هو ذلك الاله نفسه الكائن في كل انسان الذي في قدرته ان يعرف الله في كل شيء وفي كل انسان . »[٤]

تلك نزعة جديدة في ادبنا الروحي ، واصحابها لا يتعرّضون نفياً او اثباتاً لما يقرّره الايمان من حقيقة « ذاتية » الهية وراء الكون ولكنهم لا يجعلون ذلك نقطة ارتكاز لحملاتهم العنيفة على المادّية في حياة البشر .

وكذلك موقفهم من النفس البشرية وحالها بعد مفارقة الجسد والنفس اكثر تعرّضاً في الادب الحديث لسهام المشككين او اللاأدريين . فمن الادباء من يذهب فيها مذهب ابن سينا في قصيدته « هبطت اليك من المحل الارفع » فيتخيّلها روحاً كانت عند الخالق ثم هبطت ودخلت جسم الانسان – كشوقي في قصيدته «ضمّي قناعك يا سعاد او ارفعي» – وفيها يقول –[٥]

يا نفس مثل الشمس انت اشعة في عامرٍ واشعّةٌ في بلقع
فاذا طوى الله النهار تراجعت شتّى الاشعّة فالتقت في المرجع

(١) المواصف ٩٦ . راجع ايضاً قوله في الهلال ٤٢ – ٩١
(٢) المقتطف ٩١ – ٤٨
(٣) الريحانيات ٤ – ٤
(٤) زاد المعاد (١٩٣٦) ١٠٩ . ومثل هذه النزعة الصوفية قصيدة « انت » لبدر احمد–الثقافة ٩ ع ٤٣٧ ص ٢٣
(٥) نشر المقتطف هذه القصيدة مع قصيدة ابن سينا وعلق عليها في المجلد ٦٤ ص ٤

وعلى هذا النسق قصيدة لشاعر عصري آخر مطلعها « غدرت بكسرى في الزمان وتبّع »[١]

ومنها – يا نفسُ موطنك الخلود وانّما هذا القُدوم على رحيل مُزمع

على انّ منهم من يقف موقف الشك والحيرة فيتساءل مع الزهاوي –[٢]

يحرّك روحي الجسم وهي تحلّهُ فمن ذا لهذا الروح فيّ يحرّكُ ؟
وقبل وجودي اين كان مكانه فهذا هو الشيء الذي لست ادرك

وقد يحمل التشاؤم بعضهم الى درجة الجحود[٣] . ومنهم من يدفعه الشك الى عدم المبالاة بما وراء الحياة الدنيا فيدعون الى اغتنام المسرّات على طريقة عمر الخيام او ابي نواس[٤]، او الى تفضيل هذا الوجود وما فيه من حبّ وشقاء والم على خلوه لا نصيب فيه للشعور بل هو راحة لا غبطة فيها . وعلى ذلك ما وضعه شفيق المعلوف على لسان جنّية في عالم الارواح[٥] – ويجيءَ من يشبع فيّ النّهم

اكلّما استلقت على معصمي روحٌ فقرّبتُ اليها فمي
تملّصت ولم أقبّل ولم
اضمّ الا عدماً في عدم

ومثل هذا الشعور تلمسه في قصيدة لبدوي الجبل مطلعها « اطلّ من حرم الرؤيا » . وهي وان تعكس روح الشباب الظمآن الى الحياة تشير الى عدم ارتياح النفس لمصيرها بعد الموت – اليس الرائع في جنان الخلود كما نجده في القصيدة –

ينادم الحور لكن غير مغتبطٍ ويشرب الراح لكن غير ظمآن[٦]

---

(١) راجعها في المقتطف ١٠٠ – ٤٨٠ – وقصيدة لعادل الغضبان القاها في المهرجان الالفي لابن سينا في بغداد اذار ١٩٥٢

(٢) المكشوف (بيروت) ٤١ – ١٧١

(٣) راجع معارضة لقصيدتي ابن سينا وشوقي في المقتطف ٦٤ – ٢٦٢ . وراجع قصيدتي الصافي النجفي « الخلود المزيف » « والحرّية الخالدة » في ديوانه الامواج ٣٤ و١١٣

(٤) راجع قصيدة لامجد الطرابلسي في الرسالة (مصر) ٣ – ٧٤٨

(٥) عبقر (١٩٤٩) ١٧٣

(٦) راجعها في المكشوف ٢ ع ٧٧

على ان ما نجده في ادبنا الحديث من مثل هذا الشك او عدم الارتياح الى مصير النفس لا يحملنا على الحكم انه متجه نحو الالحاد والاقرب ان نقول انه انسانيّ يؤمن بالجمال الروحي الاسنى . فالغرض من وجود الانسان عنده ان ينمو في الحياة الفضلى .

وما الخطيئة الا ان نلهو او نتمسك بما يعيقنا عن هذا النموّ . اما الايمان الحقيقي فهو شعور الانسان بخشوع لدى القوّة الازلية التي تسيّر الوجود في سبيل الارتقاء ، منزّهاً عن التعصّب ، خاضعاً للحق ، متوخّياً كل نبيل وجميل في الحياة .

الالتفات الى المواضيع المعنوية – او التأمل في المجردات

ولا بدّ هنا من التمييز بين التأمّل الادبي والتأمّل الفلسفي وان كانا يستقيان من نبع واحد . فالفلسفي يتناول المجرّدات فيدقق النظر فيها ادراكاً لكنهها معتمداً في ذلك التحليل العقلي . اما الادبي فغايته التعبير عما تثيره هذه المجرّدات في النفس من خوالج وصور خيالية – الاول محلّل منطقي والثاني مصور خيالي.

والمواضيع المعنوية اكثر من ان يتسع المقام للاستشهاد بأثر كلٍّ منها في ادبنا الحديث . وهي على العموم نوعان – نوع يتعلّق بنظر الانسان في عالم الغيب واحواله وقد بسطنا الكلام على ذلك آنفاً . والنوع الثاني يدور حول الانسان ومجتمعه كالوطنية والمساواة والاخاء والحرية والشجاعة والتساهل والاستبداد والمحبّة وما الى ذلك من الصور الفكرية التي شاعت في الادب العصري حتى اصبحت من مميّزاته . وها نحن نوضح ما نقصد اليه بموضوعين يبرزان بروزا بيّناً في ادبنا الفكري – وهما الحقيقة والسعادة –

الحقيقة

ولا يراد بها هنا المعلومات الراهنة المستمدّة من التجارب العلمية والاختبارات الشخصية والادلة العقلية . فانما هذه جزئيات نتوصّل اليها ونتحققها بما لدينا من وسائل المعرفة . بل يراد بها حقيقة الحقائق وبكلمة اخرى الوجود المطلق او ناموس الحياة العام . وهو امر طالما شغل خواطر المفكرين . وفي ادبنا القديم اشارات كثيرة اليه كقول المتنبي :

ومن تفكّر في الدنيا ومهجته اقامه الفكر بين العجز والتعبِ[1]

او قول احد الاندلسيين :

برّح بي ان علـــوم الورى اثنان ما ان فيهما من مزيد
حقيقةٌ يعجز تحصيلهـــا وباطـــل تحصيله لا يفيد[2]

---

(١) من قصيدته « يا اخت خير اخ ما بنت خير اب » شرح العكبري ١ – ٥٧

(٢) مختارات من الشعر الاندلسي لنيكل (١٩٤٩) ١٨١

وفي ديوان اللزوميات للمعري خواطر كثيرة من هذا القبيل . على اننا قلما نصادف في الادب القديم ما نصادفه في الادب الحديث من نظر فكري متّصل ناجم عن الانصراف الى التأمّل في الحياة والانسان . خذ مثلاً جميل الزهاوي في قصيدته « حول الحقيقة »[1] حيث يشرح انا شغفه بها وتعطّشه الى وصالها فيقول :

حسناء ما قلمي الذي ارهفته ... عمراً لوصف جمالها بالكافي
الناس اعداء لها قد بالغوا ... في نقدها وانا الصديق الوافي
قد غرّني منها التبسّم ظاهراً ... حتى نسيتُ مكانتي ومطافي
فسألتُ ألحف وصلها فتبرمت ... بي للسؤال وغاظها إلحافي
وتباعدت عني ولم تنظر الى ... اسفي هناك ودمعي الذرّاف

وبعد ان يوالي وصفها على هذا النسق يذكر انها خفيّة لن تنجلي للانسان وهكذا يتراجع معترفاً بقصوره وعجزه عن ادراك كنهها الذي هو سرّ الطبيعة والوجود .

ما للطبيعة اوّلٌ او آخرٌ ... فكأنها بحرٌ بغير ضفافِ
والدهرُ لم يك غير نهرٍ هادرٍ ... والمرء ليس سوى حبابٍ طافِ
لا شيء الا والطبيعة امّه ... لكنّما كنه الطبيعة خافِ
ما لي بامر بدايتي ونهايتي ... وحقيقتي والكون علمٌ كافِ

ومثل هذه الخواطر تظهر في قصيدته « الشكّ لا يهدي »[2] حيث لا يدري ارشاده ضلال ام ضلاله رشاد، فيستعين بعقله ولكن « من اين يعطيني العقل ما ليس يملك » وكذلك قصيدته « ايتها السماء »[3] .

ويجري مجراه زميله معروف الرصافي وخصوصاً في قصيدته « من اين والى اين »[4]. حيث يحاول التفكير في الوجود فيتيه في مهامه يتخبّط فيها فكره تخبّط العشواء في الليل الدامس – يقول

(١) راجعها في ديوانه « اللباب » ٢٧٨
(٢) راجعها في الرسالة (مصر) ٤ – ٢٧
(٣) راجعها في مجلة المقتبس ١ – ٤٥٨
(٤) في ديوانه ٢٣ وفي مجلة المقتبس ٢ – ٢١٠

من اين – من اين يا ابتدائي ثم الى اين يا انتهائي
امن فناء الى وجودٍ ومن وجودٍ الى فناء
خرجتُ من ظلمةٍ لاخرى فما امامي وما ورائي ؟

وكأنه لا يرى مخرجاً من هذه الحيرة الا ان يتوكأ على قول بعضهم ان الكهرباء روح الوجود وحقيقته الخالدة . وهو ما يقوله الزهاوي ايضا في قصيدته « ايها العقل »[1] هذه الوقفة الحيرى وسط ظلام الحياة يقفها كثيرون من ادباء العصر[2] . وهي من اللاأدريّة العاطفيّة الشائعة

وكما تتحول هذه اللاأدرية عند البعض الى يأس يكاد يطفيء فيهم نور الايمان والرجاء تتحول عند البعض الآخر الى اندفاع نحو القوّة العليا رجاء الحصول على ما لم يستطع العقل بلوغه، كما التفت يعقوب صروف صارخاً[3] –

نور الخلائق مصدر النور الذي يهدي الكواكب في السماء مدارا
ان لم تُنر عقل ابن آدم لم يجدْ نور الهدى بل زاد عنك نفارا
ظُلَم ونور العقل قصّرعن هدى وبغير نورك لا يشيم منارا

ومثله محمد الفراتي اذ يصرخ الى القوّة العليا في قصيدته « بين العقل والقلب » طالباً ان تخلّصه من قيد عقله وممّا يقتضيه القياس والبرهان[4] .

اما عبدالرحمن شكري فيخطو خطوة اخرى اذ نجده في منظومته « الباحث الازلي »[5] جادّاً وراء ضالته المنشودة هائماً على غير هدى في التفتيش عما لا يدرك

(١) اللباب ٣٦٢
(٢) راجع مثلًا ما يلي – ديوان الزركلي ٧٨ – « لماذا» لسليم حيدر في ديوانه آفاق وفي مجلة الاديب ٣ ع ٧ – الانسان والوجود لسليم عنحوري في الهلال ١٤ – ١٦ – لغز الوجود لفوزي المعلوف في كتاب ذكرى المعلوف ١٥ – محراب الفكر لحسين البشبيشي المقتطف ١٠١ – ٥١ – امام طلسم الآباد لالياس قنصل المقتطف ٨٧ – ١٨٧ – ضحك الحزين لعثمان حلمي في الهلال ٢٩ – ١٩٩ – الجواب الصحيح لاحمد الصافي في ديوانه الامواج ٣٩ – « ما زلت في حيرة » لمحمد الفراتي ١–١١٤ – وله ايضاً « يا ليل » ١ – ١٢٠ – ولِم التكليف ١ – ١٢٩
(٣) المقتطف ٩١ – ١٣٦
(٤) ديوانه النفحات (١٩٣٦) ٣٢
(٥) راجعها في ديوانه

فيقطع الصحارى ويخوض عباب البحار ويدقق النظر في السماوات ويتحدث الى الزوابع والرياح، وكسائر الذين ينشدون هذه الضالة لا يحظى بطائل . لكنّه لا يقطع حبل الرجاء اذ على الرجاء يعيش وبه يستطيع ان يحتمل اعباء الحياة. وهو مع اقراره باستحالة الوصول الى الحقيقة يرى ان ابتغاءها والطموح اليها واجب على الانسان المفكّر . وعلى ذلك قوله في قصيدته « الى المجهول »[١] . معتذراً عن سعيه المتواصل نحو ما يعزّ بلوغه –

ليس الطموح الى المجهول من سفهٍ ولا السموّ الى حـــقٍّ بمكروهِ
يا قلب يهنيك نبضٌ كلّه حُرَقٌ الى الغرائب ممّـــا عزّ ساميه
فالعيش حُبٌّ لما استعصت مسالكه تجـــارب المرء تُـدميه وتُعليه

وفي هذا الشطر الاخير معنى بليغ وقد سبقه اليه الشاعر الانكليزي المشهور تنيسون اذ قال في احد نشائد الذكرى In Memoriam ما تعريبه :

انمـــا المرء يرتقي للمعـالي سلّما من مرارة الاختبـار[٢]

ويماشيه في هذا المعنى سيد قطب في قصيدته الانسان الاخير[٣] . ومحمد الهمشري في بعض مقاطع منظومته « شاطىء الاعراف »[٤] . وغيرهما من الادباء .

السعادة

ما السعادة وعلى ماذا تتوقف ؟ – موضوع لهج به الادب الحديث نثراً وشعراً . فمن النثر عدد كبير من المقالات والمباحث والخطب التي يضيق المقام عن ذكرها وهي منتشرة في المجلات والمصنّفات الادبية[٥] . اما الشعر فممّا يذكر منه على سبيل التمثيل قصيدة « العنقاء » لايليا ابو ماضي . والعنقاء طائر خرافي يعدّه العرب احد المستحيلات الثلاثة ، وهي الغول والعنقاء والخلّ الوفي . والذي يبدو ان

(١) راجعها في ديوانه
(٢) الذكرى (الترجمة العربية) ٢١ .
(٣) راجعها في المقتطف ٨٥ – ٤٣٣
(٤) راجعها في الروائع لشعراء الجيل (فهمي) ١ – ٦٣
(٥) راجع مثلاً مقال اميل زيدان الهلال ٢٩ - ١٧٢ وراجع المقتطف ٧٩ ص ١٤٨ و٢٦٥ وكتاب كيف تجد السعادة لمحمد سعيد الجليلي

الشاعر قد اتخذه رمزاً للسعادة التي هي ضالة الانسان المنشودة . وخلاصته هذه القصيدة ان الانسان لجهله يقضي عمره في التفتيش عنها خارج نفسه فلا يهتدي اليها ولا يعرف ضلاله الا عندما يفوت الاوان – يقول في مطلعها[1] –

انا لستُ بالحسناء اوّل مولع هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي
فاقصص عليّ اذا عرفت حديثها واسكن اذا حدثت عنها واخشع
ألمحتها في صورةٍ ؟ اشهدتها في حالةٍ ارأيتهـا في موضع ؟
اني لذو نفس تهيم وانّهـا لجميلةٌ فوق اجمـال الابدع

وهذا الهيام بها يدفعه الى التفتيش عنها في كل مكان – في الطبيعة وفي العمران – بين القصور وبين الاكواخ فلا يقف لها على اثر . ويلقي بعضهم في أذنه انّ هذه الضالة لا تتجلى الا للزّهاد والمتورعين –

قالوا تورّعْ انها محجوبةٌ الا عن المتزّهد المتورّع

فيطيعهم ويطلّق افراحه وملذّاته ملازماً في النهار خطّة التقشّف هاجعاً في الليل على فراش الحرمان . ولكن ما نتيجة ذلك ؟ لا شيء . وقد ظننت – يقول – انني اجدها في عالم الاحلام فهجعت على هذا الامل

ثمّ انتبهت فلم اجد في مخدعي الا ضلالي والفراش ومخدعي

وهكذا يمرّ ربيع الحياة وصيفها . ويقبل عليه الشتاء وهو دائب في التفتيش دون طائل حتى كاد يستولي عليه اليأس والاسى . واخيراً يدرك وقد فات الاوان ان السعادة الحقيقية ليست شيئاً نلتمسه خارج نفوسنا . وها هو يرسم لنا هذا الاختبار في ختام قصيدته بما يلي –

حتى اذا نشر القنوط ضبابه فوقي فغيّبني وغيّب موضعي
وتقطّعت امراس آمالي بهـا وهي التي من قبلُ لم تتقطّع
عصر الاسى روحي فسالت ادمعاً فلمحتها ولمستهـا في ادمعي
وعلمت حين العلم لا يجدي الفتى انّ التي ضيّعتهـا كانت معي

(١) راجعها في ديوانه الجداول (١٩٢٦) ٥

ولهذا الشاعر كثير من مثل هذه النفثات الفكرية[1]

واذا صحّ ان السعادة ليست الا اختباراً داخليّاً في النفس فما هي وكيف نحصل على هذا الاختبار . هنا مجال لتنوّع الخوالج والافكار . فمن الادباء من لا يرى ذلك الا في الصبر على المكروه ومنهم من يراها في تزكية النفس بالعلم وتكميلها بالفضائل[2] ومنهم من لا يراه الا في القناعة مجارياً الشاعر المصري محمد عبدالغني حسن اذ يخاطب ضالته المنشودة في قصيدته « اين انتِ »[3]

اني نسجتُ لكِ الخيوط لعلّني	ادنو الى سبب اليك وارتقي
وحسبتُ انّ الجاه انت وفاتني	انّ الثراء يُحبُّ لكن لو بقي
وحسبتُ انّ الحبَّ انت وفاتني	انّ السعادة فيه لمّا تُخلق
فكسرتُ انوالي وقلت معذّبٌ	من عاش في الاوهام عيش الاخرق
انا بالقناعة سيّدٌ بسعادتي	فاذا جشعتُ فانني العبد الشقي

على ان هذا القول لا يختلف عن اقوال ابي العتاهية واضرابه من شعراء الزهد . وهو صدى للروح الدينية التي بلغت أَوجها في تعاليم الانبياء والحكماء . كقول الحكيم الصيني لاوتسو « لا خطيئة اكبر من الشهوة ولا تعاسة اكبر من التذمّر ولا ملمّة اكبر من حبّ الاقتناء . لذلك كانت السعادة القصوى في القناعة »[4] . وانك لتجد مثل هذا القول في كل جيل وكل مكان . وهو قد يجيء عن زهّاد حقيقيين او عمّن يصطنعون الزهد على انه باب من ابواب الفنّ الادبي . ولكنّه عند التحقيق لا يعدّ من مزايا ادبنا الجديد وان يكن يظهر فيه احيانا . فهناك ما هو ابعد واعمق من فكرة الزهد . وقلّما ترى بين المحدثين من يعتقد ان لا سعادة الا بقتل الامل واخماد الرغبات ولا هدؤ مع الطموح ولا فائدة من الالم والجهاد . والى ذلك يشير صاحب كتاب الجيل الجديد في حديثه عن الذين يقولون ويعلِّمون بان الزهد هو باب السعادة الحقيقية

---

(١) راجع مقطوعته « لا انت ولا انا » الجداول (١٩٢٦) ٧٨

(٢) راجع لمحمد ابو العيون في الهلال ٤٢ – ٣٣٤ مقاله – اين تظفر بالسعادة

(٣) المقتطف ٩٦ – ٥١٧

(٤) المراحل لنعيمه (١٩٣٣) ٢٦

اذ يقول[1] — « واوشكت ان اعنو لهم واطمئنّ الى فلسفة زعموا انها روحيّة وانها شرقية وان فيها الخلاص . ثم تلفّت حولي وهبطت بابصاري الى قرارة نفسي واذا بعقلي ينضب شيئاً فشيئاً ويستحيل الى صحراء وقلبي يتعفّن وينقلب من مقدس الى مرعى ديدان وساعدي يفتر وهمتي تتراخى — شعرت ان بيني وبين ذاتي القديمة كما بين دم الشباب المتقد ودم الشيوخ الآسن، وان السعادة التي كانوا يلوّحون بها ليست في الحقيقة الا سعادة الموت » .

فالسعادة ليست في القعود عن الجهاد بل في الدأب وراء الافضل الممكن . ولا يعني ذلك ضرورةً التكالب على الدنيا والامراف في طلب ملاذّها . بل يعني محاولة الوصول الى اقصى حدود الامكان والاتقان . على ان يروض الانسان نفسه — كما يقول احمد لطفي السيد[2] — على الرضا حتى ترضى غير كارهة وهكذا تعرف الحياة فلا تبالغ في تقديرها وتعلم قيمة الواجب فتقوم به حق قيام وتأخذ الحوادث فتستقبلها كما هي لا كما يجب ان تكون

ولا ينكر ان السعي وراء الكمال امر لازم للرّقي وللشعور بلذّة الحياة. ولكن الانسان محدود لا يستطيع ادراك الكمال . فما الفائدة اذن من السعي وراءه . هنا نصل في ادبنا الحديث الى فكرة روحية جديدة وهي ان السعادة لا تتوقف على بلوغ الهدف بل على الشعور بالنموّ المطّرد نحوه . وبكلمة اخرى هي تجدّد الاختبار اذ يتقدم الانسان من طور الى طور . ولعلّ هذه الفكرة قد تسرّبت الى ادبنا من الغرب . فان شاعر المانيا الكبير غوته يجعلها اساس روايته الشهيرة « فاوست » . وقد عبّر عنها احد ادبائنا العصريين بقوله « لذّاتنا في الشوق لا في الوصال »[3] . فلا المال عنده ولا العلم ولا المجد ولا مطمع آخر من مطامع الدنيا تشبع النفس البشرية . وهو يشبّه الامنيّة بسدرة المنتهى في الجنّة ويرى انه اذا قدّر للنفس بلوغها فلا تلبث ان تملّها وتطلب الرجوع الى حيث كانت تسبح في عالم الاشواق والاحلام . وها هو يخاطب نفسه وقد بلغت الجنّة التي تتوق اليها واستظلت بظل سدرتها العجيبة —

---

(١) صوت الجيل لابرهيم المصري (١٩٣٤) ٣ و ٤

(٢) بتصرف عن كتاب تأملات من فصل « من هو السعيد »

(٣) راجع القفص المهجور ليوسف غصوب ١٤٩

فقلتُ قرّي قد بلغنا المنى يا نفس هذي سدرةُ المنتهى
اظلالها فيّاضة بالهنا
قرّت زماناً تحت افيائها ثم استفاقت وهي مذعورةٌ
مريضة عادت الى دائها
حنّت الى عهد الليالي العذابْ في صحبة الاحلام تسعى الى
اوطانها العليا وراء السحابْ
فقلتُ عودي واسرحي بالخيال في اربُعٍ ما خاب روّادها
لذّاتنا في الشوق لا في الوصال

ويتوسع احمد امين في شرح هذه الحقيقة الروحية بقوله(١) – « والسعادة انما هي السعي للغرض اكثر منها الغرض . والطريق الى الغاية هو السعادة لا الغاية . وانما يسعد الانسان باستخدام قواه وملكاته لبلوغ غايته . فاذا بلغها تفتّحت له غايات جديدة وبذل فيها جهوداً جديدة وظهر في اثناء الطريق صعوبات استخرجت اقصى الجهد في التغلّب عليها فشعر بلذّة الجهد ولذّة الغلبة ولذّة اعتداده بشخصيته واستخدامه ملكاته واستكماله نفسه اكثر من لذته بالغاية نفسها » . وهكذا تراه يفنّد زعم الزاعمين ان السعادة حياة راحة لا يكدرها عمل، وارتواء من اللذّات دون عناء وانقطاع ، والحصول على ما تشتهي النفس دون نصب . ويُنحي باللائمة على المجدّين والمفكّرين الذين يشكون انهم محرومون في حياتهم فيقول « لو حسبوا حساب لذّاتهم في السعي ولذّاتهم العقلية في فهم الكون ولذاتهم في الكدّ في الطريق – وان لم يبلغوا الغاية . ولو وزنوا بالميزان الحقيقي لذّة الجهلاء ولم يبالغوا في تقديرها – لو فعلوا ذلك لصحّحوا حكمهم وادركوا خطأهم ولقلّلوا من سخطهم على الزمان . »

ولا ينكر ان بين ادبائنا من لا يرى في السعادة غير سراب ليس لمن يسعى وراءهُ غير الاخفاق(٢) . ولكنّ ما ينفثه الادب من هذا القبيل لا يلوّن

---

(١) كتابه فيض الخاطر (١٩٣٨) ٣ – ٩٤
(٢) راجع مثلا قول احمد الصافي النجفي في الاغوار ص ١٣٦

التفكير العصري كما يلوّنه القول بان السعادة حالة ممكنة ولكن غير مستمرّة تجيء وتذهب تبعا لما نحرزه او نفقده من اسبابها ولاسيما الروحية منها[1] ويمثله قول رشيد ايوب في اعمى يكدّ في سبيل العيش

يسعى بصبرٍ وعلى وجهه تلوح سيماء الرضى والثبات
فقلت يا نفس قفي وانظري اعمى يرينا كيف تحلو الحياة[2]

. . .

وقس على هاتين الفكرتين كثيرا من الموضوعات المعنويّة التي تناولها الادب الحديث عن طريق الوصف التأملي

(١) راجع من هذا القبيل ما يلي ـ الحقيقة الكبرى لعلي الطنطاوي ـ الثقافة ٥ ع ٢٤٢ ـ الحياة الروحية ـ لاحمد امين ـ الثقافة ٧ ع ٣٤٦ وما بعده

(٢) هي الدنيا ٧٥

النظر المعنوي في الريف والطبيعة

الحياة الريفية : وهي تشمل كل ما يتعلّق بالقرى واحوال سكانها . وقد كان الاولى الحاقها بباب الاتجاه القومي لأن القرويين طبقة من طبقات الشعب . على أنّ للريف اتصالاً وثيقاً بالطبيعة ومن العسير جداً فصلها من الناحية الادبيّة. ولذلك رأينا أن نفرد لهما هذا الفصل فنتحدّث عن خصائص كلٍّ منهما ومدى أثره في أدبنا الحديث .

وأوّل ما يسترعي انتباهنا أن الأدب العربي القديم لم يهتمّ اهتماماً خاصاً بالحياة القرويّة ، فهو اذا ذكرها ذكرها عَرَضاً في سياق غرض من الأغراض. كما فعل النابغة في داليته التي يعتذر بها الى النعمان اذ يقفُ قليلاً في دار ميّة واصفاً ما شاهده من آثارها — يقول :

وقفت فيها أُصيلاناً اسائلها عيّت جواباً وما في الربع من أحدِ
الا الأواريّ لأياً ما أُبيّنها والنُّؤي كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ
رُدّت عليه أقاصيه ولبّدهُ ضربُ الوليدة بالمسحاة في الثّأدِ
خلّت سبيل أتيٍّ كان يحبسُهُ ورفّعته الى السجفين فالنّضدِ[١]

فهذا مشهد بدويّ ريفي ولكن الشاعر لم يقصد اليه ولم يجعله موضوع تأمّلاته وانما وصفه توطئةً لما يقصد اليه من الوصول الى أميره والاعتذار اليه . وعلى هذا النحو ما جاء للمتنبىء من وصف فتيات البادية وتفضيلهنّ على فتيات الحضر اذ يقول :

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حُسنٌ غير مجلوبِ
أين المعيز من الآرام ناظرةً[٢] وغير ناظرةٍ في الُحسن والطّيبِ

---

(١) يقول في هذه الابيات — انه وقف عند الاصيل في ربع فتاته فلم يجد فيه الا آثار الخيام من احجار المواقد وما يحفر حول الخيام لرد السيول

(٢) استعار المعيز لنساء الحضر والآرام او الظباء للبدويات

أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفنَ بها   مضغ الكلام ولاصبغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمّام بارزةً   أوراكهنّ صقيلات العراقيبِ

والأبيات مشهورة . وهو انما جاء بها تمهيداً يتخلّص منه الى مدح سيّد مصر كافور . وقد وفّق في وصفه البدويات ولكنّ ذلك لم يكن غرضه الرئيسي . وله من هذا القبيل أبيات أخرى ، ولا عجب فقد عرف البادية واختبر الحياة فيها واكتسب كثيراً من مزاياها . وقد سبق المتنبيء الى وصف الحياة البدوية والتباهي بما اكتسبته من صلابة وقوّة كثيرون من الشعراء . واننا نشير إشارةً خاصّةً الى لاميّة العرب المنسوبة الى الشنفرى حيث يحاول الشاعر ان ينفي عنه معرّة التخنّث الحضري فيحدّثنا عن نفسه وهو في البيداء مصاحباً لوحوشها مسابقاً لطيورها محتملاً شظف العيش فيها . وقد تجد في الأدب القديم حنيناً الى حريّة البادية يمثله هذه الأبيات المنسوبة الى ميسون امرأة معاوية وهي فتاة من بني كلب اسكنها معاوية قصره في دمشق فشقّ عليها فراق اهلها وطلاقة العيش بين أترابها ونفّست عن نفسها الكربة بأبيات منها :

ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني   أحبُّ اليّ من لبس الشفوف
وبيت تضرب الأرياح فيه   احبُّ اليّ من قصرٍ مُنيف

فالادب القديم ليس خلواً من هذه النزعة الريفية، على أنه قلمّا عُني بها . ولا نجد بين القدماء كما نجد في هذا العصر من اتخذ القرية باباً أدبيّاً مستقلاً أو موضوعاً عامّاً يبثّون فيه خوالج نفوسهم ويفتنّون بعرض افكارهم وتخيّلاتهم .

انّ النزعة الريفية اليوم بارزة في الادب العربي وتتجلّى لنا في ثلاث وجهات رئيسيّة هي : الوصف والاشفاق والحنين .

الوصف : وهو باب واسع وقلما ترى قطراً عربيّاً يخلو ممّن شغفهم جمال الحياة القروية فصوّروها كلّ بحسب ما توحيه اليه بيئته الخاصّة . ففي مصر مثلاً نرى مصطفى صادق الرافعي يقف في قصيدته « دموع الفجر » لدى العزبة المصرية معجباً بمشاهدها الساحرة واصفاً جمال الفتاة القرويّة وقد بكرت لتملأ جرّتها .

وهو يقابلها على طريقة المتنبىء بفتاة المدينة فيقول[1] :

مكحّلةٌ ولا كحلٌ ولكن تَمَلِ الظّبيات عن ذاك الصّنيع
فـذاك الحسنُ لا ما تشتريه ضرائرهـا من الُحسن المَبيع

وتحدوه المقابلة الى ذمّ المدن وما فيها من اسباب الشقاء والهموم .

والرافعي نشيدٌ قرويّ وضعه على لسان فلاحة مصرية يصوّر فيه حياة الفلاحين ويحاول التعبير عن شعورهم وحاجاتهم[2] .

ومثل الرافعي احمد محرّم في قصيدته « الطبيعة وفتـاة الريف »[3] . وفيها يذهب الى ان كمال الاخلاق وقفٌ على الريفية وان الحبّ النقيّ انما هو الناشىء في بساطة البيئة القروية لا في المنتديات الحضرية . وعلى هذا الوتر نفسه يضرب في قصيدته « الريف المصري »[4] حيث يذكر الفلاح وخدماته الجلّى لمصر فيقول :

كم من غنىً وافٍ ورزقٍ واسعٍ لبني البلاد عـــلى يديكَ متاحِ

ثم يصف جمال الريف ومتعة الحياة فيه ويهيب باهل المدن ان يعودوا اليه ليتمتّعوا بهناء العيش وبركاته .

وقد طرق باب الوصف الريفي عدد غير قليل من شعراء مصر[5] . على ان إمام الريفيين في وادي النيل هو محمود حسن اسماعيل . وتبرز شاعريّته في ديوانيه « أغاني الكوخ » الذي ظهر سنة ١٩٣٥ و « هكذا أغنّي » ١٩٣٨ .

---

(١) ديوانه ج ١ (١٣٢١ ﻫ) ص ٤٧ .

(٢) راجعه في ديوان النظرات ٦٩ وراجع له ايضاً فيه « زهرة فول » ص ٣٨ .

(٣) راجعها في كتاب شعراء العصر الحاضر (لحسنين) ص ٢١٧ .

(٤) الهلال ١٠ ٥ – ٦١ .

(٥) راجع مثلاً ; قصيدة « ذات القميص الازرق » لابرهيم علي في الرسالة ١ ع ٢٤ . – قصيدة «في الريف» لمحمود غنيم في الرسالة ٢ ص ١٤٣ و«على ضفاف الغدير» في مجلة الكاتب ١ ع ٧ .–قصيدة « بنت القرية » لمحمود الخفيف في الرسالة ٧ ص ٢٣٠٨ . – قصيدة « في بعض قرى السودان » للتيجاني المقتطف ١٠١ – ٢٦٨ . – قصيدة « الريف في مصر » احمد محفوظ مجلة الكاتب المصري ٣ – ٤٩٩ . – قصيدة «نشيد الحصاد» لمحمد محمود. ديوان البعث ١٥٨ . قصيدة الريف المصري لكمال بسيوني . الثقافة ١٠ ع ٤٧٨ .–قصيدة سحر الريف لمحمد طاهر الجبلاوي. الثقافة ١٠ ع ٤٧٩ . – اغنية الحقل – عبد العزيز عتيق . الثقافة ٣ ع ١٥١ .

ومن ريفيّاته « وطن الفأس »وقد وطّأ لها بقوله[1] : ظلّت القرية المصرية الى عهدٍ قريب منبوذة عن الفنون القومية وبخاصّة الادب . فلقد انحرف عنها سمته حتى على يد أكبر الادباء والشعراء في مصر ذيوعاً وشهرةً إمّا لصلَف في الاقلام أغرتها به نزعة التحضّر ومصانعة المدنيّة العصريّة الزائفة حرصاً على مسايرة أذواق الجماهير، وامّا لموت الاحساس الفنّي الصادق الذي يتجاوب مع البيئة ويترجم عن أثرها فيه، وإمّا لهما مجتمعَين » .

في هذه القصيدة يحوّل الشاعر أنظارنا الى الفلاح وعمله الجدي فيقول :

حملتْ فأسُهُ من الغيب سرًّا حيّر العقلَ كامنٌ من صفاتِه
حَطَبٌ يابسٌ يمرّ على الصخر فتزهو الورودُ في جَنَباتِه

ولكنّ هذا الفلاح الذي يتعب ليستخرج الخير من جوف الارض لا ينال من الخير شيئاً . فهو عند الشاعر معذّب في حياته ، يعتني بنبات الحقل فيعطف عليه النبات . ولكن الانسان الذي يتمتع باتعاب الفلاح لا يهتم به ولا يكترث لحاجاته وآلامه .

أتؤاسيه في الضُّحى نبتةُ الحقلِ ويغضي الانسانُ عن حسراته
كم صبا السُّنبلُ الحبيب اليه ساكباً بين راحه قُبُلاتِه
عشق الزهرُ كفّه فتمنّى خُلدَ أطرافها على ورقاتِه

ومن القصائد التي تذكر لمحمود حسن اسماعيل « الشادوف[2] » وهو اداة مصرية قديمة ترتكز على ضفّة النيل لرفع الماء الى الحقول المجاورة . و « في ليالي الحصاد »[2] حيث يرينا السُّنبلة تُحتضر والنورج يتكلّم . و « دخان الكوخ »[3] ويتخيّله الشاعر لسان شكوى ترفعه القرية لما اصابها من اهمال وحرمان .

. . .

وما نراه من الوصف الريفي في وادي النيل نراه على ضفاف الرافدين .

---

(١) هكذا أغني ١٠٧ .

(٢) راجعها في « هكذا أغني » ١١٨ .وفي الشادوف أيضاً قصيدة لمحمد الجبلاوي تجدها في الهلال ٤٥ – ١٠٤١ .

(٣) راجعها في « هكذا اغني » ٢٢٧ .

فالشاعر العراقي مهدي الجواهري يحملنـا في قصيدته « الطبيعة والقرية »[١] الى قرية عراقية فيصف لنـا مناظرها ثم يدخلنا الى بيوت الفلاحين ويُطلعنا على طرق معيشتهم وما يشعرون به من حزن او سرور . وهو يعزو اليهم الذكاء والقناعة والصبر على البليّة والاطمئنان المتأتي عن الايمان والتسليم لمشيئة الله . وعنده ان الحياة بينهم تطرد التشاؤم والشقاء اللذين تقتضيهما قيود المدنيّة الثقيلة ومطاليبها المرهقة – يقابل محيط المدينة بمحيط القرية فيقول :

قلتُ إذ ريع خاطري من محيطٍ   كلٌّ ما فيه مُوحش وكئيبُ
ليس عدلاً تشاؤم المرء في الدنيا وفيهـا هذا المحيط الطروبُ

ولا يزال للحيـاة البدوية تأثير في نفوس شعراء الرافدين المتصلين بالبادية او المجاورين لها . ومن ذلك قصيدة لمحمد الفراتي يصف لنا فيها ليلة ماطرة قضاها في بعض احياء البدو الضاربين في نواحي دير الزور[٢] . فيذكر ان المطر ألجأه ليلًا الى مضرب بدويّ وقد رقد السمّار، ويقصّ علينا ما لقيه من حسن الضيافة وجميل العشرة . ويتخلّل الحديث وصف المطر في البادية وحال البدو ومكارمهم وحريّة النفس في الفلاة . وهذا الشاعر يمثل عشاق البادية في قوله من قصيدة أخرى[٣] :

أنا ابن الفيافي حيث حلّت مطيّتي   تعزّ فيُحمى رعيهـا وذمارهـا
أليس غريبـاً ان تقيم ببلدةٍ   على الضيم نفس والاباء شعارها

. . .

على أن الشعر القروي في لبنان صبغة خاصة يمتزج فيها الوصف بشيء من الاعتزاز الوطني . فاللبناني فخور بجبله وبالحياة المرحة فيه . وقد نشأ ذلك فيه أيام كان « لبنان الصغير » مقاطعة مستقلة ضمن إطار السلطنة العثمانية ، وكان الناس يقولون هنيئاً لمن له « مرقد عنزة » في جبل لبنان . أدرك العمران الجديد

(١) ديوان الجواهري (١٩٣٥) ١ – ٦٩ وهي نحو مئة بيت
(٢) ديوان الفراتي ١ – ٢١٨ .
(٣) ديوانه ١ – ٢٢ .

هذه المقاطعة المستقلة قبل سائر الارياف الشرقية فازدهرت قراها بأموال المهاجرين والمصطافين وعمّها منذ استقلّت الامان والاطمئنان ، فأصبح الجبليّون فخورين باستقلالهم متمتعين من نعم الطبيعة والعمران بما لم يتهيأ لسواهم . وهـذا هو أساس هذا الشغف الاقليمي الذي لا نزال نلمسه في أدبهم القروي . ولعل أفضل مثال يقدّم في هذا الباب هو ديوان الالحان لالياس ابو شبكة فهو يعكس لنا خوالج اللبناني الجبلي وشغفه بجبله كما ترى في هذا النشيد الذي نظمه بشكل محاورة بين راعٍ وحصّادين . واليك بعضه :[١]

الراعي – حقو ُلنا سُهو ُلنا . كلّها طربْ . كلّهـا غنى
الشمس فيهـا ذهبْ . والسواقي مُنى
الحصادون – الى الحصادْ . جَنَى الجهادْ . قلبُ البلاد . يحيا بنا
هيّا احصدوا . وأنشدوا . الحبُّ قلبٌ ويدٌ . والعمر زرعٌ وجَنى

الراعي – جبالنا نحبُّها . هذي العيونُ قلبها . هذي الجنانُ خِصبُها
حليُّها التفّاحْ . والعِنَبْ . ألحا ُنها الرياحْ . في القَصَبْ
وكلّها لنا . وللبنين بعدنا
الحصادون – صغيرةٌ بين الدُّوَلْ . كبيرةٌ مثل الاملْ . كانت لنا ولم تزلْ –
بلادُنا . أجدادُنا . أولادُنا

زلالهـا ترياقْ . ترابُهـا أخلاقْ . وشمسُها ذهبْ
حليُّها التفاحْ . والعِنَبْ . ألحا ُنها الرياحْ . في القَصَبْ
ومن أناشيده نشيد ألحان القرية ومطلعه :[٢]

أرجعْ لنـا ما كانْ يا دهرُ في لبنـانْ
ويختمه بما يلي – وهو ينمّ على شعور الاسى لما فقده الجبل من جمال حياته الماضية :
أرجعْ الى الوادي . فلاّحه الغادي . وطيره الشادي
والرفشَ والمعولا . والموسمَ المقبلا
الى القلوب البأسْ الى العيون الجمالْ

(١) ديوانه الالحان ٨ (٢) الالحان ٢٤

وعزّةً النفسْ وراحةً البــال
أرجع لنا وجهنا يا دهر أرجع لنا
ما كان في لبنان

وفي نشيد آخر يوقفك أمام المعصرة والناس يعصرون العنب وكأنك تسمعهم يغنّون معه :[١] يا عِنَبْ . شكل الدُّمى . لونُ السما والذهبْ

اليومَ فيك الندي . حلوى وخمرٌ غدا . عليك رؤيا الحَبَبْ – يا عنبْ

فيك انعصرْ . روح النجومْ . والقَمَرْ
وفي الكروم . مرّ النسيمْ . فاختمرْ

وفيك ذابَ الصباحْ . معطّر الاقداحْ . ودبَّ فيك اللّهَبْ – يا عِنَبْ

وأكثر ديوان الالحان على هذا النسق من التوشيح المشبع بالروح الجبلية اللبنانية التي حملها معهم المهاجرون الى ديار هجرتهم ورجّعوها أنغام حنين الى مرابعهم الاولى[٢] .

ويجاري الشعر الاصولي في هذا المضمار الشعر العامي أو الشعبي . ومن أبرز أمثلته أناشيد ميشال طراد[٣] واميل مبارك . وقد اصدر الاخير مجموعة بعنوان « أغاني الطبيعة » وهي أناشيد قروية تمثل لك الحياة الجبليّة الهنيّة في لبنان وتدعو ابناء المدن الى التمتّع بها « كما تدعو المهاجرين الى ابقاء ذكرها حيّاً والعودة اليها » . وسنأتي على ذكرها في مقام آخر .

. . .

الاشفاق : وهو اما منبعث عن حال الفلاح وما وصل اليه بسبب الظلم والاهمال والحرمان او عن حال القرية وما يخشى على الاوطان بسبب هجرة

(١) الالحان ٣٢

(٢) راجع النزعات النفسية في الأدب المهجري – مجلة الأديب (بيروت) مج ٥ ع ٥ . او فصل المهاجرة واثرها الادبي ص ٦٨ من هذا الكتاب

(٣) راجع له « غناني الضيعة » في جريدة الجمهور (بيروت) ١ ع ١١ – و « غروب لبناني » في جريدة الجمهور (بيروت) ١ ع ٢٧ . – ومنظومته «ليش» في جريدة كل شيء ٢٥ حزيران ١٩٥٠

القرويين الى المدن من تأخر الزراعة التي هي ثروة الامة الحقيقية . ويكثر النوع الاول (أي الاشفاق على الفلاح) في الاقطار التي يسودها النظام الاقطاعي حيث تكون المزارع ملك أسيادٍ قلائل وأكثر الفلاحين عمّالاً لاولئك الاسياد . على أن الفلاح هناك قلمّا يشعر بمبلغ انحطاطه وسوء حاله وهو عادةً مستسلم لاولي أمره لا يعرف إلا ما ألفه ودرج عليه . وأولو الامر قلمّا يهتمّون من شأنه إلا بما يعود عليهم بالخير والربح .

وانما يشعر بسوء الحال ويتألم من جرّاء الارهاق والاهمال فئة من ذوي الحسّ المرهف الذين نالوا نصيباً من المعرفة فتفتّحت عيونهم وتأثرت قلوبهم ودفعتهم الغيرة الوطنية او الانسانية الى المدافعة عن الفلاح والمطالبة بحقوقه . كما فعل جميل الزهاوي في قصيدة له يذكر فيها سوء حال الفلاحين فيقول : « أشبعوا غيرهم وباتوا جياعا »[1] . وأحمد الصافي النجفي في قصيدته « الفلاّح » حيث تلمس ألم نفسه لرؤيته الفلاح يكدّ لا لخيره بل لخير الملاك والمُرابي — يقول —[2] :

رفقاً بنفسك أيّها الفلاحُ تسعى وسعيُك ليس فيه فَلاحُ
هذي الجراحُ براحتيكَ عميقةٌ ونظيرُها لكَ في الفؤادِ جِراحُ
عَرَقُ الحياةِ يسيلُ منك لآلئاً فيزانُ منها للغنيّ وشاحُ

وهنا يشتدّ انفعال نفسه لما يراه من جور الملاّك وما يصيب الفلاح على يديه من عنت وهوان فيصيح والحنق آخذ منه كل مأخذ :

يا غارسَ الشجر المؤمّل نفعه دَعْهُ فانّ ثمارهُ الاتراحُ
إقلعْهُ فالثمر اللذيذ محرّمٌ للغارسين وللقويّ مباحُ

ثم يعدّد بلايا الفلاح وشتّى الآفات التي تصيبه الى ان يقول متحسّراً :

يا ريفُ ان كتاب بؤسك مشكلٌ يعيا بحلّ رموزه الشرّاحُ

(١) راجعها في الرسالة (مصر) ٤ - ١٤٤ . — ومثلها قصيدة لمحمود حسن اسماعيل موضوعها « نبي جائع » ديوانه « اين المفرّ » ص ١٦٠

(٢) ديوانه « الأمواج » ٩ .

اطيارُ روضك غالهـا باز العدى وعـدا على اسماكك التمساحُ
يا ريفُ ما لكَ شربُ أهلك آجن وَنِـقٌ وشربُ ولاة أمرك راحُ

ومن هذا الباب – بضعة فصول لاحمد الزيات في كتابه « وحي الرسالة » . نذكر منها على سبيل التمثيل : الى القرية يا بك – جمعية نهضة القرى – ليالي الحصاد – القرية أمس واليوم . واليك بعض قوله[1] : « لا تزال القرية كما كانت في القرون الخوالي – اكواخاً متلاصقة غرقى في المنـاقع والدِّمن لا تبصر الشمس ولا تنشق الهواء ولا تعرف النظافة . تكوّمت في قاعها أرواث البهائم وزَرق الدجاج ، وتراكم على سطحها حطب الوقود وعلف الماشية . وتقاسم الانسان والحيوان المضاجع في هذه الحظائر المشتركة ، ثمّ راض الفلاح نفسه مرغماً على الطعام الوخم والشراب الكدر والملبس الرثّ . . . . ذلك والعواصم المصرية تعيش في القرن العشرين تأخذ بمدنيّته وتقتبس من نوره وتنعم برفاهـه كأنّ الصلة بين القرية والمدينة هي الصلة التي كانت بين العبد والسيّد – يملك ولكن ملكه لسواه وينتج ولكن انتاجه لسواه » . وقريب من هـذا كلمته المعنونة « بين الفقر والغنى »[2] .

ومن الشعر المشفق على الفلاح الداعي الى الاهتمام بأمره قول أحمد محرّم من قصيدة[3] :

قل للجداول والزروع تحدّثي في غير ما وَجلٍ ولا إشفاقِ
ماذا يمارس من شدائد دهرهِ من أنتِ كلٌّ رجائهِ ويلاقي
ويلي على فلاّح مصرَ أما كفى ما ذاق من عنت ومن ارهاقِ
يُغني أُلوفَ المترفين بمـــاله ويعيش في فقر وفي إمـلاقِ

وعلى هذا الغرار قول فارس مراد سعد في قصيدة عنوانها « الحصّاد » مشيراً الى الاغنياء وانهم لولا الفلاح لما كان لهم في الحياة غنى او مقام[4] :

(١) وحي الرسالة ٥٧ (٢) الرسالة ٧ – ٩٥
(٣) الرسالة ٨ – ٦٥٩
(٤) راجعها في الجمهور (بيروت) ١ ع ٤٤ ، وراجع لنفس الكاتب مقالا في القرية – الرسالة ٣ – ١٦٢٦ .

انّ الالى سمنوا بها لم يسمنوا لولا هزالك كادحاً وهزالي
ممّوا بيوتهم القصور وما اسمها في الحقّ غيرُ سواعدِ العمّالِ
زعموا الانام عيالَهم، وعيالُهم وهُمُ على الفلاح شرُّ عيالِ

وقول كمال بسيوني من قصيدته في الريف المصري يصف الفلاح وقد مر ذكرها

جوعان عريان يكسوهم ويطعمهم ظمآن يسقيهم من دمعه القاني[1]

وقد يتحوّل الاشفاق عند بعضهم الى روح عمليّة تهزأ بوصف الخياليين لمحاسن القرية فيجعله اديب لبناني من باب الكذب والتخدير ويطلب من الناس أن يدخلوا القرى ويختبروا عيشة القروي ليروا بأمّ اعينهم ما فيها من فساد يجب اصلاحه ومن اقذار يجب ازالتها[2].

والذي يلاحظ أن الهجرة من القرى الى المدن تزداد سنةً بعد سنة حتى صار يخشى على ثروة البلاد الزراعية. وذلك ما دفع بعض الادباء الى التحذير من سوء المصير، كما ترى في قصيدة لبشارة الخوري يقول فيها[3]:

أبني أبينا طال نومُكُمُ تشقى النفوس وينعم البَدَنُ
لا الحقل يبسم عن معاولكم فيه ولا تترنّم المِهَنُ
ذوت الرياض وماؤكم عَمَمٌ وتعطّلت من حَلْيها القنَنُ
وخوَت زرائبكم وكان على جنباتهما يتدفّق اللّبَنُ
عودوا الى تلك القرى فلقد سلختكمُ عن قلبها المُدُنُ

وتحمله الذكرى الى عهود القرية السالفة وما كان يسودها من مرح وهناء وكيف تبدّلت حالها اليوم لنزوح أهلها. فيحمل على السياسة وحب الوظيفة وما يجد فيها الجبليّ من مغرياتٍ ليس منها الا الضرر على البلاد. والاقوال في هذا الباب كثيرة يتعذّر حصرها[4].

---

(١) الثقافة ١٠ – ٤٧٨

(٢) المكشوف (بيروت) ٢ ع ٦١ . (٣) الجمهور عدد آب من السنة ١٩٤٠ .

(٤) راجع منها : « غرفة الزهر » لمحمود حسن اسماعيل-الرسالة ٨ - ٨٢٣ . – قصيدة لعلي شرف الدين. الرسالة ١ ع ٢١ . - « العودة الى الريف » لفريدة شوكة. الرسالة ٢ - ١٣٤٩ . – « مساء القرية» لمحي الدين درويش. الرسالة ٢ - ١٧٥٠ . – « الفلاح » لفؤاد مراد سعد. الجمهور ١ ع ٣١ والطليعة ٣ - ٤٨٦ . – وقصيدة للدكتور احمد زكي ابو شادي في ديوانه « عودة الربيع » ١١٨ .

الحنين : وهو عامّ في معظم الشعر القروي . وأكثره من قبيل التشوّق الى مرح الصبا وعهود الحياة الاولى . والانسان في التفاته الى الماضي كثيراً ما ينسى أوقات الشقاء فتراه مغموراً بنشوة من ذكريات هنيئة . وذلك هو السبب في ما نشعر به من شوقٍ الى ربوع قد لا نرغب الآن في استيطانها . وما أصدق ابن الرومي حين يقول :

وحبّب اوطان الرجال اليهم مآرِبُ قضّاها الشبابُ هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ عهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا

من هذا القبيل كثير من القصائد الريفية في شتى الاقطار . كقصيدة لعلي محمود طه في ديوانه الملاح التائه موضوعها « في القرية » نظمها حنيناً الى عهدٍ قديم مصوّراً فيها الريف قرب مدينة دمياط ومطلعها :[١]

غنّي بأودية الربيــع وطوفي وصفي الطبيعة يا فتاة الريفِ

ومنها ذاكراً عهوده الاولى :

اني لاذكر حقلنا وليــالياً أزهرن في ظلٍّ لديه وَريفِ
ومراحنا بقرى الشمال وكوخنا تحت العرائش في ظلال التُوفِ
ذكرى الطفولة أنتِ وحدكِ الصِّبا حُلمٌ يرفّـه عنه بالتشويفِ

وبعد ان يعدّد ما مرّ في مخيلته من ذكريات سالفة يصف الغدير الذي كان يألفه ثم يقول :

يا حبّذا هوَ من مراحٍ للصبا والكوخ من مشتى لنا ومصيف

ومثل هذا الشعور يبدو في قصيدة لمحمد الاسمر « تمثّل حال قروي نزل المدينة فأنكر عيشها وحنّ الى قريته »[٢]. وقصيدة لمحمود الخفيف موضوعها عند الثلاثين[٣] ولعلّ الاشواق القروية تصل الى أشدّ حرارتها في شعر المهاجرين اللبنانيين .

---

(١) الملاّح التائه ١٨٩

(٢) ديوانه « تغريدات الصباح » ص ١٨٨ .

(٣) راجعها في الرسالة ٧ ع ٢٩٥

ففي المهاجر حيث تصطخب أمواج المدنيّة الحديثة وحيث يشتد التنازع على الرزق ترى الشعر المهجري يشفُّ عن شعور بوحشة الغريب المفارق وعن توق عميق الى الوطن القديم . وقد تناولنا ذلك في الفصل المخصّص للأدب المهجري فلنجتزىء هنا بالمثل التالي وهو يعكس لنا صوت مهاجر أسيف قد اوحشته الغربة فاشتاق الى قريته اللبنانية والحياة الهانئة فيها — وخاطب الفلاح الجبليّ بقوله[1] :

يا حاصدَ الزرع ألقِ الحبل والمنجلْ الشمسُ غابت وأستار الدجى تُسدَلْ
والله بارك يا فـــلاح ما تعمـــل فقـل اذا أطربتنـــا رنّة الجرسِ
ما أعظمَ الكون يا ربّي وما أجملْ

* * *

حلّ السكونُ على الغابات والاكمِ والطيرُ عادت الى الاوكار في الأجم
والنفس تاقت الى الاحلام في الظُّلَم فارجع الى الكوخ واجلس بين أولادك
ونمْ خليّـــاً من الاحزانِ والنّدمِ

* * *

لو كنتَ تعلمُ ما القى من الزمنِ ومـــا أقاسي من الاهوال والمِحَنِ
لكنت تبكي على ناء بلا سَكَنِ يشتـــاق لبنانَ والاقـــدار تدفعه
عن الرجـــوع فواشوقي الى الوطنِ

الطبيعة

اذا كان الادب القروي يُعنى خاصةً بحياة الفلاح والبيئة التي يعيش فيها فان أدب الطبيعة يُعنى بتصوير المشاهد الطبيعية والتعبير عما تثيره في نفس الانسان.

---

(١) « رياحين الأرواح » لأبي الفضل الوليد (طبعة ٢) ١٤٠ .

وليس وصف الطبيعة جديداً في الادب العربي فقد عرفته جميع العصور الادبية واشتهر به كثيرون من شعرائها كامرىء القيس وذي الرُّمة وأبي نواس وابي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتزّ والصنوبري وكشاجم وابن حمديس وابن خفاجة وابن الساعاتي وصفي الدين الحلّي وكثيرين سواهم(١).

والوصف الطبيعيّ القديم (في الجاهلية وصدر الاسلام) وثيق الاتصال بالبيئة البدوية من قفار ورياح وأنواء ونبات وحيوان وما الى ذلك. وهو عادة دقيق يميل الى شرح الجزئيات. فاذا أراد الشاعر وصف حيوان كالناقة مثلاً أو كالحمار الوحشي صوّر لك أعضاءه وألوانه وأوقفك على جميع حركاته وسكناته. وكذلك يفعل في وصف غير الحيوان مما يألفه ويعرف أحواله. ومن أمثلة ذلك وصف طَرَفة لناقته في نحو ثلاثين بيتاً من معلقته، ووصف عَبيد بن الابرص للعقاب في مجهرته، والنابغة للثور البرّي في داليته، ووصف البرق والسحاب في قصيدة أَوس بن حجر التي مطلعها « إني أرقت ولم تأرق معي صاحِ » والحمار الوحشي في بائية ذي الرّمة « ما بال عينك منها الدمع ينسكب ». وقس على هذه الامثلة كثيراً مما يضيق دونه هذا المقام.

ومن خصائص الوصف البدوي الصدق وعدم التصنّع فهو عموماً عرض واقعي لا يعمد الى الزخرف اللفظي والتأنق الصناعي الذي نراه شائعاً في عصور الحضارة. يرى الشاعر شيئاً فيعرضه كما هو بلغة قد نراها اليوم غريبةً ولكنها جارية مع سجيته منبعثة عن طبيعة بيئته.

وقد تطوّرت البيئة العربية بعد استقرار الملك العربي في الشام والعراق ومصر والاندلس فتطوّر معها الشعر الوصفي، وهكذا انصرف عن الصحراء واحوالها الى الحواضر الجديدة وما تحويه من بساتين ومتنزّهات وفواكه ورياحين ومجاري

---

(١) لمحمد عبد الغني حسن مقال في المقتطف ٩٩ - ١٦٣ موضوعه بقاع الجمال، تجد فيه كثيراً من الشواهد على هذا النوع من الشعر.

مياه وما الى ذلك من ظواهر الحياة المدنية[١] . ولا بدَّ لنا هنا من التنبيه الى فرق واضح بين أسلوب الوصف البدوي القديم وهذا الوصف الحضري المولّد. ففي الاول كما ذكرنا آنفاً يغلب الصدق والبساطة في التصوير . وأما الثاني فتبرز فيه الصناعة الفنية التي تتحرّى إلباس الموصوف برداً قشيباً من الخيال . ولقد تمادى المولّدون في حرصهم على ابتداع المعاني البيانية حتى طغت الصناعة عندهم على صدق العاطفة فأصبحت الطبيعة في كثير من الاحيان وسيلةً لاظهار براعتهم الفنية ومقدرتهم على التوليد . وهذا ما يذهب اليه ايضا احمد امين في مقاله مستقبل الادب العربي[٢] .

وأظهر ما جروا عليه في الوصف طريقة التشبيه وهي طريقة تعد من محاسن الشعر في كل زمان ومكان اذا جرت مع الطبع ولم تُشَب بالتعمّل والتكلّف. ومن أمثلتها قول ابن المعتزّ يصف بستاناً[٣] :

اما ترى البستان كيف نوّرا ونشر المنثور بُرداً أصفرا
وضحك الورد الى الشقائقِ واعتنق القطرَ اعتناق الومقِ
وياسمينٍ في ذرى الاغصانِ منتظماً كقِطَعِ العقيان
وفرجَ الخشخاش جيباً وفتقْ كأنه مصاحفٌ بيضُ الورق
حتى اذا ما انتشرت اوراقُهُ وكاد أن يشأد رِيّاً ساقُهُ[٤]
صار كأقداحٍ من البلّور كأنّما تجسّمت من نُور

ولا تزال هذه الطريقة الى الآن من اكثر الطرائق شيوعاً في وصف الطبيعة. ويتوقف جمالها على روعة العلاقة التي تربط المشبّه بالمشبّه به وعلى حسن التعبير عن تلك العلاقة .

على اننا اذا انعمنا النظر في وصف القدماء عموماً للطبيعة وقابلناه بما استجدّ

(١) للأستاذ المستشرق غوستاف فون غرونيوم بحث دقيق في تطور الوصف الطبيعي عند العرب حتى أواخر القرن التاسع للميلاد . راجعه في Journal of N. E. Studies, July 1943

(٢) راجعه في الثقافة ٦ ع ٢٧٨ .

(٣) من أرجوزة في ديوانه (بيروت) ٣٠٧

(٤) في الديوان وكاد ان يرى الينا ساقه . ويثأد بمعنى يندى

في ادبنا الحديث من ذلك وجدنا من الفرق بينهما ما لا نجده بين الشعر القديم (الجاهلي) والشعر المولّد في العهد العباسي والاندلسي . فالطبيعة في الشعر القديم لم تُتّخذ موضوعاً خاصاً وانما كان الشاعر يعرض لها في سياق غرض آخر كالغزل او المديح او الفخر . وكان يكتفي بأشكالها الخارجية لا يتجاوز الافق الحسّي المشاهد الى ما هو ابعد واعمق . وبكلمة اخرى لم يرَ في الظواهر الطبيعية ما يحمله على التأمّل العميق وما يوحي اليه المعاني الخالدة والافكار السامية . ولم يتغير الموقف في الشعر المولّد تغيراً يصح ان يسمى اتجاهاً عاماً. فظلت الطبيعة عند المولّدين وسيلةً لا غاية ومعرضاً لمشاهد جميلة لا مصدراً لايحاءات روحية . اما الادب الحديث فلم يقف عند حد المشاهد التي تبهج النفس بل اتجه اتجاهاً عاماً الى ما للطبيعة من وجود معنوي يلذّ للخيال الجولان فيه ويروق للفكر ان يسمو اليه .

ولهذا النظر الحديث الى الطبيعة خصائص نحاول شرحها فيما يلي :

قد يقال ان الوصف الحديث للطبيعة يمتاز بملاحظة ما لا يؤبه له عادةً كانحناء السنبلة وتفتّح البراعم وتبعثر اوراق الخريف وربوض البقرة تحت الشجرة واختباء الفراخ تحت جناحي امها وتجاوب الاجراس في الوادي ولون العشب الذاوي وغير ذلك من مشاهد طبيعية متواضعة، وانه يرتاح الى الطبيعة الساذجة (البريّة) دون المصطنعة المنمّقة . فهو يؤثر الغاب على البستان، وشواهق الصخور على اسوار الحصون، وبحيرات الجبال على بُرَك القصور ، ورمال الشواطىء والصحاري على الساحات المعبّدة في المدن او النوادي، والمجاري الطبيعية المتدفقة بين السهول والهضاب على الترع المحفورة لريّ الحقول والمزارع . بل انه ليرى روعةً خلّابةً في ما كان يهول القدماء كصخب العواصف وطغيان السهول وانقضاض الشلالات وقصف الرعود وتجهّم الفدافد ووحشة الدياجي وتلاطم اللُّجج وما اشبه . وفي هذا القول شيء كثير من الصحة . على ان ذلك عند التحقيق ليس الفارق الرئيسي الذي يميز ادب الطبيعة في هذا العصر عنه في العصور السالفة وانما يميزه ما تقدمت الاشارة اليه من ان الادب الحديث ينظر الى الطبيعة نظراً معنوياً يتجاوز افق المشاهدات .

وبما لا شك فيه ان التصور المعنوي الذي تثيره المشاهد الطبيعية هو اقوى واعمّ في ادبنا الحديث منه في اي عصر من عصورنا الماضية . ولهذا التصوّر او النظر المعنوي نزعات نجملها في الاثنتين التاليتين :

النزعة الحيوية : وهي اعتبار الطبيعة ذات حياة وروح يمكن مخاطبتها ومناجاتها ومبادلتها الافكار والعواطف .

وليس من الصواب القول ان الادب القديم خلو من مثل هذا النظر او الشعور. فقد طالما وقف القدماء على الطلول فبثوا لها اشواقهم وسألوها عن أحبابهم . وانما فعلوا ذلك في الاغلب تمهيداً لبعض اغراضهم وجرياً على اتباع السنّة الشعرية التي كانت تقتضي الابتداء بالغزل . ومنهم من انطق الطبيعة ونسب اليها التأمل والتفكير كما فعل ابن خفاجة الاندلسي في قصيدة يصف جبلًا فيقول[1] فيه :

وقور على ظهر الفلاة كأنه طوالَ الليالي مُفكرٌ في العواقبِ

فهذا الجبل عند الشاعر ذو فكر وتأمل، بل هو ايضاً ذو عواطف وذكريات ولذلك نسمعه يقول :

فكم مرّ بي من مُدلج ومُأوّبٍ وقال بظلّي من مطيٍّ وراكب
فما كان الا ان طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النّوى والنوائب
فحتّى متى أبقى ويظعن صاحبٌ اودّع منه راحلًا غير آيب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً فمن طالعٍ اخرى الليالي وغائب
فرحماك يا مولاي دعوة ضارعٍ يمدّ الى نعماك راحةَ راغب

وكأنّ الشاعر اذ يسمع هذا الكلام من الجبل يتأثر به ويعلّق عليه بقوله :

فأسمَعَني من وعظه كلّ عبرة يترجمها عني لسان التجارب

وهناك قبل ابن خفاجة وبعده من خاطب الطبيعة من جماداتٍ واحياء وجعل لها لسان العقلاء

---

(١) ديوان ابن خفاجه ٢٧ . وهذا الشاعر معروف بوصفه الطبيعة .

فامرؤ القيس في معلقته يقول للذئب :

فقلت له لمّا عوى ان شأننا قليل الغنى ان كنت لمّا تَموّلِ
كلانا اذا ما نال شيئاً افاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزَلِ

وعبد الرحمن الاموي يخاطب النخلة بقوله[1] :

يا نخلَ انت فريدة مثلي في الارض نائية عن الاهل

واسد المتنبيء في لاميته المعروفة – في الحدّ ان عزم الخليط رحيلا – اسدٌ يشعر ويفكر ويخاف العار فلا يحسب الخطر حساباً .

وقس على هذه الامثلة ما لا يخلو منه عصر من العصور الادبية السابقة .

على اننا نعيد القول انّ ما تجده من ذلك فيما مضى لم يبلغ ان يكون اتجاهاً عاماً او باباً مستقلًا يلجه الادباء ليتصلوا بالطبيعة فيسجدوا في هيكلها ويحملوا الينا منه ما توحيه من جمالها واسرارها . او على الاقلّ لم يبلغوا في هذا السبيل شأو زملائهم في القرن العشرين .

ان الطبيعة في الادب الحديث « حيويّة » عاقلة يحسّ بضربات فؤادها ويسمع رخيم إنشادها ويلذّ له التحدّث الى انهارها وغاباتها وجبالها ووهادها . وعلى حدّ قول العقاد « هي قلب نابض وحياة شاملة ونفس نحنّ اليها ونأنس بها وذات نساجلها العطف ونجاذبها المودّة[2] »

وكذلك قول شفيق جبري[3] من مقال موضوعه بركة البحتري وبحيرة لامارتين – « فالفرق بيننا وبين الافرنج انهم اتصلوا بالطبيعة بارواحهم وحواسّهم فخلقوا لها قلباً يشعر شعورهم وعيناً تبكي بكاءهم وصدرا يفرح فرحهم واذا كان في بعض شعرنا شيء من اشباه هذه النزعات فهذا شيء قليل» . الخ

ويمثّل لك ذلك جبران جبران اذ يقف امام « الارض » مقابلًا محاسنها بقبائح الانسان فيقول[4] « ما اجملك ايتها الارض وما ابهاك . ما اتمّ امتثالك للنور وانبل خضوعك للشمس . ما اظرَفك متّشحة بالظلّ وما املحَ وجهَك مقنّعاً

---

(١) مختارات من الشعر الأندلسي تحقيق نيكل ٩ .

(٢) الرسالة ٦ - ١١٠١ (٣) في مجلة الثقافة ١ ع ١٠ .

(٤) راجع مقاله «الأرض» في مجموعة الرابطة القلمية (نيويورك) ١٨٢

بالدجى . ما اكرمك ايتها الارض وما اطول اناتك ! نحن نضجّ وانت تضحكين . نحن نذنب وانت تكفّرين . نحن نجدّف وانت تباركين . نحن ننجّس وانت تقدّسين . نحن نكلّم صدرك بالسيوف والرماح وانت تغمرين كلامنا بالزيت والبلسم . نحن نستودعك الجِيَف وانت تملأين بيادرنا بالاغمار ومعاصرنا بالعناقيد . نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف وانت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق ! » .

فهذا باب في مناجاة الطبيعة لم يطرقه القدماء كما طرقه المحدثون وهو يدور كما ترى على تأمّل فيها عميق ووصف لها مقصود لذاته لا لسواه .

ولشكرالله الجرّ قصيدة في شلال في البرازيل يدعى « تيجوركا » وهي ايضاً من باب الوصف التأملي الذي تشعر فيه بحيوية الطبيعة . ومن ادوارها[1] :

غسلتُ بمائـك عيني وعدتُ فأبصرتُ ما الناسُ لا تبصرُ
فبـالله قل لي إلامَ تظلّ كذلك تجتاحــك الاعصرُ
وأنت تكرّ كرور الزمانِ فـلا تستقرّ ولا تفـتر
وهذا الوجود كما كان قبـلُ شعوبٌ تجيء واخرى تروحْ
ودنيـا تضجُّ بسكّانهـا فهذا يغنّي وهـذا ينوحْ
وذلك مستسلمٌ للقدَرْ

وكثيرة هي وقفات الادب الحديث على الطبيعة اللاحيّة من جبال واودية وانهارٍ وقفارٍ ونجوم ورياح وبحار حتى ليتعذر حصرها .

وكما شُغف الادب الحديث بالطبيعة اللاحيّة فأحياها وجعلها ذات شعور وادراكٍ ونظر مستوحياً منها الافكار والخواطر والعِبَر، شُغف ايضاً بالطبيعة الحيّة من نبات وحيوان فجعلها موضوعاً لتخيّلاته وتأمّلاته ، ووسيلة للتحدّث عمّا يتجلّى له في حياته .

ففي عالم النبات مثلاً يقصّ علينا جبران جبران حديث البنفسجة التي كانت تطمح ان تكون وردةً ، فيصف لنا شعورها وآمالها وما آل اليه مصيرها[2] .

---

(١) المقتطف ٨ : ٤١٢ .
(٢) راجع ذلك في كتابه العواصف ٢٢٦ .

وهو يرمز بذلك الى كل طموح يودّ الخروج من بيئته الضيقة الى بيئة ارحب واسمى، وان هذا الطموح او هـذا السعي الى الاسمى هو السعادة ولو كانت نهايته الموت .

وممّن استخلص من البنفسجة موضوعاً انسانياً خليل شيبوب اذ وصف جمالها وتواضعها فقال[1] :

قد التحفت اوراقها وتطامنت   عـلى نفسها في رقّةٍ وتواضع
مكحّلة الاجفان يقضي حياؤها   عليها باغضاء اللحاظ الخواشعِ
وهل كبرياء الدّوح تعدل نظرةً   للمومةٍ في ثوبهـــا المتواضعِ

ثم استطرد الى وصف الحياة البشرية مقابلاً المتكبّرين بالمتواضعين ذاكراً معائب الكبرياء الفارغة وانها انما تدلّ على خلوّ النفس من الجمال الحقيقي :

وأكثر هذا الناس زهرٌ بلا شذى   ومرأى بلا حسنٍ ووقرٌ مسامعِ

وفي غابةٍ من غابات البرازيل يمرّ الشاعر القروي مرةً فيرى دوحة عظيمة قد طرحتها على الارض يد الانسان فيحدّثنا حديث تلك « الدوحة الساقطة »[2] وشكواها من جور الانسان . وفي هذا الحديث تذكر لنا الشجرة شيئاً عن حياتها ونشأتها وكيف نمت حتى اصبحت كثيرة الاغصان وارفة الظلال تأوي اليها الطيور ويقصد ظلالها طلاب الراحة . ثم تصف عالم النبات وانه هو موطن المساواة والخير لا عالم الانسان الموبوء بالطمع والفساد القائم على التعدّي والتدمير . وبعد ان تنعي نفسها الى أشجار الغاب يتناول الشاعر الحديث مستطرداً الى وصف الدوحات البشرية (اي النوابغ) وما يصيبهم بـين الناس من هوان وعناء . وتعود الشجرة الى حديثها فتختمه بكلمة فخر تخاطب بها الانسان قائلة : انت ايها الانسان تعيش قليلاً ثم تموت فتصبح رمّةً بالية لا خير منها اما انا فأعيش طويلاً واذا متُّ ففائدتي لا تنقطع – مني تبنى الجسور وتصنع أعمدة الكهرباء ومنّي تعمل شتّى الادوات والاواني اللازمة لتقدم العمران

(١) ديوانه « القرويات » ٧٩ .
(٢) المقتطف ٧٨ – ٢٩٤ .

وعلى هذا الفرار قصيدة لضياء الدين الدجيلي يقول فيها للشجرة انت رمز الاحسان والعمل الصالح ما لوّثتك دنيا الشرور . ويندد فيها بظلم الانسان طالباً من الاشجار ان تتوقاه وترتفع عنه[1] .

ومن الشعر التأمّلي المستوحى من عالم النبات قصيدة « الورقة المرتعشة »[2] لرشيد ايوب . يرى الشاعر ورقةً من اوراق الخريف فتثير فيه وقد دنت شمسه للمغيب خواطر وذكريات ويخاطبها بقوله :

ابنت الربيع استريحي غـداً فكلٌ الهنـــاء لمن لا يعي
قضيتِ الربيع وكلُّ الحيـــا ةِ زمانُ الربيع فـلا تجزعي
فمـــاذا اقول انا في الشتا ء وصوت العواصف في مسمعي
ابيتُ الليالي ارعى النجومَ وان نمت نامت همومي معي

ومنها :

ابنتَ الربيـــع الى الملتقى فـلا أمنَ الا بحضن التراب
ولا تسألي السرّ في ذي الحيا ةِ ففي الابَديّة فصل الخطاب

***

والشعر الحديث المستوحى من الطبيعة النباتية شعر كثير ومثله المستوحى من الطبيعة الحيوانية ـ عالم الطيور والحشرات وحيوانات البرّ والبحر . واليك منه بعض الامثلة :

ينظر الشاعر المصري محمود حسن اسماعيل الى الغراب وهو واقف على غصن شجرة من اشجار النخيل . فيتصوّره « راهباً » كبير السن واسع الاختبـار . وعوضاً عن ان يتطيّر منه كما يفعلون عادة يتلطّف في الاقتراب اليه ثم يلقي عليه اسئلة عما لم يستطع فهمه من اسرار الحياة راجياً منه ان يجلو له اسرارها ويكشف استارها . وهذه الاسئلة ليست في الحقيقة الا ما يساور نفس السائل لدى تأمّله في حياة الناس واحوالهم . وقد اتخذ الغرابَ وسيلة للتحدث عنها

---

(١) الثقافة ٩ ع ٤٥٧ .　　(٢) ديوانه « هي الدنيا » ٧١ .

والتعبير عن رأيه فيها[١] .

وفي الخريف يرى ايليا ابو ماضي فراشة وقد دنا اجلها فيجعلها موضوعاً لقصيدته « الفراشة المحتضرة » . ومن هذه القصيدة قوله مخاطباً تلك الفراشة[٢] :

فالزهرُ في الحقل اشلاء مبعثرةٌ والطير – لا طائرٌ الا جناحاكِ
يا روضةً في سماء الارض طائرةً وطائراً كالاقاحي ذا شذاً زاكِ
مضى مع الصيف عهدٌ كنت لاهيةً على بساطٍ من الاحلام ضحّاكِ
تُمسين عند مجاري الماء نائمةً وللازاهر والاعشاب مغداكِ
يا نغمةً تتلاشى كلّما بعدت ان غبتِ عن مسمعي ما غاب معناكِ

وفي الفراشة قول غير قليل[٣] .

ويسمع احمد رامي طائراً يغرّد تغريداً شجيّاً وهو يتنقّل من غصن الى غصن فيغبطه لانه بعيد عن الناس ويقول له[٤] :

واصدح فصوتك في الفؤاد صدًى للغابر المدفون من زَمَني
لك انّةٌ في الليل خافتةٌ تسري الى قلبي بلا أذُنِ
هبني جناحك كي اطير به واحطّ فوق شواهق القُنَن
وأطلّ فوق الكون مبتهجاً بجماله المتناثر الحَسَنِ

ولماذا يطلب الشاعر ذلك ؟ لانه يشعر او يتوهّم ان حياة المدن قد غمرته بالشقاء الملازم وانْ لا سعادة له الا في الطبيعة حيث النهر الجاري والزهر العاطر والمناظر المبهجة التي تُنسي الانسان همومه وآلامه . ففي المدن :

لا مغربٌ أرنو لمشهدهِ والافق يُطوي الشمس في كَفَنِ
او مشرقٌ والارض قد نفضت عن عينها ثِقلًا من الوسنِ
او طائرٌ يشدو فيطربني الا نعيب البوم في الدّمن

(١) راجع قصيدته « راهب النخيل » في ديوانه « هكذا أغني » ١٧٩ .

(٢) ديوانه « الخمائل »(طبعة ثانية) ٣٥ .

(٣) راجع مثلاً مجلة الكتاب ٤ : ٣١ : قطعة لعلي أحمد سعيد . والجمهور (بيروت) ١ ع ١٥ موشح من الشعر العامي لميشال طراد .

(٤) ديوانه ٥٩ .

ومن هذا القبيل موشّح للشاعر العراقي محمود الحبوبي استوحاه من تغريد طائر على شجرة فحداه ذلك الى وصف الحياة والناس متمنّياً لو كان للبشر نصيب من حياة الطائر المرحة الوديعة لعلهم يرجعون الى صوابهم وينبذون ما أفسد عليهم سعادتهم[١] .

ولو اردنا ان نعدّد الامثلة على ما للطبيعة الحيّة من اثر في ادبنا الحديث لطال بنا سَفر الكلام .

وللشاعر المصري محمد الهمشري شعر كثير في الطبيعة ومنه القطع التالية[٢]: النارنجة الذابلة – اغنية النخيل – عودة الشاعر الى قريته – اليمامة – المغرّد – الى الفجر .

وكذلك للشاعر محمد عبدالرحيم ادريس ففي ديوانه « ظلال النخيل » يكثر تغنّيه بالظلال والاصيل والزروع والنخيل والصحراء والنيل .

النزعة التاريخية : ولم يكتف ادباء هذا العهد بمناجاة الطبيعة وبثّها ما يشعرون به، بل كثيراً ما تراهم ينظرون من خلالها الى التاريخ حيث يتجلّى لهم جلال القِدم وحوادث الزمان . والذي يلاحظ ان هذه النزعة تكاد تكون مفقودةً في ادبنا الماضي . ومن امثلتها قصيدة احمد شوقي « ايها النيل » ومطلعها[٣]:

من ايّ عهدٍ في القرى تتدفّق   وبأيّ كفّ في المدائن تُغدقُ
ومن السماء نزلتَ ام فُجّرتَ من   عليا الجِنــان جداولاً تترقرقُ

وفي هذه الوقفة التاريخية يصف النيل وصفاً مسهباً ذاكراً ما قام على ضفافه من ممالك واديان ومن مشى عليها من انبياء وفاتحين، وانه كان مهد الحضارة والعلم وموئل الحكمة ومصدر النور . ومن وصفه :

اتت الدهور عليك مهدُك مُترعٌ   وحياضك الشُرُق الشهية دُفّقُ
تُسقي وتُطعم لا إناؤك ضائقٌ   بالواردين ولا خوانــك يَنفَق
والمــاء تسكبه فيُسبك عسجداً   والارض تُغرقها فيحيا المُغرَق

(١) راجع هذا الموشح العامر في مجلة الغريّ (النجف) السنة ٨ ع ١٣ .
(٢) تجدها في روائع شعراء الجيل لمحمد فهمي .
(٣) الشوقيات ٢ : ٧٧ .

اصلُ الحضارة في صعيدك ثابت ونباتهـــا حسن عليـــك مخلّق
وُلدتْ فكنتَ المهدَ ثم ترعرعت فأظلّهـــا منك الحفيُّ المُشفق

والنيل نهر عظيم فلا بَدع ان يكون موضوعا لكثير من الشعر والنثر .

***

ومن الانهار الشرقية المُوحية للذكريات التاريخية : الفرات ودجلة والاردن والعاصي وبردى واليرموك ونهر الكلب قرب بيروت وسواها . ومن البحيرات طبريا والبحر الميت .

ولا تقتصر الوقفات التاريخية على الانهار والبحيرات بل تتناول ايضاً الجبال والاودية كجبل الشيخ (حرمون) والكرمل وطورسينـــا ووادي موسى (بيترا) وسواها .

وكما يتأثر الادب الحديث بالطبيعة الشرقية يتأثر بالطبيعة الغربية . وقد نشر الشاعر محمد عبد الغني كلمة في الرسالة موضوعهـــا « شعراء الشرق والطبيعة الغربيّة[١] » ذكر فيها ان كثيراً من شعراء الشرق الذين عرفوا البلدان الغربيّة تغنّوا بمحاسن الطبيعة هناك . ومنهم ايليا ابو ماضي وميخائيل نعيمه وشكرالله الجرّ وبشر فارس والشاعر القروي وفخري ابو السعود . واشار الى بعض قصائد له نشرت في مجلة المقتطف[٢] . وقد اصاب في ما ذهب اليه واننا نضيف الى ما ذكر الوقفتين التاليتين للمؤلف : « على نهر التامس » في لندن[٣] و « على نهر السين » في باريس[٤]، وشلالات نياغرا لرياض المعلوف[٥]

وفي ادب المهاجرين وغير المهاجرين اقوال كثيرة من هذا القبيل .

---

(١) الرسالة ٧ – ٢٣٢١ .
(٢) منها - ديفون الجميلة – ارض شكسبير بحيرة دندرمير–القرية النائمة – ثلاجة الجبل الابيض
(٣) راجعها في المورد الصافي ٧ ـ ١١٠ ومجلة الكلية ٨ ـ ٣٨ .
(٤) راجعها في الهلال ٢٩ ـ ٣٦١ ، والمورد ٦ ـ ٣١٨ .
(٥) ديوانه « خيالات » ٢٢ .

واننا نلفت النظر الى القطع التالية لمن يود زيادة الاطّلاع على شعر الطبيعة في هذا العصر .

وفاء النيل – المراوي – في المقتطف ٥٣ – ٣٩٧
ايها النيل – العقاد – ديوانه ٢٢٤
على الغرّاف – علي الشرقي – في حلبة الادب للنجفي ١٩
بردى والتاريخ – علي الطنطاوي – كتابه « في بلاد العرب »
الفرات الطاغي – مهدي الجواهري – ديوانه ٢٩٣
مساقط الماء – احمد زكي ابو شادي – ؟
على جبل طارق – احمد غفور العطار – ديوانه الهوى والشباب ٦٤
على الفرات – مجلة الكلية (بيروت) ٥ – ١٨٣[١]
على دجلة – المورد الصافي ١٠ – ١٤
على اليرموك – مجلة الهلال ٢٩ – ٢٦٥
على العاصي – المورد الصافي ٣ – ٧٦
على بردى – المورد الصافي ٤ – ٥٤
على الاردن – المورد الصافي ٤ – ٥٥
على شلالات دفني – الكلية ٣ – ١٨٤ . والمورد ١٤ – ١٢٥
على البحر الميت – الكلية ١٥ – ٢٥٨ . والمورد ٤ – ١٥٦
على حرمون – الهلال ٢٨ – ١٠٧
على الكرمل – الهلال ٢٩ – ٧٨٨
مهرجان الربيع – لخليل شيبوب . الرسالة ١٥ – ٥١٣
الغدير – لابرهيم زكي في الرائد الممتاز . السنة ١٩٢٨ ص ٣٧
الراعي شاعر السهول – لحسين محمود البشبيشي . الثقافة ٧ عدد ٣٣٤
من وحي الصحراء – لكامل امين محمد . الثقافة ٧ ع ٣٤٠
ديوان شاعر البراري – راجعه في الثقافة ٩ ع ٤٤٤ ص ٢٢
وقفة على النيل – لمحمود حسن اسماعيل . في ديوانه « من نبع الحياة » ص ٦١

---

(١) هذه الوقفة والتسع التالية لمؤلف الكتاب .

النيل – ترنيمة الدهر . قصيدة لعلي شرف الدين في الثقافة ٥ ع ٢٣٥
الربيع – لمصطفى الرافعي . الرسالة ٤ – ٦٨٣
امام الشجرة – لمحمود محمد شاكر . المقتطف ١٠٢ – ٢٨
السنبلة – ايليا ابو ماضي . المقتطف ٦٦ – ٤٨٨
الخفّاش – لعمر ابو قوس . الرسالة ٨ – ٦١
حمامة الغار – لمحمود حسن اسماعيل . الرسالة ٧ – ٥٥٥
الورقاء – عدنان مردم بك . المقتطف ١٠٢ – ٤٢٠
الحمامة الضائعة – محبوب الشرتوني . ديوانه ١٤٢
فاجعة الروض – امجد طرابلسي . الرسالة ٤ – ٤٦٩
الطائر السجين – محمود الخفيف . الرسالة ٢ – ١٩٨٦
الجبون (القرد) – عباس العقاد . ديوانه عابر سبيل ٢٠
الاسد السجين – جبران جبران . العواصف ٢١
البلبل – عبداللطيف النشار . الهلال ٢٦ – ٤٨٨
في الربيع – اشواق على نهر السين لمحمود صابر في الرسالة ١٥ – ٨٧٧
الحمامة الطريدة – لمحمود الخفيف . في الرسالة ١٦ – ٢٢٥
الدوحة الذاوية – لمحمد محمد علي . في الرسالة ١٦ – ١٠١٨
ملهمتي الخالدة – لمحمد الصادق مسعود . في الثقافة ١٠ عدد ٥٢٠

الاتجاه الفني

وهو يتناول اساليب الكتابة والنظم وما طرأ عليها من تطور
في عصرنا الحاضر

الاثر الفني ←

اثر العرب في ادبنا الحديث

سبق العرب قديماً ان اتصلوا بما انتجه الفكر الغربيّ . وهذا الاتصال يرجع الى ما قبل الاسلام . على اننا لا نراه جليّاً او على نطاق واسع الا منذ اواخر القرن الاسلامي الاول (السابع الميلاد) . وقد بلغ غايته في بيت الحكمة ببغداد ايام الخليفة المامون . وكان بيت الحكمة هذا عبارةً عن معهد علمي يرعاه الخليفة بعنايته وينفق الاموال الطائلة في سبيله . واهمّ ما كان يقوم به ترجمة العلوم والفلسفة عن اليونانية وغير اليونانية . وقد تمّ فيه نقل كثير من المؤلفات الطبيّة والرياضيّة والطبيعيّة والفلسفيّة . وعُني الذين درسوها بشرحها والتعليق عليها وتهيّأت لهم مع الزمن اسباب التوسّع فلم يقصّروا في وضع الكتب التي اصبحت من أسس البحث والدرس في معاهد القرون الوسطى .

وليس غرضنا الآن ان نؤرّخ هذه الحركة العلمية وان نخوض في شرح هذا التبادل الفكري القديم بين الشرق والغرب فهو معروف وما كتب فيه بالعربيّة وغير العربية كثير متداول[1] . وانما غرضنا هنا ان نقرّر ما ذهب اليه الباحثون من ان العرب مع اهتمامهم وعنايتهم بعلوم اليونان وسواهم لم يعنوا بتصوراتهم الفنية او يأبهوا لآدابهم اللغوية . فبقي الادب العربي منعزلاً منطوياً على ما نشأ عليه قلما يرى شيئاً خارج بيئته . وفي ذلك يقول احد كتاب العصر المعروفين[2] — « ولو شاء الله لادبنا الكمال من نقصه لالهم المترجمين في عصر المأمون ان ينقلوا روائع الادبين الاغريقي واللاتيني من الشعر والقصص والروايات والملاحم كما نقلوا العلم والحكمة . »

ولعدم عناية العرب القدماء بآداب اليونان اسباب مختلفة منها لغوي ومنها ديني ومنها عمرانيّ فلنترك شرحها لمؤرخي ذلك العهد ولنتقدم الى موضوعنا الخاص —

(١) راجع من ذلك — كتاب Legacy of Islam - Arnold & Guillaume وكتاب تراث العرب العلمي لقدري طوقان .

(٢) احمد الزيات في الرسالة (مصر) ٤ — ١٧٢٢

نهضتنا الادبيّة الحديثة – لنرى مدى اتصالها بالحضارة الغربيّة ومدى الاثر الذي احدثه هذا الاتصال .

. . .

لا مراء ان احتكاك الامم المختلفة بعضها ببعض ممّا يوسّع آفاق التفكير وينوّع مصادر الايحاء . فالعرب مثلًا لما خرجوا من جزيرتهم فاتحين واحتكوا بحضارات الامم التي غلبوها لم يبقوا على ما كانوا عليه من حال البداوة والجهل بل تطوّروا اجتماعيّاً وفكريّاً اذ اقتبسوا الكثير عن سواهم فساروا شوطاً ابعد في مضمار الرقيّ والتقدم . واعتبر ذلك ايضا في سواهم، كالقبائل الجرمانية التي غزت الامبراطورية الرومانية ثم امتزجت بسكانها الاصليين، والموجات الصليبية التي حاولت غزو الشرق ووطدت اقدامها حينا على سواحل بحر الروم الشرقية وما يجاورها . وفي تاريخ البشر شواهد كثيرة على هذه الظاهرة الاجتماعية التي تكاد تكون قاعدة عامة لا شذوذ فيها .

وقد أُتيح للادب العربي الحديث منذ اوائل القرن الماضي ان يتعرّف بالحضارة الاوروبية وان يُطلّ بواسطتها على آفاق جديدة في الحياة . وكان ذلك عن طريقين رئيسيتين . الاول طريق الترجمة اي نقل منتجات الفكر الغربي الى اللغة العربية، والثاني طريق الاطّلاع المباشر على ما نشر في لغات الغرب من شتى العلوم والآداب .

اما **الترجمة** فقد تناولت اولاً المواضيع العلمية والفنيّة من طبيّة ورياضيّة وطبيعية وحربيّة . واوّل من عُني بذلك ادباء مصر في عهد محمد علي الكبير ثم في عهد حفيده اسماعيل واشهرهم رفاعة الطهطاوي[1] (المتوفى سنة ١٨٧٣). ومن كبارهم محمد عمر التونسي الذي وضع معجما للمصطلحات الطبيّة والاطبّاء[2] وهناك رهط من علماء ذينك العهدين تجد شرح اخبارهم واعمالهم في الكتب المخصّصة

---

(١) راجع الهلال ٥ – ٤٥١ و٤٨٩ .

(٢) تاريخ آداب اللغة لزيدان ٤ – ٢٠٦ .

لذلك[١] . وقد ذكر احد الثقات ان ما نشرته مطبعة بولاق بين ١٨٢٢ – و١٨٤٢ بلغ ٢٤٣ كتابا عن اللغات الاوروبية[٢] . وان تلاميذ مدرسة الالسن التي كان يرأسها رفاعة الطهطاوي ترجموا نحو الفي كتاب الى العربية والتركية[٣] .

اما خارج مصر فقد كانت بيروت اهمّ مركز لنقـــل العلوم الاجنبيّة الى اللغة العربيّة . ففي سنة ١٨٦٦ انشئت الجامعة الاميركية في بيروت وكانت في اول عهدها تستعمل العربية لتدريس الطب وسائر العلوم فاضطرّ اساتذتها وفي مقدّمتهم فانديك وورتبات وبوسط الى ترجمة او وضع عدد من المؤلفات العلمية باللغة العربية . وكذلك فعل اساتذة المعاهد الاخرى وظلت حركة الترجمة نشيطة فيهـا حتى عُدل عن أستعمال العربية لتدريس العلمي وصار المدرّسون والطلبة يرجعون رأساً الى المؤلفات الافرنجيّة . وذلك نفس ما حدث في مصر بعد الاحتلال[٤] .

بيد ان حركة الترجمة لم تنقطع اذ تناولها الكتّاب ومحرّرو الصحف يروون بها ظمأ الجمهور الذي اخذ يتعطّش للمعارف الجديدة[٥] . واقدم المجلات الحيّة التي عنيت بذلك واشهرها مجلة المقتطف التي انشئت سنة ١٨٧٦ في بيروت ثم انتقلت الى مصر في سنتها التاسعة ، وكانت ولا تزال صلة وصل بين الثقافتين الغربيّة والشرقيّة . وهناك عشرات غيرها من الصحف التي ساهمت في هذه الخدمة الثقافيّة[٦] .

ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان اكثر ما كان يقدّم لجمهور القراء منذ اواخر

---

(١) من اراد ان يعرف بتفصيل اخبار المترجمين منذ ايام محمد علي الى القرن الحالي فليراجع ما يلي – كتاب « حركة الترجمة في مصر خلال القرن التاسع عشر » لامين المكتبة الملكية الخاصة جاك تاجر والجزء الرابع من كتاب « تاريخ اداب اللغة لزيدان من ص ١٨٦ الى ٢١٧ .

(٢) هيوارث دنّ في المقتطف ١٠٣ - ٢٩٣ .

(٣) هـ . ا . ر . جب – مجلة الطريق (بيروت) ٢ ع ١٥ ص ٧ .

(٤) راجع مقال البشري في الهلال ٤٥ - ٦٤٤ .

(٥) راجع في الهلال ٣٥ – ٥٧١ مقالا لمحمد كرد علي يثبت فيه طائفة كبيرة من نقـــلة العلوم والآداب الافرنجية .

(٦) راجع في الجزء الثالث من حوليات معهد الدروس الشرقية في الجزائر مقالا للمستشرق الافرنسي هنري بيريس ، وفي مجلة الرسالة مقالا لاحمد الزيات ٤ - ١٨٦٢ . وراجع ايضا مجلة الزهور ١ - ٦٨

القرن الماضي حتى اواخر الثلث الاول من القرن الحاضر هو من قبيل الترجمة والاقتباس . وقد اصاب من قال « ان القرن التاسع عشر كان بالنسبة لحركتنا الفكرية الحديثة عصر ترجمة وان هذا العصر لا يزال يمتد الى اليوم »(١٩٣٦)[1]. ولنمثّل على ذلك بالقصّة العربية فقد جمع امين دار الكتب في بيروت معجما لما اثبت فيه نحو عشرة آلاف قصّة (بين صغيرة وكبيرة) مترجمة عن مختلف اللغات[2] . فلا غرابة ان يقول المستشرق الروسي كراتشقويفسكي فيها انها انما نشأت بتأثير الادب الاوروبي المباشر[3] . وما يصدق على القصّة يصدق على سائر انواع الكتابة .

وغير نكير ان ادبنا الحديث قد اخذ يتحرّر من ربقة التقليد والنقل ويسير في طريق الانتاج الحرّ ، على ان الترجمة ما زالت ذات شأن هامّ في حياتنا الادبية .

هذا من حيث النثر وهو كما راينا باب واسع جدا . ومن الطبيعي ان يكون الاقبال على الترجمة فيه اكثر من الاقبال على ترجمة الشعر . فالشعر للخاصّة وفي نقله من المشقة الفنيّة والتضحية بالوقت ما يحول دون التوفّر عليه . ومع ذلك نرى جملة من ادبائنا قد رضوا بتحمّل هذه المشقّة وهذه التضحية لينقلوا الينا شيئا غير قليل من روائع الشعر الافرنجي واظهر ما يكون ذلك في الحقبة الواقعة بين الحرب العالمية الاولى والحرب الثانية وهي حقبة الانتداب الاوروبي على الاقطار العربية ، وقد كثر في خلالها النقل (وخصوصاً عن اللغتين الانكليزية والافرنسية) . ويكاد يكون مستحيلاً علينا ان نحصي في هذا المقام جميع ما نشر من ذلك بين الناطقين بالعربية ولاسيما سكان مصر ولبنان اللتين كانتا ولا تزالان اهمّ المراكز للتبادل الفكري بين الغرب والشرق العربي، فنكتفي باثبات بعض الامثلة مبتدئين بما نقل عن اللغات القديمة واشهره ما يلي —

---

(١) محمد عبدالله عنان في الهلال ٤٥ - ٩٧١

(٢) هو الاستاذ يوسف داغر . راجع له ايضا مقالا في مجلة الاديب (بيروت) ٦ ج ٩

(٣) راجع اقواله في الرسالة (مصر) ٤ ص ١٦٦٩ و١٨٠٨ - ١٨١٠ .

الالياذة

نظمها باليونانية القديمة شيخ الشعراء هوميروس . وقد اهتم الاوروبيون بها ونقلوها الى عدد من لغاتهم وفي السنة ١٩٠٣ اخرجت المطبعة العربيّة ترجمةً شعرية لها بقلم سليمان البستاني .

وكان في اول امره يعتمد الترجمات الاوروبية ثم رأى ان يدرس اليونانية ليتناول تعريب الالياذة من اصلها[١] . وقد قدم لها ببحث ضافٍ . فجاءت سفراً عظيما جديرا بمطالعة المتأدّبين . ولم يتقيد في ترجمتها باسلوب القصيدة ذات القافية الواحدة بل نوّع النظم على طرق شتى ووسّع لنفسه باستنباط ضروب غير مطروقة على انه لم يخرج عن اصول الشعر العربي[٢] .

واليك مثالاً من نظمه وهو مأخوذ من النشيد السادس . وفيه يظهر البطل هكطور مع زوجته وكانت قد فقدت والدها واخوتها في الحرب فهي تحاول ان تصرف زوجها عن القتال رفقاً بها وبطفلها فتقول —

انت بعلي انت كلُّ الأربِ
انتَ كلُّ الاهل لي اذ انت حيّ آهِ فارحمْ وانعطف رفقاً عليّ
آه فارفق بي وبالطفل لديّ

انّما هو فتأبى عليه أنفتَه وحميّته ان يتقاعد عن مساعدة قومه . فيجيبها —

لستُ ارضى العارَ ان تعلُ النصولْ او عن الميجاء يثنيني الخمولْ

على انّ الذي يخشاه هو ان تصبح امراته بعد موته سبيّة الاعداء فيقول من قلب متألم —

سوفَ تندكُّ بأليونَ القلاعْ وتوافينا المُلمّاتُ الفِظاعْ
كلُّ هذا منه قلبي لا يُراعْ

(١) مقدّمة الالياذة ١٠٢
(٢) مقدّمة الالياذة ٧٠ و٧١ .

لا اذا أُمّيَ في الـــترب ثوَتْ او ابي من دمه السُّمرُ ارتوتْ
او رميمَ الاخوة الارضُ احتوتْ لا اذا الطـــرواد بادوا واذا
خرق الزرقاء للجوّ العويـلْ

. . .

بَيد انّ الخطب كلّ الخطب آه ان تكوني من سبّيـات العداه
تذرفين الدمع عن مرّ الحياه
تستقين المـــاء كالعبد الاسير من « مسيس » او ينابع « هفير »
تنسجين القطن والقلب كسير كلّ بؤسٍ كلّ رزء وعنـــا
كلّه ان حلّ ذا الرزء قليل

. . .

كلّه لا شيء ان صحّ الصحيحْ ولديهم كنتِ والدمـع يسيح
والذي يلقاكِ بي هزءاً يصيح
تلكمُ زوجةُ هكطور الشديد خيرِ ما في القوم من قرمٍ عنيد
تلّ صدر الجيش تلّاً وهنـــا سُبيت زوجتـــه وهو تليـــل

وهكذا الى آخر هـذا النشيد . وهو نقطة من بحر اذ تبلغ الالياذة نحو احد عشر الفاً من الابيات[١] . وليست الالياذة الشيء الوحيد الذي نقل حديثا عن ادب اليونان[٢] .

رباعيات الخيام

وهي كالالياذة في انها نقلت الى لغات اوروبا قبـل ان تعرف في ادبنا الحديث . واول ترجمة عربية لها هي التي نشرها نظماً سنة ١٩١٢ وديع البستاني معتمداً فيها بالاكثر ترجمة فيتزجرلد الانكليزية[٣] . ثم تصدّى لنقل الرباعيّات

(١) وقد ترجمت الاليـاذة عن الانكليزية في قصة نثرية عنبرة سلام الخالدي متابعة فيها قصة الالياذة لالفرد تشرش

(٢) راجع مثلاً ترجمة فيجينا في اوليد لشبلي شميل ـ الهلال ٢٥ ـ ٦٤٠ . وبعض مواقف الاودسي لدريني خشبه (نثراً) ـ مجلة الكتاب (مصر) ١ ـ ٨٩٦ .

(٣) وعن الانكليزية ترجمها السباعي نظما وتوفيق مفرّج نثراً .

رأساً عن الفارسية عدد من الادباء ومعظمهم من العراق فنقلها نظماً جميل الزهاوي، واحمد الصافي النجفي، واحمد رامي ، وعبد الحق فاضل ونثراً احمد حامد الصرّاف. وها نحن نثبت بعض الامثلة وفيها تظهر روح عمر الخيام المشبعة بالتهكم واللامبالاة . فمن ترجمة الزهاوي (١٩٠٨) وكلها من بحر الخفيف . وقد قرنها بترجمة نثرية ايضاً .

إطو كشحاً عن العلوم جميعا   اي نفـــع من العلوم اتانا
ثم أوسع دم الاباريق سفكاً   قبل ان يسفك الزمان دمانا

...

كثرت في صحوي وسكري الظنون   ورموني بالكفر والكفر دينُ
لا ابالي بظنهم بي فـــاني   ملك نفسي كما اشاء اكون

ومن ترجمة احمد الصافي ما يلي ولم يلتزم فيها بحرا واحدا —

فمن الطويل :

الهيَ قل لي من خلا من خطيئةٍ   وكيف ترى عاش البريء من الذنب
اذا كنت تجزي الذنب منّي بمثله   فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي

ومن الوافر :

يقول المتّقون غـــدا ستحيـــا   على ما كنتَ في هذي الحياةِ
لذا اخترتُ الحبيبة والحميّـــا   لأحشر هكذا بعد المماتِ

ومن الخفيف :

قال شيخ لمومسٍ انت سكرى   كلّ آنٍ بصاحبٍ لك وجـــدُ
فاجابت اني كمـــا قلت لكن   انت حقّاً كما لدى الناس تبدو ؟

اما ترجمة احمد الرامي (مصر) وترجمة عبد الحق فاضل[1] (انقره) فالاولى من بحر السريع والثانية من مجزوء الرمل .

وعلى ذكر الرباعيات نقول انها ليست الشعر الفارسي الوحيد الذي نقل ونشر حديثا في ادبنا العربي . ففي السنة ١٨٤٦ صدر بالعربيّة ديوان كلستان

---

(١) وقد صنفها بحسب معانيها . راجع امثلة منها في الاعداد ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٠٥ من مجلة الثقافة السنة العاشرة .

السعدي بقلم جبرائيل مخلّع[١] . وفي السنة ١٩٣٢ نشرت لجنة التأليف والنشر بمصر ملحمه الشاهنامه للفردوسي وكان قد نقلها نثراً الى العربية الفتح بن علي البغدادي (وذلك في القرن السابع الهجري) فاكملها في عصرنا وصححها ونظم بعض مقاطعها عبدالوهّاب عزام . وممن نظم قطعاً منها عباس ميرزا الخليلي[٢] .

ولنذكر هنا استطرادا ان وديع البستاني قد نقل ايضا من الادب الشرقي عدداً من الروائع الهندية القديمة[٣]

الكوميديا الالهية

نقلها عن الايطالية نثراً قصصيّاً عبود ابو راشد وطبع الجزء الاول منها (الجحيم) سنة ١٩٢٦ والجزء الثاني (المطهر) سنة ١٩٣١ والثالث (النعيم) سنة ١٩٣٢ . وترجم الجحيم عن الايطالية بنثر شعري تابع فيه الاصل المحامي امين ابو شعر وقد صدرت ترجمته عن مطابع الارض المقدسة سنة ١٩٣٨ وهي حريّة ان يطالعها من يودّ ان يعرف شيئاً عن روح هذه الملحمة الخالدة هـذا اذا لم يكن قد اطلع عليها في احدى اللغات الاوروبية

الترجمات المتأخرة

ولننتقل الآن الى ما نقل من المنظومات الغربيّة منذ القرن السابع عشر ومعظمه عن الافرنسية والانكليزية ثم الالمانية .

عن الافرنسية : نقل شيء كثير لقدماء الادب الافرنسي واشهرهم لافونتين وموليار وراسين وكورنايل . فحكايات لافونتين معروفة واول من نقلها الى العربية على ما نعلم الشاعر المصري محمد عثمان جلال[٤] المتوفّى سنة ١٨٩٨ . ثم في سنة ١٩٣٤ نشر الاب نقولا ابو هنا المخلّصي ترجمة شعرية لما هي اوفى وافضل

---

(١) آداب القرن التاسع عشر للويس شيخو ص ١٠ – وتاريخ اداب اللغة لزيدان ٤ - ٢٢٩ .

(٢) راجع المقتطف ٨٥ - ٥٠٦ .

(٣) راجع الثقافة ٩ ع ٤٢٩ ص ١٢ .

(٤) شعراء مصر للعقاد (١٩٣٧) ١١٣

ترجماتها . وفي سنة ١٩٤١ نشر جبران نحاس مختاراتٍ منها نقلها نظماً الى العربية ولا شكّ ان احمد شوقي كان متأثراً بهذا الشاعر الافرنسي يوم نظم حكاياته الحيوانية التي تجدها في اول طبعة من ديوانه (او في الجزء الرابع المطبوع بعد وفاته)

ومما يرجع ايضا الى القرن السابع عشر رواية السيد لكورنايل وقد نقلها الى العربية نجيب الحداد المتوفى في سنة ١٨٩٩ وكذلك محمد مسعود الذي ترجمها نثراً ورواية البخيل لموليار بقلم مارون نقاش وعدد من مسرحيات موليار بقلم الياس ابو شبكه .

واذا انحدرنا الى القرنين الاخيرين (التاسع عشر والعشرين) برز امامنا في ادبنا الحديث اسماء افرنسية عديدة نذكر منها فكتور هيكو – لامارتين – الفرد دي موسه – الفرد دي فيني – بودلاير – ادمون روستان – جان لاهور – بول فاليري – فيرلين – سوللي برودم ، وسواهم . وآثارهم الشعرية منتشرة في المجلات العربية نثراً ونظماً . وقد ساهم في نقل هذه الاثار عدد غير قليل من الادباء امثال – قسطاكي الحمصي وامين الحداد ونقولا فياض وشبلي ملاط[1] . ومن لم يد تذكر طه حسين[2] – ابرهيم سليم النجار[3] – مهدي البصير[4] – خليل هنداوي[5] – احمد ابو الخضر منسي[6] – اميل زين[7] – احمد حسن الزيات[8] –

---

(١) راجع امثلة من ترجماتهم في كتاب مجالي الغرر لصفير (١٩٠٤) ص ١ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٩ - ١٣٠ - ٢٢٨ وفي مجلة الكتاب ١ ج ١٠

(٢) راجع كتابه حافظ وشوقي ٤٦ - ٥٣ .

(٣) المقتطف ٥٤ - ١٥٣

(٤) مجلة المعلم الجديد بغداد (حزيران ١٩٣٦) .

(٥) له شيء كثير ومنه في المقتطف ٨٩ – ٤٦٩ وفي الرسالة السنة الاولى والسنة الثانية والجمهور ١ ع ١٢ .

(٦) المقتطف ٩١ - ١٢٥ .

(٧) البرق (بيروت) ع ٣٤١٨ .

(٨) مترجم رفائيل للامارتين والشاعر المحتضر لهيغو وله قطع شتى في مجلة الرسالة ومختارات من الادب الافرنسي .

ناجي طنطاوي[١]– احمد فتحي المرسي[٢]– فواد نورالدين[٣]– معروف الارناؤوط[٤] – عبدالوهاب حومد[٥] – محمد مندور[٦] – سامي الدهان [٧]– صلاح الدين المنجد[٨]– محمد كزما[٩] – الياس ابو شبكه[١٠] – ابرهيم المصري[١١] – علي شرف الدين[١٢]– ومصطفى عبدالرحمن[١٣]

اما مدى تاثير الادب الافرنسي في ادبنا الحديث فلا يمكن تحديده ولكننا لا نكون مخطئين اذا قلنا انه واسع . وقد نشر الياس ابو شبكه سنة ١٩٤٥ كتابا عنوانه « روابط الفكر بين العرب والفرنجه » اكثره يدور على ما للادب الافرنسي من تاثير في الادب العربي وغيره وقد كان هذا الشاعر من اكثر الادباء تاثرًا به .

والذي يلاحظ ان اكثر الترجمات مسبوكة في قالب الشعر المنثور او النثر الشعري على ان كثيرا منها جاء منظوماً كما فعل نقولا فياض وشبلي مـّلاط وعلي محمود طه في ترجمتهم لبحيرة لامارتين . وعبدالوهاب حومد في قصيدة «الوحدة» لدي موسه وابو شبكه في قصيدة « تذكـّري » للشاعر نفسه وكذلك ابرهيم سليم النجار وحسين البشبيشي . وانك لتجد في كتاب « اعلام الشعر الافرنسي » عدداً من الترجمات الشعرية عن بعض ادباء فرنسا المشهورين .

عن الانكليزية : نقل نثراً كثير من مسرحيات شكسبير . وممن عنوا بذلك نجيب الحداد وخليل المطران وسامي جريديني، ومحمد عوض ابرهيم، وسواهم . وممّا

(١) الرسالة ٤ – ٣٨٩ والثقافة ٨ ع ٣٨١ . (٢) الرسالة ٤ – ١٤٣٢ و١٥١٢ .
(٣) الرسالة ٤ – ١٤٠ . (٤) الرسالة ٥ – ١٤١ .
(٥) مجلة الحديث (حلب) ١١ ع ٩ . (٦) الرسالة ١ ع ١ و٢ و٣
(٧) الرسالة ١ ع ١٢ . (٨) الرسالة ٨ ص ١٧١
(٩) الرسالة ١ ع ٥ . (١٠) ديوانه القيثارة ١٠٩ و١٢٦
(١١) مختارات من الشعر الافرنسي (دار الهلال ١٩٣٨) وله مجموعة من الشعر الغرامي اثبت فيه قسماً كبيرا من الشعر العالمي نقلا عن الافرنسية .
(١٢) ترجمة قصيدة لفكتور هيغو راجعها في الثقافة ٤ ع ٣١٨ ص ٢٨–الثقافة ٥ ع٢٤١ ص٢٤
(١٣) الثقافة ٧ ع ٣٥٣ ص ٦

نقل نظما رواية ماكبث بقلم محمد عفت[١]، والليلة الثانية عشرة بقلم احمد باكثير[٢].

وهناك عدّة مقطوعات مثل تأبين ماركوس انطونيوس لقيصر بقلم عيسى اسكندر المعلوف[٣]، وفينوس على جثة ادونيس بقلم عباس العقاد[٤]، وفينوس وادونيس بقلم اسبيريدون ابو مسعود[٥]، والدسيسة بقلم فواد الخطيب[٦]، وخنجر ماكبث نظم حافظ ابرهيم[٧].

وقد ترجم لغير شكسبير مختارات شتى من شعر ملتون وبيرون وكيتس ولونغفلو وبطلر وشلي وروزتي ووردسورث وتنسون وغراي وهاردي وكبلنغ وماسفيلد وتوماس مور وسواهم[٨]. ونخص بالذكر منها ثلاث روائع الاولى تشيلد هارولد Childe Harolde لبيرون ترجمها عبدالرحمن بدوي في اناشيد نثرية يتخللها شيء من الشعر ونشرها سنة ١٩٤٤، وهو يُعنى بترجمة عدد من روائع الادب الانكليزي. والثانية Prometheus Unbound لشلي نقلها نثراً لويس عوض كما نقل ايضا Adonis للشاعر نفسه. اما الثالثة فالذكرى In Memoriam لتنيسون التي عرّبها نظماً كاتب هـذه السطور ونشرها سنة ١٩٢٥. وهي مجموعة نشائد تقع في نحو ١٨٥ صفحة. وقد تابع فيها المترجم ترتيب الادوار في الاصل الانكليزي واختار لجميعها البحر الخفيف وهو اقرب الابحر الى الاصل.

---

(١) المقتطف ٤٠ - ٢٠١ (٢) نشرت على حدة

(٣) المقتطف ٣٥ - ٨٤١ (٤) ديوانه ٢١

(٥) المورد الصافي ٥ - ١٨٦ و٣٩٤ (٦) المقتطف ٨٤ - ٨٦

(٧) ديوانه (١٩٣٧) ١ - ٢٣٤

(٨) راجع الامثلة التالية: المقتطف ٦٧ - ٦٢٦ — المقتطف ٨٩ - ١٠١ — المورد ٢ - ٢٧٢ — المقتطف ٤١ - ١٣٦ — المقتطف ٥٧ - ٤٢٦ — المنتدى (القدس) ع ١ — الطليعة ٣ ج ١ — البرق ع ٣٣٧٣ — الرسالة ١ ع ٢٢ — الرسالة ١ ع ٨ — الرسالة ١ ع ١٠ — الرساله ١ ع ١٢ — الرسالة ١ ع ١٤ — الثقافة ٧ ع ٣٣٠ ص ١٦ — الرسالة ٤ ص ١٩٦٧ — الرسالة ٥ - ٧٧٨ — الرسالة ٦ - ١٨ — الرسالة ٥ - ١٨٣ — الرسالة ٢ - ١٤٧٢ — الرسالة ٨ - ٩٨ — الرسالة ٨ - ١٣١ — الرسالة ٨ - ٧٨٢ — الاديب (بيروت) ٣ ج ٥ — الاديب ٣ ج ١١ — الاديب ٤ ج ٦ — الطريق ٢ ع ٦ ص ٨ — الثقافة ٤ ع ٣٣٠ ص ١٦ — الثقافة ٨ ع ٤٠٧ — مجلة ابولو ٢ - ٤١٢ — المورد ٧ - ١٤٣

عن الالمانية : مما يذكر تحت هذا الباب بعض روائع « غوته » ومنها «فاوست» وهرمن دوريفه بقلم محمد عوض، وآلام فرتر بقلم احمد حسن الزيات، والديوان الشرقي والانساب المختارة بقلم عبدالرحمن بدوي . وبقلمه ايضاً اندين لفوكيه ، ومن حياة حائر بائر لأيشندورف . ومن الروائع الالمانية المترجمة ناثان الحكيم للسنغ بقلم الياس الحداد ، والحب والدسيسة لفردريك شلر بقلم حسن صادق واناشيد لهيني بقلم سليم سعده[١]، ودعاء الراعي وتمثال الحب لهيني ايضا الاول ترجمة ناجي[٢] والثاني ترجمة منظومة لمحمد عبداللطيف النشار[٣] . وهناك قطع اخرى بقلم صبحي ابو غنيمة[٤] وجواد علي[٥] ومدحت مظلوم[٦] وشديد باز الحداد[٧].

. . .

ومما لا شكّ فيه ان هناك ترجمات اخرى من شتى اللغات الغربية . ولو جُمع كلّ ما نقل الى العربية في هذه الخمسين سنةً الاخيرة من بابَي العلم والادب لتألف منه مكتبة كبيرة جدا . وليس من ينكر عمق التأثير الذي احدثه ذلك في ادبنا الحديث . فاهمَ كتابنا اليوم يعكسون لنا اثر الغرب في اختيار موضوعاتهم وطريقة معالجتهم لتلك الموضوعات . وقد اصاب فخري ابو السعود اذ قال[٨] — « ظلّ المذهب الكلاسيكي التقليدي سائداً في الادب العربي حتى اتيح له الاتصال بالآداب الغربيّة في العصر الحديث ، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجيّاً غبار التقليد والتقيد اللفظي والمعنوي واشرق عليه عصر نهضة رومانسيّة جديدة

هذا التأثير الغربي قد تغلغل في البلدان العربيّة حتى بلغ معاقل الحجاز[٩] وسواها من الاصقاع النائية . ويقول سعدالدين فوزي من مقال في مدرسة الادب السوداني

---

(١) مجلة الكتاب ٢ ج ٧ .
(٢) راجع كلمة ختامية في ديوان اطياف الربيع لاحمد زكي ابو شادي .
(٣) الهلال ٢٥ — ١٥١ .
(٤) مجلة الحديث (حلب) السنة ١٩٢٩ ع ١ والرسالة ٤ — ٢٨٩ .
(٥) الرسالة ٧ — ١٥٩٦ .
(٦) جريدة الاخاء الوطني بغداد عدد ١٤ آب ١٩٣١ .
(٧) المورد ١١ ص ٢٢٤ و٣٢٨ .
(٨) الرسالة ٥ — ٣٧٦ .
(٩) راجع مقال احمد عبدالجبار في المكشوف (بيروت) ٦ ع ٢٦١ .

الجديدة وان هذه المدرسة تأثرت اولا بالادب المصري ثم تشربت روح الآداب الغربية واهتزت لادباء المهجر[١]». وانّ نظرة واحدة على حياتنا الادبية والعلمية كافية لان تريك ان معظم القائمين بالنهضة الحديثة هم من ذوي الالمام باللغات الاجنبية او من الذين اتيح لهم التوسّع العلمي في المعاهد الغربية[٢].

على انه قد يلاحظ ان لهذا الاتصال الشديد بالغرب على حسناته وجهة سيئة. فقد نشأ عنه في بعض البيئات العربيّة طبقة تكاد تنقطع الصلة بينها وبين لغتها الاصلية وتاريخها الادبي فلم تساهم مساهمة فعّالة في حركة التجدد القومية التي يمتاز بها عصرنا الحاضر. وانما قام بهذه الحركة فريق آخر جلُّهم من الذين قرنوا دراستهم للاداب الافرنجيّة بتوفّرهم على درس ادبهم القومي والمحافظة على اساليبه اللغوية. فانّ التجدد ليس تقليداً اعمى للامم الاخرى تضيع به الشخصيّة الوطنيّة، بل هو نموّ داخلي قائم على فهم اعمق واوسع للحياة والطبيعة — هو تطعيم التراث الادبي للامّة بروح الحضارة الجديدة حتى ينمو نمواً سويّاً. وذلك ما تتجه اليه نهضتنا الادبيّة على ايدي الادباء المجدّدين وله في النثر والشعر ظواهر عامّة اهمّها ما يلي —

في النثر — تجدّد الاسلوب الانشائي
تطوّر الفنون الكتابية

في الشعر — التصميم الفكري او المحافظة على الوحدة في النظم
التسامي الخيالي او توخّي الروعة البيانية
حريّة الاخراج - او التفنن في اساليب التعبير

وسنحاول في الفصول التالية شرح هذه الظواهر وتبيان ما بلغته حتى الان.

* * *

ولقد يجدر بنا ان نتساءل هنا : هل قدّم الشرق العربي الحديث للغرب شيئاً مقابل ما اخذ هو عن الغرب ؟

واول ما يتبادر الى الذهن عند التفكير في هذا السؤال ان الشرق مقصّر

(١) الرسالة ١٢ ع ٥٩٦ .

(٢) راجع مقال اثر الادب الافرنسي في ادباء مصر المكشوف ٥ ع ٢٠٥ .

في هذا المضمار اذ هو لا يزال الى حدّ كبير عالةً على الفكر الغربي يستقي من مناهله ويهتدي بانواره، بخلاف ما كانا عليه في القرون الوسطى .

على انه يجب ان لا ننسى بين امس واليوم ما طرأ من تغيّر في احوال الشرق والغرب . ففي القرون الوسطى كان العرب تقدّم على سواهم بما نقلوه من علوم الاقدمين وما وصلوا اليه من العمران . وكانت لهم فوق ذلك سيادة سياسية تستطيع فرض لغتهم على العالم . اما اليوم فهم في بدء يقظة من سبات عميق من الانحطاط غشيهم قروناً بعد ان ذهبت سيادتهم واضمحلّت حضارتهم وانحطت لغتهم . فلا ينتظر ان يمثّلوا دوراً يذكر على مسرح الادب العالمي الا بعد ان يتوطّد استقلالهم واتّحادهم وبعد ان يمرّ عليهم من الزمن ما يرفعهم الى مصاف الامم الناهضة فيكفل للغتهم مكانة مرموقة بين اللغات الحيّة .

على انه برغم ذلك قد خطوا خطوة تذكر في هذا السبيل . وذلك ما عناه طه حسين بقوله — « قد كنّا منذ حين نتأثر بالغرب ونسعى اليه ونقتبس منه ونريد ان ننقله الينا — ان صح هذا التعبير — لكنّ الامر تغيّر في هذه الايام فقويت شخصية الكتّاب والشعراء حتى آمنت بنفسها وآمن بها الناس من حولها في الشرق والغرب جميعاً[1] . » ومثل ذلك ما يذهب اليه عبّاس العقاد[2] ، وجملة صالحة من المفكّرين .

ولهذا التغيّر مظهران رئيسيّان — الاول هذا الاستقلال الفكري الذي نشاهده في بعض ما ينشره اليوم عدد من كتّابنا وشعرائنا — والثاني في ما ينقل من ادبنا الى اللغات الاجنبيّة او في ما يضعه ادباؤنا بهذه اللغات .

فمن امثلة المنقول عن العربية الى لغة اجنبية « الايام » لطه حسين — « شهرزاد » « عودة الروح » لتوفيق الحكيم — « الاطلال » لمحمود تيمور — « تاريخ التمدن الاسلامي » لزيدان وبعض رواياته التاريخية — « على بساط الريح » لفوزي معلوف وغير ذلك .

اما الموضوع رأساً باحدى اللغات الاجنبيّة وقد نشرته بعض شركات النشر المعروفة في الغرب فنثبت منه الامثلة الادبيّة والتاريخية التالية :

---

(١) من مقال له في الرسالة ١ ع ٩ ص ٣٥ وع ١١ ص ٩

(٢) راجع قوله في الهلال ٤٥ ص ٦٤٨ — ٦٥٢

النبي – لجبران جبران	The Prophet
المسيح السوري – لابرهيم الرحباني	The Syrian Christ
حول الجزيرة العربية – لامين الريحاني	Around the Coast of Arabia
دراسات في تاريخ المورو وشريعتهم ودياناتهم للدكتور نجيب الصليبي	Studies of Moro History, Law and Religion
يقظة العرب – لجورج انطونيوس	Arab Awakening
مسرحية عنتر – لشكري غانم	Antar (drame en verse)
قيس وليلى – لخيرالله خيرالله	Cais
تاريخ العرب – لفيليب حتي	History of the Arabs
المحفوظات الملكية في مصر – لاسد رستم	The Royal Archives of Egypt
الجبل الملهم – لشارل قرم	La Montagne Inspirée
سوريا ولبنان – لالبرت حوراني	Syria and Lebanon
قصّة عربي – لادورد عطيّه	The Story of an Arab
ابن خلدون – لشارل عيساوي	Ibn Khaldun

ولبعض هؤلاء الكتاب ولسواهم غير ما ذكرنا من المؤلفات الافرنجية المعروفة هذا فضلاً عمّا وضع في الحقول الطبيّة والعلمية[١] وسواها .

ولا يُنكر ان ذلك لا يقاس بما اخذته العربية عن شتى اللغات الحديثة على انه يدلّ على تطوّر في حياتنا الفكرية والامل ان هذا التطوّر سينتهي قريباً الى ان يصبح ادبنا في مصاف الاداب العالمية العظيمة . وانما يكون ذلك اذا اصبح للعرب كيان عالمي محترم ولغة عالمية محترمة واسّسوا حياتهم الفكرية على الاسس الراسخة التي تقوم عليها الحضارات الراقية .

---

(١) لزيادة الاطلاع – راجع ما نشره معهد الشؤون العربية في نيويورك سنة ١٩٤٦ تحت عنوان Arabic - Speakinq Americans وراجع كذلك كتاباً لرشيد لحود عنوانه La Littérature Libanaise de Langue Française.

تجديد الاسلوب الانشائي

ان من يلقي نظرة على الكتابة في القرن الاول الهجري يلاحظ فيه مجريين مختلفين احدهما فنّي يغلب عليه السجع وهو يكاد ينحصر في الشؤون الدينية والاخلاقية ، والثاني طبيعيّ مطلق من قيود السجع وهو شائع في المعاملات العمومية من سياسية وادارية . ومنذ اوائل العصر العبّاسي بدأ شيء من التحوّل في النثر العمومي المطلق . فبرز فيه اسلوب التوازن الذي بلغ اوجه في ترسّل الجاحظ وهو نثر تسوده الاناقة الفنيّة دون ان يتقيد بسجع او بديع . ولكن لم يكد ينتصف القرن الرابع للهجرة حتى طغا السجع والتأنّق البديعي على النثر الادبي . وزاد طغيانها مع الايام فكانت طريقة ابن العميد ثمّ طريقة القاضي الفاضل ومن جرى مجراهما في الشرق والغرب . وعلى ذلك سارت الكتابة في التاريخ حتى بدء نهضتنا الاخيرة . ولا يدخل في ذلك النثر التصنيفي او العلمي فانه نشأ وظلّ حرّا لم يتقيّد الا نادراً بقيود الصناعة الادبيّة .

والذي يلاحظ ايضاً ان قدماء المترسلين من اهل القرنين الرابع والخامس وما بعدهما كانوا مع تأنقهم البديعي يعنون بمتانة اللغة والعبارة ولكن الزمن حمل معه بذور الفساد . وكان العهد العثماني تربة صالحة لها فنمت تدريجيّاً وما زالت حتى اينعت وتفاقم امرها في القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر للميلاد حين بلغ الانشاء العربي الحضيض مكتسياً اطمارا بالية من الغثاثة والركاكة .

فلمّا بزغت تباشير النهضة في القرن الماضي كانت الكتابة العربية لا تزال ترسف في قيدين ثقيلين — قيد الصناعة البديعيّة المتكلّفة وقيد الركاكة العامية . وكان الاول اظهر في الترسّل الادبي والثاني في الترسّل الديواني . على انهما كثيراً ما كانا يجتمعان معاً في باب واحد . ولايضاح المراد من قولنا «الصناعة البديعيّة المتكلّفة » والسائدة في ذلك العصر نثبت هنا القطعة التالية من فصل دبّجه كاتب مصري سنة ١٨٧٨ تقريظاً لمجلة المقتطف قال[١] —

(١) الشيخ القوصي في المقتطف ١١ — ٤٩٢ .

« من سرّح في طروس المقتطف انسان الاحداق باقدام الاهداب . وسيّر في نَيصب صردح سطوره طرف الالباب ، وجده قلهْدم علمٍ يلفظ على ساحل العقول جواهر الدقائق ، ويغسل نقع الاوهام عن محيّا الحقائق »

والفصل طويل وكله من هذا الطراز التقليدي الفارغ . ومن هذا الباب ما كتبه الشيخ علي الليثي احد كبار الادباء في العهد الاسماعيلي بمصر اذ قال من رسالة[١] — « حمداً لمن اجرى اودية الآداب على السنة اصحاب الاذواق . وامرى بقلوبهم من غياهب ليل التقليد الى حضرات الاطلاق . فلمحوا من خلال استار المعاني كلَّ لطيفة ، وسرحوا في جمال ازهار المعاني بهمم شريفة . فتصرّفوا في اعنّة اليراعة بكل مضمار ، وتشرّفوا باسنّة البراعة في حلبة الفخار » . ومثل ذلك كثير شائع[٢] . الى مثل هذه الكتابة يشير جرجي زيدان اذ يقول منتقداً طريقة بعض الكتاب في استعمال غير المألوف من الكلام ظنّاً منهم ان ذلك يبرهن على براعتهم الانشائية[٣] — « وقد قرانا في كتاب صدر بالامس عبارة تمثّل ما نحن بصدده اراد بها كاتبها وصف المتحاربين فقال : وقد هاجت منهم الضراغم ، وطارت القشاعم ، وثارت الغماغم ، وماجت الخضارم »

ويدلك على شيوع السجع والبديع في القرن الماضي ان كلية القصر العيني الطبيّة كانت شهاداتها تكتب حينا من الزمن بهذا الشكل التقليدي المتكلف[٤] . وهو شيء نستغربه نحن الآن ولكنه كان يومئذ عادة مألوفة وطريقة متبعة . وممّن تنبّهوا الى انها طريقة « عقيمة تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن باطن معناه » فارس الشدياق وذلك بعد ان مارسها وسار فيها شوطاً بعيداً[٥] .

---

(١) راجعها في الهلال ٢ — ٤٢ — ٣١٩

(٢) راجع لزيادة الايضاح — رسالة لابرهيم الاحدب — في مجلة الكوثر ١ — ٣٢ — رسالة لعبدالله فكري في منتخبات الجوائب ٥ — ١٠٤ — وصف الحرب السبعين في مجلة الجنان السنة ١٧٨٠ ص٤٨٤ — رسالة الشيخ صالح قطنا في مجلة المجمع العلمي العربي ١٥ — ٢٣١ — رسالة لبطرس كرامه في ديوانه ٩٠ — وراجع كتابنا تطور الاساليب النثرية ص ٣٦٦ — ٣٧٤ .

(٣) الهلال ٥ — ٧٣٤ .

(٤) راجع نصها في المقتطف ٤٠ — ١٥٣ ويرجع عهدها الى نحو ثمانين سنة فقط

(٥) الفارياق ١ — ١٣ .

اما الركاكة العامية فكانت سائدة في الدواوين الاميرية ، وكانت لغة هذه الدواوين احيانا مزيجاً غريباً من العامية والتزويق البياني . وظلّت العاميّة تسود الكتابة الديوانية حتى منتصف القرن الماضي بل والى ما بعد ذلك كما ترى في النطق الخديوي امام مجلس الشورى المصري سنة ١٨٧٦[١] وفيه يختلط الكلام الصحيح بالعامي ، وبين ايدينا كثيرٌ من الكتابات الرسمية التي تدل على ما بلغته لغة الدواوين في النصف الاول من القرن الماضي[٢] .

فلا غرابة ان نسمع شكوى بعض المتأدبين يومئذ من هذه الحال ودعوتهم الى اصلاح اللغة ونبذ الالفاظ والعبارات الفاسدة التي طغت عليها والرجوع الى المناهج التي اختطها الائمة السابقون كما تتجلى في نهج البلاغة واقوال الجاحظ ورسائل ابن المعتز والخوارزمي والزمخشري وبديع الزمان والحريري وامثالهم[٣]. واتقان القواعد الصرفية والنحوية وحفظ المأثور من الشعر والنثر .

في هذا السبيل اتجه التجديد اوّلاً فتمكن روّاد النهضة من احياء اللغة ورفع المستوى الانشائي وحمايتها من اسفاف العامية وركاكة العجمة . على انهم ظلوا متمسكين باهداب التكلّف البديعي فلم يتحرر الانشاء منه الا تدريجياً وقد اعان على هذا التحرر امران رئيسيّان تطور المدرسة ونشوء الصحافة .

فالمدرسة — كانت في اوائل القرن الماضي محصورة في الدير او المسجد[٤] . وغاية ما تقوم به تعليم الاحداث مبادىء القراءة والحساب والخطّ . وظلّت على ذلك حتى اشرقت في البلاد انوار الحضارة الغربية فانتظم التعليم وارتقت اسبابه. وهكذا اخذت المدارس الحديثة من ابتدائية واستعدادية وعالية تظهر هنا وهناك وما لبثت ان عمّت قسما كبيرا من الشرق العربي . وقد اقتضى هذا التطوّر المدرسي تحسين التعليم اللغوي ووضع الكتب الموافقة للحياة العصريّة . وما زالت حركة التحسين المدرسي مستمرّة حتى الآن وهي من الاسباب الرئيسية في تهذيب

---

(١) مجلة الجنان ١٨٧٦ ص ٨٣٤ .

(٢) راجع الاصول العربية لتاريخ سوريا (تاليف اسد رستم) ففيه مئات من الامثلة .

(٣) راجع مقال « مسخ اللغة » في المقتطف ١٠ — ٦٥٤ .

(٤) راجع الهلال ٩— ٢٣٥ ومجلة المباحث (طرابلس) ١—٢١٤ و٢١٥ — ووصف المدرسة القديمة لمارون عبود في مقدمة كتابه روّاد النهضة الحديثة .

لغة الانشاء وتحريرها من قيود السجع والبديع ، وكذلك كان شأن الصحافة .

فالصحافة بدأت هزيلة ضعيفة اللغة مع ميل الى تسجيع العبارة . وهاك مثلاً ما جاء في فاتحة العدد الاول من الوقائع المصرية –

« الحمد لله باري الامم ، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم . اما بعد – فان تحرير الامور الواقعة مع اجتماع بني آدم ، المتدبّجين في صحيفة هذا العالم ، ومن ائتلافهم وحركاتهم ، وسكونهم ومعاملاتهم ، ومعاشراتهم التي حصلت من احتياج بعضهم بعضا ، هي نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبير والاتقان ، واظهار الغيرة العمومية وسبب فعّال منه يطّلعون على كيفية الحال والزمان . »

وهكذا الى آخر الكلام الذي تستطيع ان ترى الفرق العظيم بينه وبين لغة الصحافة اليوم .

وفي تطور لغة الصحافة يقول احد كبار المحرّرين – « وبعد ان كان الصحفي البارع من يدبّج الفصل الطويل المسجّع يملأ به صفحات جريدته وان خلا من المعنى وضاع المراد منه في الحشويّ من الكلام ، بات الصحفي من يعـــالج موضوعه معالجة المصوّر يرسم ما يريد تصويره حتى يبرز لعين النـاظر صحيحا سليما »[1] . ولا شك انه قد كان لتقدم العالم العربي عمرانيّاً وتزايد احتكاكه بالعالم الخارجي يد في تقدم الصحافة ونموّها اذ صار الجمهور يعتمدها للاطلاع على الاخبار وتحرّي المعلومات العامّة . وذلك بدوره كان حافزاً للصحفيين على ارضاء الجمهور بتقديم الاخبار والمعلومات له في شكل سهل مستساغ .

وبتقدّم الصحافة اتسع ميدان العمل امام الكتبة وصاروا يستخدمونها لنشر رسائلهم وعرض افكارهم وخواطرهم . وكثير من كتب الادب جمعت من رسائل نشرت اولاً في الصحف .

فلا بدع ان يتحدث طه حسين في مقـــال له عن الحرب الضروس بين المذهبين القديم والحديث فيقول ان ارباب الصحافة « هم الذين شبّوها وهم الذين عملوا بواسطة صحافتهم عـلى تفكيك الاغلال الفنيّة القديمة » ثم يصف الطريقة بقوله – « ان الكثرة المطلقة من الذين يقرأون الصحف والكتب حريصون على

---

(١) من مقالى لداود بركات موضوعه « الصحافة ماضيها وحاضرها » في الهلال ٢٦ – ٩١ . راجع ايضا لاحمد امين مقالا موضوعه « اول مجلة مصرية » في الثقافة ٣ ع ١٠٣

شيئين ـ الاول ان يقدّم اليها نثر فصيح مستقيم اللفظ نقيّ الاسلوب بريء من الابتذال حرّ من اغلال البديع والبيان، والثاني ان يكون هذا النثر على ما قدمنا ملائمًا لذوقها الجديد وميولها الجديدة قيّماً في معناه كما هو قيّم في لفظه، حرّ في معناه كما هو حرّ في لفظه ايضاً[1] .

فلا مراء ان التوسّل العربيّ قد تطوّر تطوّراً محسوساً منذ بدء النهضة في القرن الماضي . واظهر ما يكون ذلك في العهد الذي برزت فيه الصحافة وتيسر للكتاب بواسطتها محادثة الجمهور فاضطروا الى ترك الطريقة القديمة والاخذ ـ كما يقول جرجي زيدان ـ بالاساليب الجديدة التي اقتبسوها عن مطالعة الآداب الافرنجية[2] .

ولا يعني ذلك ان التجديد انما هو تقليد الافرنج واستعارة مصطلحاتهم واوضاعهم ، بل ان الاستنارة بنور العلوم الحديثة وتوسّع الافق الادبي بالاطّلاع على الفكر الغربي والاخذ باسباب الحضارة الجديدة قد اوحت الى الكتبة الرغبة في البساطة ومباشرة المواضيع دون تعمل او زخرفة . وقد اجمل عباس العقاد وصفه لتطور النثر في المئة سنة الاخيرة بقوله[3] « سجع محفوظ الفواصل والقوافي يتردد على كل قلم ويُزجّ في كل موضوع ـ ثم ارتقى الى سجع يبتكر الكاتب كثيرا او قليلا من الفاظه وقوافيه ـ ثم انطلق في اسلوب منمق مصقول لا تقوم فيه الاسجاع والقوالب ثم تعدّدت الاساليب والموضوعات فكثرت اساليب الادباء والصحفيين ووضح اثر الحريّة في الكتابة »

وللمقابلة بين الاسلوبين القديم والحديث نثبت هنا قطعتين لكاتبين معروفين توفيّا في هذا القرن . احدهما السيد توفيق البكري والآخر الدكتور يعقوب صروف . والقطعتان متماثلتان من حيث الموضوع لان كلًا منهما تصف قصراً من قصور اوروبا الشهيرة .

---

(١) راجع مقاله « النثر في نصف قرن » في المقتطف ٦٨ ـ ٢٦١

(٢) الهلال ٩ ـ ٣٥ ٤ والمنفلوطي في النظرات (طبعة ٥) ٣ ـ ١٣٥ ، وكراتشقوفسكي في الرسالة ٤ ـ ١٦٢٧ ، وهارتمان في The Arabic Press of Egypt (1899) ص ٣

(٣) راجعه في الهلال ٤٥ ـ ٦٤٨ وراجع ايضاً مقال عبدالعزيز بشري في نفس العدد من الهلال

قال البكري من فصل يصف فيه قصراً في فينّا[١] –

« وصلت الى ذلك القصر ففُتح الباب، وكشف الحجاب . فاذا جنّة وحرير، وملك كبير، ودنيا في دار، وليلٌ ونهار . ووجوهٌ تشرق، وحلىً تبرق . وحنيٌ كعطوف القسيّ، وصحون في فسحة الظنون تقدّر بالافكار لا بالابصار . وسقوف من مرمر » وارضٌ من عرعر، وكأنّ كلّ سقف لوح مصوّر، وكل ارض روض منوّر . » الى ان يقول – « وابواب كأنّها في حسنها ابواب كتاب، في مصراعين كعاشقين فتلاقٍ وافتراق .... وقام علــى الاركان تماثيل وتصاوير وانصابٌ وقوارير . فكأنما الدار زُون[٢]، او معرض فنون . وقد وضع في الأبهاء موقد للاصطلاء كانّ الجمر فيه نظرُ مُحنق ، او نار المحلّق[٣] . وتدلت الثريات كانّها اشجار مفتّحة الانوار، وكأن اقباسها آذان جياد او عيون جراد، او قطعُ افلاذ او صفائح فولاذ، او ذبال أسل ، او مرآة في كفّ الاشلّ . »

قابل هذا الوصف الذي يجري في سبيل الصناعة البيانية من سجع واستعارة وطباق وجناس وما الى ذلك، بوصف يعقوب صروف لقصر الدوقات في البندقية (فنيس) اذ يقول من فصل[٤] – « اما مقاصير هذا القصر وما فيها من الصور والتّحف فمّما لا يُستوفى وصفه الا في مجّلد كبير لان اعظم مصوّري البندقية ونقّاشيها افرغوا جهد صناعتهم وغاية ما وصل اليه حذقهم في نقشها . فزيّنوها بالصور التاريخيّة والخياليّة والنقوش والتماثيل » . وهكذا يأخذ بوصف احدى المقاصير وما عليها من الرسوم ثم يعقّب على ذلك بقوله – « وقد وقفت في هذه المقصورة ساعةً من الزمن حائراً مدهوشاً ولا ادري مّما دهشتي – أمن اتساعها الفائق ام من كثرة صورها، ام من بديع الوانها وإحكام رسمها، ام من صورة الفردوس فيها ؟ ولقد وددت لو ان الساعة صارت شهرا وعيني صارت منظارا حتى أُنعم النظر في كل صورة ومشهد واستخلص تاريخ هذه المدينة العظيمة من صور قصرها » .

---

(١) راجعه في كتابه صهاريج اللؤلؤ . وكل فصول الكتاب من هذا الطراز .

(٢) زون . موضع تنصب فيه الاصنام .

(٣) يشير الى بيت للاعشي يمدح فيه رجلًا اسمه المحلق فيقول وبات على النار الندى والمحلق .

(٤) المقتطف ١٧ – ٧٤٣ .

فهذا اسلوب حرّ مرسل لا تعمّل فيه ولا تأنّق وقد اصبح الآن الاسلوب السائد في جميع انواع الكتابة لا يشذّ عنه الا افراد قلائل ممّن يروقهم معارضة الاقدمين كما فعل احمد شوقي في كتابه « اسواق الذهب » او ممّن لا يعرفون غير التصنع في لغة العرب . وقديما انتقد المقتطف هذا التصنع فقال قبل نحو سبعين سنة « اعتاد قراء العربية مطالعة كتب الادب التي تتحرى اللغة على الاخصّ، فظنّ كثيرون ان كل ما يكتب بالعربية يجب ان يكتب على مثل هذا النمط بل قد تطرف بعض الكتاب وصاروا لا يرون الكتاب كتابا في اي فن كان الا اذا كان مسجّعا كثير التشبيه والمجاز متعدد النكات البديعة[1] »

وكما ظهر التطوّر في الاسلوب الانشائي ظهر في الفنون الكتابية - وقد ذكرنا منها الصحافة فلنقف قليلا على بعض الفنون الاخرى -

الفن القصصي

وهو يتناول القصة (او الحكاية) والرواية والمسرحية .

فالقصة والرواية على نسق واحد . والفرق بينهما ان الاولى ذات حادثة واحدة قصيرة وتدور غالباً على شخص واحد او اشخاص قلائل . واما الثانية فطويلة وتقوم على حادثة رئيسية يتفرّع عنها او يتّصل بها حوادث اخرى . وهي مع توجيهها الفكر الى بطل او بطلين تعرض لنا عدّة اشخاص . وبرغم ما فيها من استطراد وتفريع يشعر القارئ بانه مسوق نحو هدف لا مندوحة عن الوصول اليه .

والقصّة او الحكاية قديمة في الادب العربي ترجع الى اقدم عهود التدوين وقد نقل لنا كثير من اخبار الاقدمين ونوادرهم واساطيرهم ومُلحهم[2] ناهيك بما ترجم الى العربية كقصص كليلة ودمنة والف ليلة وليلة وسواها . والكثير من هذه القصص والاخبار طريف يلذّ القارئ ويستهويه . على اننا لا نبعد

---

(١) المقتطف ٧ - ٦٨٧

(٢) كما ترى مثلًا في الكتب التالية- قصص الانبياء للكسائي - البخلاء للجاحظ - الفرج بعد الشدّة للتنوخي - مصارع العشاق لابن احمد السراج - فاكهة الخلفاء لابن عرب شاه - المستطرف للابشيهي .

عن الحقيقة اذا قلنا ان طرافتها قائمة بالاكثر على طرافة السرد الخبري فيها او غرابة الحوادث . وقلّما نجد فيها ما نجد في الادب القصصي اليوم من ميل الى تصوير الحياة والتغلغل الى اعماق النفس وسبر اغوار الحقائق . ان القصّة الحديثة الراقية مظهر فنّي يجمع بين رشاقة التعبير ودقة التفكير وروعة التصوير . ولو وازنت بين القصّة العربية القديمة والقصة العربية اليوم لرايت فرقاً ظاهراً من هذا القبيل

والقصة في ادبنا الحديث مصدران – الاول عربي تقليديّ وقد نشأ عنه ما وضعه اصحاب المقامات في القرن الماضي كناصيف اليازجي وابرهيم الاحدب وعبدالله فكري وسواهم . وهذه قصص لا تمتّ بصلة الى حياة عصرها واحوال اهله بل تقتصر على ما له علاقة بالحياة العربية القديمة . وقد تلاها نوع آخر من المقامات كحديث عيسى بن هشام لابرهيم المويلحي وليالي سطيح لحافظ ابرهيم – وكلاهما مسجع العبارة – وليالي الروح الحائر لمحمد لطفي جمعة وهي من النثر المرسل . ويختلف هذا النوع عما سبقه بانه يدور على حياة العصر والنظر في معائبها . على ان الاسلوب المقامي في القصص لم يطل عمره في نهضتنا الحديثة فلم يكد ينتهي العقد الاول من القرن العشرين حتى صار يعدّ من الاساليب القديمة البالية .

والمصدر الآخر غربيّ نشأ عن احتكاكنا بالآداب الاوروبيّة وكان من نتائجه ذلك الاقبال على ترجمة القصص الغربيّة ونشرها بواسطة الصحف والمطابع . وبرغم انهم كانوا يترجمون الغث والسمين فقد ولّد ذلك من الجمهور رغبة في مطالعتها فحرّك اصحاب المواهب الى معالجة هذا النوع من الادب وما زالوا يقومون ويقعدون حتى استطاعوا مؤخّرا ان يتحرّروا من ربقة التقليد وان ينشئوا في مختلف الاقطار العربية وفي مقدمتها مصر ولبنان ادباً قصصيّاً ذا اسلوب حرّ فيه محاولات فنية للجمع بين عقدة يشتاق القارىء لحلها وطريقة تحيي شوقه لمتابعتها ثم حلّ يفاجئه بما يحرّك شعوره او تفكيره .

وقد شاعت كتابة القصّة القصيرة في هذا العصر شيوعاً واسعا حتى اصبحت من اهمّ ابواب الادب . ومن يتابع تدرّجها من طور الوضع التقليدي فالوضع الحرّ الذي يحاوله العصريون، بين مبدع وغير مبدع، يلمح فيها اليوم ميلا يكاد

يكون عاماً الى تصوير البيئة الاقليمية ودرس الحياة الشعبيّة مصطبغاً بصبغة انسانية واصلاحية[١] .

الرواية : واذا التفتنا الى الرواية او القصة الطويلة وجدنا انها من ثمار النهضة الحديثة فان ادباءنا القدماء قلّما عنوا بها . والذي وصلنا من قصصهم الطويلة كسيرة عنتره وقصص سيف بن ذي يزن او بني هلال، او بيبرس، او فيروزشاه وسواها ، ليس في الحقيقة الا اخبارا بطولية وضعت او جمعت لتفكهة القراء وهي مع ما فيها من طرافة قد مضى عهدها دون ان تترك اثراً يذكر في حياة العرب الفنيّة او دون ان تصبح باباً مطروقاً من ابواب الادب العالي على نحو الفن الروائي الآن . ولا شكّ ان للادب الغربي اثرا فعالاً في احياء هذا الفن بيننا . فالرواية عندنا كالقصة القصيرة قد مرّت اوّلاً في طور الترجمة ثم تدرّجت الى طور الوضع الحرّ فكان لنا جملة حسنة من الروايات التاريخية والاجتماعية والفلسفية امّا في شكل كتب مستقلة او سلاسل تنشر تباعا على صفحات المجلات والجرائد[٢] .

المسرحية : وما يقال عن الرواية يقال عن المسرحية فهي ايضا من ثمار هذه النهضة لم يعرفها ادبنا القديم . وبذلك يصرّح احد المعروفين بهذا الفن اذ يقول— « ان هذا الفن دخل الينا فيما دخل من الوان الثقافة الغربيّة حينما اخذت بصائرنا تتفتّح على اوروبا تنتحل من فنونها وادبها بحكم ذلك الاتصال الاجتماعي والثقافي الذي ازداد توثّقاً منذ اوائل القرن الماضي »[٣] .

ومن روّادها مارون نقاش المتوفّى سنة ١٨٥٥ وقد درس فن التمثيل في

---

(١) راجع مثلاً قصص محمود تيمور والمنفلوطي وخليل تقي‌الدين وتوفيق عواد ومارون عبود و كرم كرم وابرهيم المازني وجبران جبران وصلاح الدين الناهي ومخايل نعيمه وبشر فارس

(٢) من ذلك روايات جرجي زيدان ونقولا حداد وفرح انطون ويعقوب صروف وشكيب الجابري وقد عالج القصة والرواية عدد من كبار ادبائنا ممن غلب عليهم لون آخر من الوان الادب يضيق المقام عن ذكر اسمائهم .

(٣) زكي طليمات في مجلة الكاتب (مصر) ١ – ١٠٢

ايطاليا[١] . واديب اسحق (١٨٨٣) ونجيب حداد (١٨٨٩) وسواهم . وتبع هذه الطبقة عدد غير قليل من الكتاب والمترجمين المسرحيين كخليل مطران وفرح انطون وابرهيم رمزي وابرهيم المصري وتوفيق الحكيم وكثيرين غيرهم » حتى ليقدّر ما صدر من المسرحيات حتى الآن بين مترجم وموضوع وطويل وقصير بعدّة مئات[٢] . وفيها نلاحظ نفس التطور الذي حدث في القصّة والرواية – من الترجمة والوضع التقليدي الى معالجة الموضوعات الحرّة التي تمسّ حياتنا وتنشأ عن مجتمعنا .

كتابة السيرة : وهي نوع من الادب يجمع بين القصّة والتاريخ . وهو قديم في تاريخنا الادبي يرجع الى اوائل العصر العبّاسي وقد ساهم فيه كثيرون من ذلك الحين الى الآن . ويدخل فيه كتب التراجم ومنها العامّة كطبقات ابن سعد والاغاني لابي الفرج الاصفهاني ويتيمة الدهر للثعالبي ومعجم الادباء لياقوت الحموي ووفيات الاعيان لابن خلّكان وقلائد العقيان للفتح بن خاقان والذخيرة لابن بسام والخريدة للعماد الاصفهاني . ومنها الخاصة كاخبار ابي تمام للصولي والانصاف والتحرّي لابن العديم والصبح المنبي للبديعي وكثير سواها . على انك اذا تحرّيت هذه المؤلفات وامثالها وقابلتها بكتب السيرة او ترجمة الاشخاص في هذا العهد رايت لناموس التطور اثراً لا ينكر[٣] . فالسيرة القديمة على ما فيها من عناية باخبار الاشخاص وما يتعلق بها تقصّر عن الحديثة في دقة الدرس للبيئة والحوادث والتعمّق في التحليل النفسي والفني[٤] . ويدخل فيها تلك الدراسات التحليلية

---

(١) كراتشقوفسكي في مجلة الرسالة ٤ – ١٨٠٩

(٢) عُني يوسف داغر امين دار الكتب في بيروت بمعجم للمسرحيات العربية على اختلاف انواعها فثبت له نحو ٣٠٠٠ ومنها ٣٠٠ مترجم عن لغات اوروبية .

(٣) راجع لزيادة الايضاح مقالا لاحمد امين موضوعه «تراجم الرجال» – الثقافة ١ ع ٤٠ ص١٣ ومقالاً لعلي ادهم موضوعه « التراجم في الادب الحديث » – الثقافة ٢ ص ١٨٢٦ .

(٤) راجع مثلاً من كتب السيرة ما يلي – «الايام» لطه حسين وذكرى ابي العلاء له – «جبران» لميخائيل نعيمه – «خليل مطران» لاسماعيل ادهم – «ابن الرومي» للعقاد – «المتنبي» لمحمود شاكر – «عمر ابن ابي ربيعة» لجبرائيل جبور .

المستفيضة التي تقدّم لبعض ما ينشر من مؤلفات ادبية شرحاً لحياة اصحابها وعرضاً لمناحي الفن في ادبهم[١] .

ودرس السيرة على هذا النحو متعلق بفن كتابي آخر هو فن النقد الادبي الذي يتناول خصائص الادب واركان الفن وكيف ننظر في الادب لنتبين مزاياه ومعانيه ولنميز بين حسناته وسيئاته . وهو فن قد تطوّر تطورا يذكر هذا العصر وخصوصاً من حيث الاهتمام بالعوامل المكانية والزمانية والتغلغل الى جوهر الكلام لشرح ما فيه من حركات نفسية وصور خيالية او فكرية . وقد عرضنا كل ذلك في مقدمة كتابنا « المختارات السائرة » فليراجعه من شاء[٢]

الفن الخطابي

كانت الخطابة – على ما يروي الرواة – معروفة منذ ايام الجاهلية . جاء في صبح الاعشى[٣] « انه كان للعرب بالخطب والنثر غاية الاعتناء وكان الخطيب انما يخطب في مشافهة الملوك او الحالات او الاصلاح بين العشائر او خطبة النكاح .

وقد غلب على الخطابة في الجاهلية ثم في عهد الصحابة نزعة الارشاد والحث على التقوى ولما اخذ العرب ينتشرون بالفتوح ويوطدون اقدامهم في الامصار ظهرت الحاجة الى الخطابة الحربيّة والسياسية . ولهم في ذلك اقوال مشهورة وكلها من النثر الموجز المتين النسج المرسل على السجيّة .

وظلت الخطابة على هذه الحال طوال العصر الاموي وشطراً من العصر العبّاسي ثم انحصرت في المساجد والمقامات الرسمية ولبست اثواب الصناعة البديعيّة[٤] وظلت كذلك حتى مفتتح عصرنا الحاضر . ومنذ اواخر القرن الماضي اخذت الخطابة

---

(١) راجع مثلاً مقدمات المنشورات التالية –ديوان ابن الجهم لخليل مردم بك–ديوان ابن الساعاتي لانيس المقدسي – ديوان شوقي لحسين هيكل

(٢) وليراجع ايضا – اصول النقد الادبي لاحمد الشايب – النقد الادبي لسيد قطب – النقد المنهجي عند العرب لمحمد غندور – الشعر في ضوء النقد الحديث للسحرتي – النقد الجمالي لروز غريّب

(٣) ج ١ – ٢١٠

(٤) ويمثلها خطب ابن نباتة في القرن الرابع الهجري .

تنتعش وتتطوّر . ولا نعلم عصرا تفنن الناس فيه بالخطابة كهذا العصر، وذلك طبيعي في مثل هذه النهضة الجديدة التي كثرت فيها الجمعيات وتطورت الحياة السياسية والاجتماعية . وهكذا فتحت ابواب شتى لمخاطبة الجمهور ونشأت في الاقطار العربية المختلفة ضروب من الخطب لم يُعنَ بها القدماء وهي عادةً من الكلام السهل المرسل . على انه يمتاز عن الاسلوب الكتابي السائد في المقالات والمؤلفات بما يكثر فيه من صيغ المخاطبة والاستفهام والايهام والتكرير والتعجب والقَسم وتقطيع العبارات تقطيعا يناسب نبرات المتكلم واشاراته مع الاكثار من الشواهد الموضحة والعبر المؤثرة .

وتتناول الخطب الحديثة جميع مناحي الحياة – فمنها –

السياسية والوطنية – وقد اتسع نطاقها بعد توطيد النظم الديموقراطية والمجالس النيابيّة والمنظمات الحزبيّة . ويمثلها في ادبنا الحديث عدة مجموعات منشورة كخطب عبدالله نديم[1] ومصطفى كمال[2] وسعد زغلول[3] وخطب الشيخ بشاره الخوري[4] . هذا فضلًا عن كثير من الخطب لخطباء ممتازين اهتزّت لها المنابر ونشرت في الصحف ولكنها لم تجمع في كتبٍ خاصة .

الادبية والاجتماعية – وتتناول الانسان والطبيعة والعمران وصفاً او نقداً وتحليلًا وتلقى عادة في الحفلات العامّة ونوادي الجمعيّات والمعاهد . ويمثلها مئات الخطب المنشورة في شتى الجرائد والمجلات . وفي شتّى المجموعات الخطابية كالريحانيات لامين الريحاني، وعلى المنبر لنقولا فياض، والبيادر، وزاد المعاد لمخايل نعيمه، وكلمات واشارات لمي .

الروحية – وهي التي ترسل من على منابر الكنائس والمساجد والجمعيات الدينية حضّاً للناس على التقوى وتوجيها للنفس الى الحياة العليا وتقويةً للشعور الديني بين ابناء الطوائف المختلفة .

(١) خطب الثورة العربية .
(٢) مؤسس الحركة الوطنية في مصر .
(٣) موطّد الحركة الوطنية ومؤسس حزب الوفد .
(٤) رئيس الجمهورية اللبنانية .

العلمية – وهي المحاضرات التي يلقيها في الجامعات او المجامع والنوادي العلمية متخصّصون في بعض فروع العلم والادب واسلوبها عادة هو اسلوب البحث المنطقي لا اسلوب الخطابة الاقناعية التي يراد بها تحريك الشعور .

. . .

وقد شاع مؤخراً نوع آخر من الخطب هو الحديث المرسل من محطّات الاذاعة . وانما جعلناه نوعاً خاصّاً لانه يمتاز بايجازه اذ لا يتجاوز القاؤه ربع الساعة . ويتناول شتى المواضيع التي يراد بها توجيه الجمهور او اطرافه بما يلذّه ويفيده من الاخبار والمعلومات . ويمكن عدّه اكثر الانواع الخطابيّة انتشاراً واوسعها مدى واشدّها اتصالاً وتأثيرا بحياة الجمهور .

تجديد الاسلوب الشعري

وله في هذا العصر ثلاث ظواهر رئيسية هي : **التصميم الفكري – والتفنن البياني – وحوية الاخراج**

التصميم الفكري او وحدة النظم

وصف ابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ ﻫ) اسلوب النظم القديم بقوله « سمعت بعض اهل العلم يقول ان مقصد القصيد انما ابتدأ يذكر الديار والدمن والآثار فشكى وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الظاعنين ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدّة الشوق والم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليُميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ويستدعي بها اصغاء الأسماع اليه . فاذا علم انه قد استوثق من الاصغاء اليه عقب بايجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسري الليل وانضاء الراحلة .... فاذا علم انه قد اوجب على صاحبه حق الرجاء وذمام التأميل وقرّر عنده ما ناله من المكاره في السير بدأ بالمديح . فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام ولم يطل ويملّ السامعين ولم يقطع والنفوس ظمأى الى المزيد »[1] .

والذي يراجع الدواوين العربية منذ اقدم الازمان الى عهد روّاد نهضتنا الاخيرة يجد في معظمها ما يزكي قول ابن قتيبة . فقد كان الشعراء عموما يجمعون في القصيدة الواحدة شتى الاغراض من غزل ووصف وفخر وحِكَم ومديح وغيرها وكثيرا ما تكون هذه الاغراض مستقلا احدها عن الآخر او تكون الرابطة بينها غير ما نظمت لاجله القصيدة حتى انه يمكن الاستغناء عن بعضها دون ضرر ظاهر . ويرى اديب عصري كبير ان هذه الوحدة مفقودة في معظم

---

(١) بتصرّف عن مقدّمة كتابه الشعر والشعراء .

ما كتبه القدماء من منثور ومنظوم[1].

هذه مثلاً اشهر القصائد الجاهلية – معلقة امرىء القيس – فان نظرة واحدة فيها توضح ما نقصد اليه . فهي تبدأ بمقدّمة غزلية يقف فيها الشاعر على طلول الحبيبة، ويصل ذلك بحادثة جرت له معها ومع صواحبها، ثم يتحوّل الى وصف نفسه وفرسه وبعض احواله ، وبغتةً يختمها بوصف المطر والسيول في بعض انحاء نجد .

ونحن لا نقول ان هذه القصيدة فوضى لا رابطة اصلاً بين اجزائها، ولكننا نقول انها خالية من غاية رئيسيّة تتضافر جميع الاجزاء على ابرازها او توجيه الافكار نحوها، اللهمّ الا اذا جعلنا الشاعر نفسه تلك الغاية .

وليست كل قصيدة قديمة على غرار هذه المعلّقة في تباين مشاهدها وترتيب اجزائها ، على انها ان لم تكن كذلك فهي عادة مؤلفة من ابيات مستقلّة متشابهة المعاني تتابع في القصيدة الواحدة دون رابطة غير شعور الناظم نحو شخص من الاشخاص او حادث من الحوادث . ولا يُعدّ ذلك عيباً في النظم وانما هو من طبيعة الشعر الغنائي او الوجداني الذي انحصرت فيه عواطف شعراء العرب قديما فبلغوا فيه منزلة عالية جداً . والذي يؤخذ عليهم انهم اكتفوا به وصار الخلف يتابع السلف في موضوعات قديمة واساليب عُرفية لم يخرجوا عنها الا في القليل النادر الذي لا يصح ان يعتبر اتجاها جديدا في ادبهم المنظوم. فلما احتكّوا حديثا باداب الامم الاخرى وجروا شوطا بعيدا في مضمار الحضارة الجديدة اتسعت لديهم آفاق النظر في الحياة فظهر في شعرهم موضوعات واساليب مما يقتضي وحدة في النظم او تصميما في العواطف والصور الخيالية كما يتجلّى ذلك لنا في الشعر التأملي والملاحم والقصص والمسرحيات وما الى ذلك من اساليب الشعر الحديث، ولنوضح ذلك ببعض الامثلة .

فمن باب الشعر التأملي قصيدة **الطلاسم** لايليا ابو ماضي[2] . وهي مؤلفة من واحد وسبعين دوراً رباعيّاً تنتهي جميعها بعبارة واحدة هي بمثابة لازمة او قرار

---

(١) شفيق جبرى في الجزء الثاني من المجلد السابع والعشرين من مجلة المجمع العلمي العربي ص ١٧١

(٢) راجعها في ديوانه الجداول .

يرجعنا اليه الشاعر وبه يوّحد عواطفه وخيالاته . ومطلع القصيدة .

جئتُ لا اعــلمُ من اين ولكــنّي اتيتُ
ولقد ابصرتُ قــدّامي طريــقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً ان شئتُ هــذا ام أبيتُ
كيف جئت؟ كيف ابصرتُ طريقي—لست ادري

وفي القصيدة يحاول الشاعر ان يصوّر لنا ما يشعر به من قصور عن ادراك كُنه الحياة وسرّها الغامض . فيقف امام مشاهد الطبيعة والعمران حائراً متسائلا ولكنه لا يحظى بما يزيل حيرته او يجيب عن اسئلته . اسمعه مثلًا يخاطب البحر

انّ في صدريَ يا بحرُ لاسراراً عجــابا
نزل السّتر عليهــا وانا كنتُ الحجابا
ولذا ازداد بعــدا كلما رمت اقترابا
واراني كلما اوشكتُ ادري — لستُ ادري

ومثل وقفته امام البحر وقفاته المختلفة امام الدير والقبر والقصر والكوخ وسواها . وهكذا ينشأ في نفسه صراع عنيف لما يرى من ظواهر لا يستطيع ادراك ما وراءها .

كلمّا ايقنتُ انّي قد امطتُ الستَرَ عنّي
وبلغت السرّ سبراً ضحكتْ نفسيَ منّي
قد وجدت اليأس والحيرةَ لكن لم أجدني
فهل الجهــلُ نعيمٌ ام جحيمٌ — لست ادري

ولا يزال كذلك حتى يصل الى ختام القصيدة فيقول مستسلماً

انني جئت وامضي وانا لا اعــلمُ
انا لُغزٌ وذهــابي كمجيئي طلسمُ
والذي اوجد هــذا اللغزَ لغزٌ مُبهمُ
لا تجادلْ . ذو الحجى من قال اني — لست ادري

فالمتأمّل يرى ان جميع ادوار القصيدة متضافرة في الاتجاه نحو غرض واحد هو روح القصيدة او فكرتها الاساسيّة ولا يخرج القارىء من قراءتها الا وهو محمول على اجنحة التأمّل الموسيقيّ الى ذلك الغرض . ومثل ذلك يقال في قصيدته « الاسطورة الازلية »[١] . ومن هذا الباب : قصيدة **التمثال** لعلي محمود طه[٢]

ويرمز الشاعر بالتمثال الى الامل الذي ينحته الانسان في قلبه ايام الشباب — « يُبدع في تصويره وصقله متخيّلًا فيه الحياة ومرحها وجمالها . لكنّ الزمان يمضي وتمثاله لا يزال طيناً جامداً حتى تخمد وقـــدة الشباب في دم الصانع الطامح وتُشعره السنون بالعجز والضعف وحينئذ يرى ان حلمه لم يتحقّق وان ذلك التمثال (تمثال الامل) قد عصفت به الليـالي فاصبح حُطاما . فيصرخ يائساً ويمضي القدر في عمله » . هكذا يوطّىء الشاعر لقصيدته . ومن ابياتهـا قوله يخاطب تمثاله —

صورةٌ انتَ من بدائعَ شتّى ومثالٌ من كلّ قدٍّ رشيقِ
بيدي هــــذه جبلتك من قلبي ومن رونق الشباب الانيقِ
كلمّا شِمتُ بارقاً من جمالٍ طرتُ في اثره اشقّ طريقي

فيأخذ من النجم بريقهُ ومن الطير اغانيه ومن الكرم خمره ومن الربيع نضارته . ومن كلّ ذلك يصنع تمثاله ثمّ يقول للطبيعة الحيرى —

انا يا امُّ صانع الامـــلِ الضاحك في صورة الغد المرموقِ
صُغتُه صوغ خالقٍ يعشق الفنّ ويسمو لكلّ معنىً دقيقِ

ولكن اين الغد واين املي فيه ؟ هوذا تمثالي محطّم امام عواصف الايام . وانا —

لم أُعدْ ذلـــك القويّ فاحميه من الويـــل والبلاء المحيق

وهكذا تكرّ الايام ويجيء الغد على رجل واهن القوى متحطّم الآمال

مرّ نورُ الضحى على آدميٍّ مُطرقٍ في اختلاجة المصعوقِ

(١) راجعها في ديوانه الخمائل ١٢٧ .
(٢) راجعها في ديوانه الملاح التائه ٨٦ .

في يديهِ حُطامةُ الامل الذاهبِ في مَيعة الصِّبـــا المومُوقِ

وامثال هاتين القصيدتين كثيرة في عصرنا الحاضر وكلها ترجع الى تأثر الفن بالتفكير المجرّد وذلك ما لم يُعنَ به ادبنا القديم وقد المعنا اليه ومثّلنا عليه في كلامنا على النزعات الروحيّة في الادب الحديث[١] .

. . .

ولنتحوّلْ عن باب المجرّدات الى باب القصص الشعري . وهو عند التحقيق يشمل القصة العادية والمسرحيّة والملحمة والرحلات الخيالية .

فالقصة – وهي شائعة في هذا العصر تتناول شتّى الاغراض وتمسّ كل نواحي الحياة . ويقوم جمالها الفنّي على ثلاثة اركان رئيسيّة :

(١) سمو الخيالِ . سواء كان ذلك في ابتداع الموضوع او ابتداع الطريق الموصلة اليه .

(٢) قوة التشويق . او جمال التدرّج في عرض الحادثة بما يزيد النفس توقاً الى الكشف عن غرضها .

(٣) حيويّة النظم . او قوّته على اثارة الفكر والخيال والعاطفة .

وقد كان في الشعر القديم شيء قليل من القصص الا انه عادةً من باب « حكايات الحال » التي نقع عليها في شعر عمر بن ابي ربيعة وابي نواس وامثالهما حيث يقص علينا الشاعر بعض غزّاته الغرامية او الخمرية او يصف لنا بعض وقائعه الحماسية . والحقيقة ان القصة لم تصبح باباً من ابواب الادب العربي الا بعد احتكاكنا بالادب الغربي وقد اشرنا الى ذلك آنفاً وشرحناه فنكتفي الان بالملحق التالي نثبت فيه عددا من القصص الشعرية التي قد تساعد محب البحث في تكوين فكرة عن هذا الفن الادبي الجديد .

(١) ومما يحسن مراجعته من هذا القبيل – الحية الخالدة : لعلي محمود طه – مجلة الحديث (حلب) السنة ٩ ك٢ – روح الاشتراكية : للمؤلف المورد الصافي ٤ ـ ٢٢٨ – الحرمان : لحسن كامل الصيرفي – ديوانه الشروق ٢٣ – الموؤدة : لمحمود حسن اسماعيل مجلة الكتاب ٤ ـ ١ – الدمعة الاخيرة لمحمد رجب البيومي الثقافة ١٠ ع ٤٨٦ .

ونحن نثبتها هنا دون نقد او تعليل تاركين ذلك لمن شاء التخصّص في درسها ومقابلتها بما انتجه الغرب في هذا الباب . ولا بدّ لنا من القول ان هذا النوع من الادب هو بالاكثر من نتاج القرن الحاضر[1] . ويلاحظ فيه تطوّر بيّن وذلك في خروج الشاعر عن نفسه الى العالم الذي حوله فليس ما يقصه علينا اليوم حكاية حال خاصة بل هو صور شتى منتزعة من بيئته الاجتماعية او التاريخية .

ملحق بباب القصة الشعرية

موضوع القصة	الناظم	المرجع
الطفلان	خليل المطران	الهلال ٢٧–٥٠٧ اوديوانه ٢–٦١
الجنين الشهيد	» »	ديوانه ١ – ٢٢٣
شهيد المروءة	» »	ديوانه ١ – ٨٢
الجمال والكبرياء	شبلي ملّاط	ديوان الملّاط ٢٥٩
خولة بنت الازور	» »	» » ٢٨٣
بين العرس والرمس	» »	» » ٣٢٩
الجمال والتواضع	امين تقي الدين	مجالي الغرر (صفير) ١ – ٢١٩
القميص المخضّب بالدم	يوسف مراد الخوري	نثار الافكار (مطبعة الهدى نيويورك ١٩١٣) ٦٨
الوفاء	الياس فياض	المورد الصافي ٩ – ١٠٨
عروة وعفراء	بشاره الخوري	البرق (بيروت) العدد ٣٣٩١
الريال المزيّف	» »	» » » ٣٤١٥
سلفين وجيروم	» »	» » » ٣٤٣١
بنت يفتاح	بولس سلامه	لسان الحال (بيروت) ٢٥ نيسان ١٩٣٥

---

(١) وقد ظهرت تباشيره في اواخر القرن الماضي كما ترى مثلاً في بعض قصائد الشاعر اللبناني خليل الخوري وسواه .

اقوى من الحب	نقولا حداد	مجلة الجامعة (لفرح انطون) ٥-٢٧٤
تأثير المهاجرة	« «	« « « ٥-٣٦٧
سليم وسلمى	خليل شيبوب	ديوانه . الفجر الاول ١١٧
الفقر والسقام	معروف الرصافي	ديوانه (١٩٣١) ١١٣
وادي العقيق	فارس مراد سعد	البرق - العدد ٣٣٢٦
عليا وعصام	قيصر المعلوف	ديوانه تذكار المهاجر (١٩٠٤) ١١١
قبلتان	ابرهيم العريّض	نشرتها دار العلم للملايين بيروت ١٨٤٨
بين عشية وضحاها	« «	الرسالة ٦ — ١٨٣٢
ليلة الزفاف	« «	« ٨ — ٩٠٧[1]
الراهبة	ندره حداد	ديوانه — اوراق الخريف ١٧٣
العذراء	خير الدين الزركلي	البرق — العدد ٣٣٧٠
احمس الاول	محمد مصطفى الماحي	ديوانه (١٩٣٤) ٦٦
زينب وخالد	خيري المنداوي	الادب العصري في العراق (بطّي) قسم المنظوم ١ — ١٧٤
اسماء (وقصص اخرى)	جميل الزهاوي	ديوانه (١٩٢٤) قسم ٣ ص ٦٨
المصدورة	الياس ابو شبكه	ديوانه . القيثارة ٥٢
غلواء	« «	
الفضيلة الملثّمة	ادوار مرقص	ديوانه ٤١١ — ٤٢٦
نهاية الابطال	مير بصري	مجلة الكاتب المصري ٣ — ٦٨٩
ليجيا	لمؤلف الكتاب	مجلة الاخلاق (نيويورك) عدد اذار ١٩٢١
المجدلية	لسعيد عقل	

(١) وللعريض قصص شتى في ديوانه العرائس

المسرحية الشعرية

وهذه مما لم يعرفه الادب العربي قبل النهضة الاخيرة . وهي اما ان ترتكز على فكرة خاصة او عارض عاطفي قوي فتتجسم في حادثة قصيرة يمثلها اشخاص قلائل، واما ان تكون معرضا لحادثة رئيسية يتصل بها حوادث ثانوية شتى ويقوم بتمثيلها عدة اشخاص .

ولعل اقدم مسرحية في الشعر العربي الحديث تلك التي وضعها خليل اليازجي سنة ١٨٧٦ واطلق عليها اسم « المروءة والوفاء » . وهي رواية عربية الروح تدور على حادثة جاهلية حدثت لدى النعمان ملك الحيرة وذلك في يوم من ايام بؤسه . والحادثة معروفة وهي تمثل قباحة الظلم وجمال الفضائل البدوية من مروءة ووفاء واكرام للضيف وحب شريف .

وقد ظهر منذ ذلك الحين الى الآن عدد وافر من المسرحيات الشعرية منها ما يعود الى اصل تاريخي او اسطوري[١] ومنها ما يتناول بعض الموضوعات العصرية[٢] . على ان اشهرها روايات احمد شوقي[٣] وهي معروفة في مختلف الاقطار العربية[٤] .

---

(١) مثل ميلاد النبي : لمحمد زيتون – ثورة بيدبا : لرئيف الخوري – قيس ولبنى : لعزيز اباظه – فتح الاندلس : لفواد الخطيب – امرؤ القيس : لمحمد حسن علاءالدين – سميراميس : لعمر ابو ريشه – اغنية الرياح الاربع : لعلي محمود طه – ولادة : لعلي عبدالعظيم–يثرب : لعلي سرور – الناصر : لعزيز اباظه – قدموس : لسعيد عقل – وبنت يفتاح له – عشتروت وادونيس : لحبيب ثابت .

(٢) مثل جزاء المكر : لرشيد عطيه – ثورة العراق : لعبدالحميد الراضي – الغيرة : لاحمد رامي – ميسلون : لبدرالدين حامد – الحبل في العنق : لنقولا بسترس – على هامش الجامعة العربية : لعزيز اباظه–الرداء الازرق : لاحمد سعد الهواري - همام: لاحمد باكثير–مسعود : لمحمود ابو النجا (مجلة ابولو ٢ - ٢٤٣) – المماليك : لابو شادي (ابولو ٢ - ١٦٦) .

(٣) واشهرها كليوباطره ومجنون ليلى وعنتره .

(٤) ممن درسها دراسة وافية محمود شوكت – راجع درسه في المقتطف ١١٠ لواحق الاعداد ٣ و٤ و٥ .

الملحمة

ويراد بها المطوّلة من الشعر التي تصف لنا البطولة في سيرة شخص او تاريخ امة، وقلّما تجد لها اثرا يذكر في الادب العربي القديم. اما الادب الحديث فقد اخذ يتوجّه في هذا السبيل. وهو كما قلنا في غير هذا المقام ناجم عن يقظة العرب القومية منذ بدء هذا القرن والتفاتهم الى امجادهم السالفة. وليست اكثر الملاحم البطولية التي ظهرت حتى الآن الا محاولات لم تستكمل نضجها بالنسبة الى ما عند الافرنج من ذلك[1]. على ان افضل ما يمثل الملحمة الحقيقية في ادبنا الحديث كتاب «عيد الغدير» لبولس سلامه وهو قصائد شتى تقع في ما يقرب من ٣٥٠٠ بيت من البحر الخفيف ومداره على «اهل البيت العلوي» في اهم ما يتصل بهم منذ الجاهلية حتى مأساة كربلاء. وعذر المؤلف في اتخاذ هذا الموضوع «ان العروبة المستيقظة اليوم في صدور ابنائها لاحوجُ ما يكون الى التمثّل بابطالها الغابرين وهم كثيرون، على انه لم يجتمع لاحد منهم ما اجتمع لعلي من بطولة وعلم وصلاح ولم يقم في وجه الظالمين اشجع من الحسين»[2]. ومهما تكن معتقداته في العلويين والامويين فمما لا شكّ فيه انه قد اجاد في نظمها برغم طولها – اجادة تحلّه المحلّ الاول بين ناظمي الملاحم العربيّة وترفع ملحمته الى مصاف الحسان من الملاحم الافرنجيّة. وكنا نود ان نثبت هنا بعضا منها للتمثيل ولكننا نرى ان يرجع الباحث اليها رأساً ويقرأها جميعا ليدرك حسن الفنّ فيها وما بذل من جهود في اخراجها.

---

(١) ومن امثلتها القصائد التالية وقد مر ذكر بعضها في مقام اخر – عمرية حافظ ابرهيم – علوية محمد عبدالمطلب – بكرية عبدالحليم المصري – خالدية عمر ابو ريشه «ومحمد» له – الالياذة الاسلامية لاحمد محرم (راجع بعضها في الثقافة ٢ ع ٥٩) – ارض الشهداء لابرهيم العريّض وهي تصف مأساة فلسطين – ملحمة العرب لحليم دموس.

(٢) مقدّمة الكتاب للناظم ٢٤.

الرحلة الخيالية

وقد اطلقنا عليها اسم الرحلة لان الشاعر يرحل فيها بخياله الى العالم العلوي واصفاً لنا مشاهداته وخوالج نفسه. وهذه الرحلات العلوية معروفة في النثر العربي القديم ومنها حديث المعراج النبوي، وكتاب التوهم للمحاسبي، ورسالة الغفران للمعري، والتوابع والزوابع لابن شُهيد الاندلسي، ووصف الآخرة في الفتوحات المكّية لابن العربي. واما الشعر القديم فلم يُعن بها وانما ظهرت في الشعر الحديث. ومما ظهر منها –

ثورة في الجحيم – لجميل الزهاوي[1].

على بساط الريح – لفوزي المعلوف

عبقر – لشفيق المعلوف

الحلم المريع – لمحمد الفراتي[2]

شاطىء الأعراف – لمحمد المشري[3]

ترجمة شيطان – لعباس العقاد[4]

المعرّي يبصر – لمؤلف الكتاب[5]

ولنقف هنا للتمثيل على قصيدة فوزي المعلوف فهي من اشهر هذه الرحلات الحديثة. والفكرة الاساسية فيها ان موطن الشاعر الحقيقي ليس على الارض فهو يتوق ابداً الى الانعتاق من عبودية المادّة ليتمتع بحريّة الحياة العليا. وقد تم ذلك للشاعر في حلم رأى نفسه فيه على متن طيارة يصعّد في الجوّ. وفي اثناء تصعيده يسمع احاديث الطيور والنجوم والارواح وآراءهم في الانسان والعالم الارضي. فيعيد الينا هذه الاحاديث والآراء ملونةً باصباغٍ من تشاؤمه الخلاب.

---

(١) راجع مجلة الرسالة ٣ – ١٥٥٧ و ٥ – و٢٨٣ وكتاب قلب العراق للريحاني ٢٥٣

(٢) ديوانه (١٩٣١) ٩٥ . وله ايضا الكوميديا وهي سياحة في عالم الافلاك

(٣) راجع روائع شعراء الجيل (فهمي)

(٤) ديوانه (١٩٢٨) ٢٣٨

(٥) راجعها في المورد الصافي ١٠ – ١٤

ولا يزال صاعدا حتى يصل الى عالم الارواح حيث يلتقي بروحه فيتمتع بلقائها هنيهة من الزمن . ثم يستيقظ من حلمه فاذا هو في غرفته وليس الى جنبه غير يراعه . الذي لا يرى في الحياة خلاّ وفيّاً سواه .

وهذه المنظومة الجميلة تقع في عدّة اناشيد ولكنها على تنوّعها مرتبطة بفكرة واحدة ولعلّها تتجلّى في هذه المختارات القليلة منها —

الشاعر يخاطب روحه —

لستِ من عـــالم التراب وان كنتِ تقمّصتِ بالتراب عليهِ
انتِ من عالمٍ بعيدٍ عن الارض يفيض الجلالُ عن جانبيهِ
وفتى الشعر يستنزل الوحيَ بيـــاناً يجثو الخلـــودُ لديهِ
ما احمرارُ الاصيل غيرُ لهيبٍ شعّ من قلبـه ومن مقلتيهِ
وركامُ السحاب غيرُ دخانٍ نفثتـــه الهمومُ من شفتيه
ما انين الرياح غـــيرُ زفيرٍ نزعتـــه الرياحُ من رئتيهِ
ونواح الطيور غـــير عويلٍ نقلتـــه الطيور عن أصغريه
ما ندى الفجر غير لؤلؤ دمع رشفته الازهـار من محجريه
وبريق النجوم غـــير شظايا كأس حبّ تحطّمت في يديه

بين الطيور

وتراه الطيور فتوجس منه شرّاً لانه انسان وتحشد جموعهـا لتنقضّ عليه فيخاطبها بقوله —

لا تخـافي يا طير ما انا الا شاعر تطرب الطيور لشعرهْ
زارك اليوم ينشد الراحة في هـــدأة السكون وسحره
فرّ عن ارضه فرارك عنهـا من اذى اهلها وتنكيل دهره

ثم يقول لها —

هو في ميعة الشباب ولو حدّقتِ فيه ابصرت شيخاً هزيـلا

أَلِف اليـــأس قلبه فهو واليأسُ يحـــاكي بُثَينةً وجميلا
تاه في عالم الخيـال فضاعت نفسه وهي تنشد المستحيـــلا

ومن نشيدٍ له يخاطب النجوم —

ايُّ حُـــلم سبكته ذهبيّاً لم تُذبه بنـــارها الايّام
ورجـــاء حبكته من خيوط النور لم ينسدلْ عليه ظـــلامُ

ويختم هذه الرحلة بنشيد يخاطب فيه يراعه بعد ان استيقظ ولم يجد بقربه سواه . فيقول —

واذا بي اهوي الى الارض وحدي بعد حرّيتي اكابد رِقّـــا
تركتني روحي وعادت لمأواهـا تشقّ الشعاع في الجو شقّا
فرايت اليراع قربي يؤاسيني ويبكي لمـــا لقِيت والقى
يا يراعي ما زلتَ خير صديقٍ ليَ منذُ امتزجتَ بي وستبقى
باسماً من سعادتي حين اهنـا باكياً من تعاستي حين اشقى
رُبّ دمعٍ كفكفته من عيوني سال حبراً في الطرس يخفق خفقا
وعـذاب نزعته من ضلوعي اجّ بين السطور يحرق حرقا
وزفـــيرٍ حولته لصريرٍ مـــلأ الخافقين غرباً وشرقا
يا يراعي رافقتَ كلّ حياتي فارو عنّي ما كان حقّاً وصدقا
انا لم القَ مثل صمتك صمتاً حوّلته عرائس الشعر نطقـــا

وبهذا تنتهي رحلة فوزي المعلوف

ولولا ضيق المقام لوقفنا وقفة على «عبقر» لشقيقه شفيق فهي لا تقل روعةً عن قصيدة «على بساط الريح» وقد تفوقها في بعض المناحي . ولكلّ من الرحلات الأخر التي مرّ ذكرها موضوع خاص وطريقة خاصّة وهي مع تفاوتها في قوّة الفكر والخيال جديرة بالمطالعة والنظر .

الفن البياني

عُني القدماء اشدّ العناية بالبيان وذهبوا فيه كل مذهب من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز. ويظهر انه قد كان لهم في التشبيه طريقة مسلوكة، او قل اصطلاحات عُرفيّة – يستعملونها لاحقاً عن سابق. ومن ذلك تشبيههم الجواد بالبحر والمطر، والشجاع بالاسد، والحسن بالقمر والشمس، والعالي بالنجم، والحليم بالجبل الى آخر ما هنالك[١]. وفي كتاب «الوساطة» يعرض الجرجاني للسرقات الشعرية فيجعل هذه الاصطلاحات التشبيهية نوعين – احدهما المشترك الذي يجوز لكلٍّ ان يتناوله كحسن القمر وعيون المهى واتساع البحر – والثاني ما سبق اليه المتقدّم ولكنه اصبح متداولاً بعده فكثر استعماله وصار كالاول في الجلاء والاستفاضة وهذا ايضا لا يعدّ عنده من باب السرقة[٢]. على ان تداول هذه التشابيه العُرفية واشتراك الادباء في استعمالها لم يقف حائلاً دون التوليد والابتكار[٣]. ففي كلّ جيل نرى من يحسن توليد المعاني ويجيء منها بالمعجب المُطرب. ويكفي للتمثيل ان نذكر توليدات ابي نواس وابي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي وامثالهم من سابقين وتابعين. والى هذه الحقيقة – ان عمل التطور لم ينقطع في جيل من الاجيال – يشير ابن رشيق اذ يقول موازناً بين المحدثين والقدماء[٤] – «فاذا تأمّلت تبيّن لك ما في اشعار جرير والفرزدق واصحابها من التوليدات والابداعات العجيبة. ثم اتى بشّار بن بُرد واصحابه فزادوا معاني ما مرّت قطّ بخاطر جاهليّ ولا مخضرم ولا إسلامي. والمعاني ابداً تتردّد وتتولد والكلام يفتح بعضه بعضاً.»

واذا كان الامر كذلك فمن الطبيعي ان نرى في عصرنا الحاضر وحضارته الجديدة المتشعّبة ما يوحي الى شعراء العصر معاني طريفة لم يُسبقوا اليها كما ترى في الامثلة التالية –

(١) راجع كتاب الصناعتين للعسكري (١٣١٩ هـ) ١٨٢
(٢) الوساطة (صيدا ١٣٣١ هـ) ١٤٤ و١٥٥
(٣) راجع كلام ابن الاثير على المعاني في المثل السائر (بولاق ١٢٨٢ هـ) ١٨٧ – ١٩٧
(٤) كتاب العمدة (مصر ١٩٢٥) ١ – ١٨٥

قال شوقي في المغنّي عبده الحمولي –

يسمع الليلُ منه في الفجر « يا ليل » فيصغي مستمهلاً في فراره

وللخليل المطران مشبّها النـــاس بموج البحر ومبيّناً ان ضعفهم هو سبب الاستبداد بهم .

لكنّ خفض الاكثرين جناحهم رفع الملوك وسوّد الابطـالا
واذا رايت الموج يسفل بعضه الفيت تاليه طغى وتعـــالى

وله في سامي البارودي وفقده البصر –

اذا وسع الكون فكر امرئ فلا بأس بالطرف ان يحسرا
على الشمس ان تهدي المبصرين وليس على الشمس ان تُبصرا

وله في الم الوجد وعتاب النفس

وكم عاتبتُ فيّ النفس طوعاً وان عوتبتُ راعنيَ المـلامُ
كجرحٍ قـــد الطّفه بسنّي وان هو مسّه غيري أضام

وللمطران وصاحبيه شوقي وحافظ من هذا القبيل شيء غير قليل[1]–

ومن طريف ما جاء لبشاره الخوري قوله في رثائه للزهاوي[2] يصف حاله وهو في طريقه الى بغداد

بغدادُ ما حَمَــــل السُّرى مـنّي سوى شَبَحٍ مريبِ
جفلتْ له الصحراء والتفت الكثيب الى الكثيب
يتساءلون مَن الفـــتى العربيُّ في الزِيّ الغـــريبِ
صحراء يا بنتَ السماء البكــرِ والوحي الخصيبِ
اه دمعة الادب الحزينِ رسالة الالم الُمـــذيبِ
من قلب لبنان الكئيب لقلب بغدادَ الكــئيبِ

---

(١) راجع سلسلة الشعر المصري ومرقصاته في الهلال ٢٦ ص ١٣٧و١٨٤ و٢٨٤و٣٥٨و٤٣٢
(٢) راجع المرثاة في الرسالة ٥ – ٤٧٢

وقوله في المسلول واصفاً سوء حاله وشدّة سقمه —

عيناه عالقتـــان في نَفَقٍ كسراج كوخٍ نصف متّقدِ
ويمجُّ احيانا دماً فعـــلى منديله قِطع من الكبدِ

وقول شفيق المعلوف واصفاً عين شيطان الشاعر في منظومته « عبقر »

كأنّما مَحجرها كوّةٌ يطلُّ منها الزمن الغـــابرُ

وقول عمر ابو ريشه في الطلل الثابت على عاديات الزمان

لقد تعبتْ منه كفُّ الدّمار وباتت تخـــافُ اذى لمسه
هنـا ينفض الدهر اشباحه وينتحر الموتُ من يأسه

وقول احمد زكي ابو شادي في الاضواء المتراقصة على رمل الاسكندرية

ايُّ دنيا هذي التي ترقص الاضواء فيها ويصبح الضوء لحنا

ولايليا ابو ماضي في عدم استطاعته التخلّص من الناس مهما ابتعد عنهم

خلتُ اني في القفر اصبحت وحدي فاذا الناس كلّهم في ثيـــابي

وقول رشيد ايوب في عصير الروح

واشرب من عصير الروح خمرا يجول شعاعهـا دون العيـــان
فان جاءت هموم الدهر يوما تفتش في مكـــاني لا تراني

ولو اردنا الاطالة لاتينا بالكثير من التوليدات الجديدة لهؤلاء الشعراء واسواهم من ادباء العصر . على ان هذه التوليدات لا تُعدُّ عند التحقيق اتجاهاً جديدا في ادبنا العربي بل هي خطوات اخرى في نفس السبيل الذي سلكه المتقدّمون . واذا صحّ ان نطلق الجدّة على شيء في هذا الباب فانما نطلقها على ما يسمّونه اليوم بالطريقة الرمزية التي اخذ بعض ادبائنا يسلكونها ويدعون اليها . فهنا اتجاه جديد لا يسعنا الا ان نقف قليلا عليه .

والرمزية عموماً نوعان — رمزية تشخيصيّة ويراد بهـا إلباس الصور المعنوية البسة الاشخاص واجراء صفاتهم عليها . وهذه ليست بنت اليوم في ادبنا فقد عرفها القدماء كما ترى في رسالة حيّ بن يقظان لابن طفيل المتوّفى سنة ٥٨١ هـ .

ويصحّ ان ندخل فيها ما وضع على السنة الحيوانات كقصص كليلة ودمنة ورسالة الانسان والحيوان لاخوان الصفا وغيرها . وفي ادبنا الحديث من سلك هذا السلك فاعتمد التشخيص الرمزي لنقل الافكار والعواطف كما فعل جبران مثلاً في مقاله حفّار القبور وفي كثير من اقواله ورسومه، وتوفيق الحكيم في روايتيه شهرزاد واهل الكهف وسواهما، والياس فرحات في احلام الراعي . وليس هذا النوع من الرمزية ما نقصد اليه الآن . وانما نقصد الى تلك الطريقة القائمة على التأثير الموسيقي والايحاء اللفظي والتي تعتمد خلق جوّ عاطفي تتصل فيه النفس بما لا تتّصل عادةً في حالة الوعي العقلي .

وقد نشأت على ما يظهر معاكسةً للطريقة الاصولية او الكلاسيكية من جهة والنزعة الرومانتيكية من جهة اخرى . فالرمزيون يتّهمون الاولى بالجمود والتقيد بالقالب الصناعي ويتّهمون الثانية بالسهولة المائعة والوضوح المبتذل[1] . ويقولون ان التركيب الاصولي ومحاولة التبسيط هما من خصائص النثر . امّا في الشعر فيستعاض عن التنظيم والتبسيط بجهاز من الالفاظ المشرقة تمازج فيه الاحرف تمازجاً يبعث في النفس ما تبعثه الموسيقى ويوحي اليها عن طريق الايماء معاني وراء المعاني فما الشعر الا نشوة تخرج الانسان عن حالة الوعي الى حيّز اللاوعي حيث يلمح بالبصيرة الباطنيّة ما لا يستطيعه بواسطة العقل العادي الذي يعبّر عن نفسه بالمنطق والاصول . وبتعبيرٍ آخر ان الرمزية هي « نزعة الى التحرّر من ادب الواقع والملموس الى ارتياد آفاق جديدة طلباً للبحث عن الغامض من العواطف والتائه من الخلجات في منعطفات الروح »[2] . واذا تحريت اقوال الرمزيين وجدت للغموض في طريقتهم مقاما يذكر . وقديماً عُدّ الغموض او الابهام من البلاغة « لذهاب الوهم فيه كل مذهب ووقوعه على محتملاتٍ كثيرة »[3] . على ان الغموض الذي عرفته البلاغة القديمة ليس نفس الغموض الذي تجنح اليه الرمزية اليوم فذاك قائم على الفاظ غير محدودة المعنى مثل ما

---

(١) راجع مقال الدكتور نقولا فياض في مجلة الاديب (بيروت) ١ ج ٨ ص ٣

(٢) زكي طايات في المكشوف (بيروت) ٤ ع ١٤٥ ص ٣

(٣) راجع فصل الابهام في باب الصناعة المعنوية من كتاب المثل السائر لابن الاثير

الموصولية في قول ابي نواس « وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه » . فما هنا مبهمة وهي اوسع افقاً من ايّ لفظة محدودة المعنى توضع مكانها واوضح تعبيراً عن شعور الشاعر . واما غموض الرمزية فشيء آخر كما سنرى . ولعلنا ندرك خصائصه من شرح بعض خصائص الرمزية نفسها التي يقول فيها احد كبار الادباء[1]— « انها بدعة المجدّدين في اواخر القرن الماضي وهي تجربة قام بها بعض ادباء الفرنسيس » . والذي يتراءى لنا ان خصائص الرمزية او عناصرها الرئيسية هي ما يلي —

١ — نسبة غير مألوفة بين بعض الموصوفات واوصافها
٢ — الاكتفاء من المعاني باللمعات القصيّة واللمحات الخفيّة
٣ — احداث نشوة في النفس من جرّاء الايقاع الصوتي الحاصل من تلاؤم الحروف والالفاظ

فمن الاول ما جاء عن طريق النعت كقولهم — الشهوة الحمراء — المناء الازرق — الجمال الحجول — الثلوج الخرساء — العدم الضرير — الطعم الرمادي — الضوء البليل الخ الخ .

او عن طريق الاسناد او الاضافة — كقولهم — ضباب القنوط — كبرياء النهار — احتضار الليل — جفاف الجمال — تلهث في رأسي الفكَر — وغير ذلك مما اصبح شائعاً في نظم بعض العصريين . وهاك مثلاً قول احدهم من قصيدة موضوعها « وشوشة »[2] —

في ثغرها ابتهالُ يهمس لي تعالْ
الى انعتاقٍ ازرقٍ حدوده المحال

. . .

وشوشة كريمة سخيّة الظلال
ورغبة مبحوحة ارى لها خيال

---

(١) مجلة الاديب مج ١ ع ٧ ص ٤
(٢) من ديوان طفولة نهد لنزار قباني ص ٣٥— ومعظم الديوان من هذا القبيل

علـــى فمٍ يجوع في عروقـــه السؤال
يهتف بي عقيقـــه غـــداً لك النوال

فلو تأملت هذه الاوضاع وامثالها لوجدتها خارجة عن المألوف الذهني . وهي عند التحقيق من باب المجاز المرسل المعروف في كتب البلاغة . على ان في الرمزية كما يقول اصحابها شيئاً غير مجرد البيان المجازي . هو ذلك الانعتاق من قيود المعقول والمحدود توصلاً الى اغوار الشعور الانساني

فوصف الشهوة مثلاً باللون الاحمر يرسم امام الذهن صورة تنبّه لقوّة الشهوة وفتكها وما ينتج عنها من عواقب دامية . ونسبة الخجل الى الجمال نفسه يرينا صورة خلّابة لوجه جميل يكسوه الخجل لون الورد البديع . وجنون الاعراس ينقلنا دفعة واحدة الى مكان تقام فيه الافراح الصاخبة فنشاهد عربدة الشاربين واهازيج المازجين وما يصحب ذلك من اضطراب وتشويش بين المجتمعين . وهكذا قل في سائر اوضاعهم ومصطلحاتهم .

وفي هذه النزعة الجديدة يقول الدكتور فيّاض[١] . « وقد وصل بعض المجدّدين من الافرنج الى تشبيه عواطفهم بالالوان . فللتقى لون وللفرح لون وللذّة لون وللشبع لون وللضجر لون الخ » . وقريب من هذا قول امين الريحاني في مقاله « روح اللغة »[٢] . « فان للالفاظ ما سوى الرنّة والوزن بل الموسيقى والشكل الواناً ايضا وروائح فيما دقّ وشفّ وتماوج وفاح من معانيها . اجل ان من الالفاظ ما يُعدّ من الاحياء . لها مرونة البان وصلابة السنديان وسلاسة الماء الجاري وشذا الريحان وزمزمة الرعود وصفير البلابل وهمس النسيم وايماء الالوان ممّا يجعلها لدى الكاتب كنزاً في الانشاء والابداع » .

ولقد كان لبنان اوّل من تابع الرمزيين الافرنسيين فظهر فيه مؤخرا نخبةٌ ممّن جروا في هذا المضمار . يمثّلهم سعيد عقل ناظم المجدلية وقدموس وسواهما . ولعلّ في الامثلة القليلة التالية ما يوضح اسلوبه قال في مطلع « المجدلية » —

هـــدأةٌ تمتمت وحُلم اضاء في محيّـــا مغرورقٍ نعماء

(١) كتابه « على المنبر » ٢٠٨ – ومقاله في الهلال ٤٥ – ٢٦٣
(٢) الهلال مج ٣٠ ص ٤٧

ففي نسبته التمتمة الى المدأة يريد ان يخلق في نفس القارىء او السامع جوّا خاصاً لدى سكون المكان . حتى لقد يشعر ان هذا السكون يتمتم الى نفوسنا بشيء يطربنا دون ان نفهمه . ومثل هذا الجو قد نشعر به في قوله من القصيدة نفسها .

واستلان الضياء شُقرة ثغرٍ   وغفا ملثمهـــا عليل الاماني

ففي غفوة الضياء عليلَ الاماني وقد استلانَ شقرة ذلك الثغر ما لا نحتاج الى تفسيره لنشعر بنشوة العاطفة الموسيقية ولعلّ في التفسير والتحليل ما يذهب بتلك النشوة .

وعلى هذا النسق قوله —

تتكي رحمةُ العلي بين جفنيه اتكاء السنا بحضن البرية

وقوله —

ويجـــول السلام في شفتيه   حُلما ابيضا وافقـــا ظليلا

ومن مسرحية قدموس — واصفاً صراع قدموس والتنين .

هاج يكسوهما العجاج فلم أبصر   سوى السيف صاعقاً كالضمير
والاساطير حول ضربتهِ تولد في الصخر — في الربى - في العصور

ومنها في اللبنانيين

يوقظون الدنيا عـلى ضربة المِعول مستعمراً فتنهض سكرى

وفي هذه المسرحية كثير من مثل هذه النفثات

على انّ من الرمزيين من لا يقف عند هـذا الحدّ ـ حدّ الايقاع الصوتي والايماء الى ظلال المعاني باستعمال غير المألوف من الاوصاف والمجازات، بل يحرص على جعل الكلام قصيّ اللمعات خفيّ اللمحات فيلقي حول المعاني ضباباً كثيفاً من اللفظ يجهد الفكر في تقصّي ما وراءه . ومن روّاد هذا النوع من الادب بشر فارس في كثير من نثره وشعره . واليك مثلاً هذه القطعة من قصته التي

موضوعها « رجل »[١]. في وصف جبل - « جبل هب املس ضامراً جردا : رمح ربّ اعياه خافٌ لا ينزجرون . كان الجبل مصدر طمأنينة وصاحب غلبة، وكان الشغل الأكال للاذهان . على راس هذا الجبل بيت منقور نقره شيء مجنّح هوى من ناحية السماء ثم زرع عشباً ابيض قصير الورق من اكل منه وهو ندٍ ظفر بالحياة الابدية » . والقصة كلها على هذا النسق من غموض الاشارات وبعد الدلالات . ومثلها مسرحيّته « مفرق الطريق » التي قال فيها احد الادباء انها غامضة يعسر فهمها على ادقّ الافهام[٢] . ومن هذا القبيل قصيدته « الى زائرة » التي يبداها بقوله —

لو كنت ناصعة الجبينْ هيهات تنفضني الزياره
ما روعة اللفظ المبين السحرُ من وحي الاشاره
ظلٌ على وَهج الحنين رسمته معجزة الاشارة
خطٌ تساقط كالحزين ارخى على العزم انكساره

وهكذا الى آخرها . ولا بد من تعب مضن لادراك ما يرمي اليه ولرؤية الصور التي يرسمها[٣] وذلك عين ما تشعر به سائر منظوماته[٤]

ولما كان الغموض كما ذكرنا آنفاً من ظواهر الطريقة الرمزية وهو عند البعض من اسس البلاغة فلا بدّ لنا هنا من ان نقف ولو لحظة لنبيّن الفرق بين ما تقتضيه البلاغة وما لا تقتضيه . فللغموض اسباب شتّى . منها — **الاخلال** في ترتيب الالفاظ او العبارات بحيث يعسر ادراك النِسب بينها . وعلى ذلك ينتقدون مثل بيت المتنبي .

وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمهُ بان تسعدا والدمع اشفاه ساجمه

---

(١) المقتطف ١٠٠ — ١٣٣

(٢) المكشوف (بيروت) ٤ العدد ١٦٠ وقد قرّظها مستشرق الماني في الرسالة ٧ — ٧٩٦ وشبيه بهذا النوع من الرمزية رمزية احمد مكي في كتابه ليلة القدر

(٣) ولذا ذهب بعضهم مذاهب شتى في تفسيرها . راجع الاديب ٣ ج ٨ ص ٥٦ — ٥٨

(٤) راجع له ايضا النذار في الرسالة ٨ — ٢٤٨ و« الى عواد » في الاديب ٤ ج ٥ — والخريف في برلين — المقتطف ٨٩ — ٢٧٢ .

او قول الفرزدق —

الى ملك ما امّه من محاربٍ ابو أمه حيّ ابوه يقـــاربه

ومنها الاسراف في توخّي الاناقة البديعيّة والاشارات العلمية او التاريخية كما تجد في كثير من شعر ابي تمام والمعرّي وابن الفارض ورسائل قابوس والقاضي الفاضل وعمادالدين الاصفهاني ولسان الدين بن الخطيب وامثالهم .

ومنها عدم استواء المعاني في نفس الكاتب او الشاعر فيجيء الكلام مشوّشاً ينقصه الاتّزان الفكري . وقد ينشأ ايضا عن استعمال الحوشي من الالفاظ او المشترك المعاني او المستعمل في غير وجهه الصحيح . وكل هذه معائب معروفة منذ القِدم .

على انّ من الغموض ما ينشأ عن بعد مرامي الخيال او التحليق العالي في جو الفكر فلا يدركه غير المهيّئين ثقافياً لذلك ككثير من المعاني الجليلة التي نطق بها كبار الشعراء والمفكرين . وفي ذلك يقول احد ادباء العصر واصفاً الطريقة الحديثة[1] — « وهي ايضا راغبة بالانطلاق فلا تعوقها الحدود ميلاً الى التجنيح . وكان لهذه الرغبة اثر بارز في الاسلوب مال به الى جهة الانبهام الذي احسّت به انه السبيل الوحيد للتخصيب الروحي » .

وقد يسمّى ذلك بعضهم الايغال في عالم اللاوعي .

وممّا لا مراء فيه ان النمط العالي من الكلام ما اقترن فيه اللفظ بالخيال البعيد والفكر السامي اقترانا لا عنت فيه ، مساوقاً لحركة العاطفة ومقتضى الحال — وليس من بلاغة في السهولة الفارغة التي تُسفّ الى دركة الابتذال فلا تحرّك الشعور او ترفع النفس الى ما فوق العاديّ .

ومن الخطأ ان نظنّ ان الرومانتيكيّة او غير الرومانتيكية من المذاهب الشعرية تجد في مثل هذه السهولة غايتها المنشودة . فكما ان التقعّر اللغوي والتكلّف البديعي مغايران للنمط الادبي العالي كذلك الاسفاف والابتذال .

ولا مراء ان نهضتنا الادبيّة الحديثة قد اتخذت منذ اوائل هذا القرن شكل

(١) العلايلي في الاديب ٢ ج ١١ ص ٤

ثورة على التقليد اللغوي والبياني فكان همّ المجدّدين الدعوة الى البساطة الطبيعية والتحرّر من قيود الصناعة الكلاسيكيّة . وقد وجدت في المهاجر نخبة من اشد انصارها حماسةً . لكنّ البساطة الرائعة التي تروقنا في اقوال الموهوبين من ادبائنا قد مسخت عند غيرهم وتدنّت الى دركة الاسفاف حتى اصبح الشعر عندهم كالنثر العادي فزالت روعته وذهبت نضارته . وكان ذلك من الاسباب التي حدت البعض الى توهم الفساد في الطريقة الرومانتيكية نفسها وتوخّي طريقة اخرى ترفع المستوى الشعري فكان ما كان من ظهور الرمزية واقبالهم عليها .

فهي ليست مدرسة ادبية بل ثورة على ما بلغه الشعر من جمود[١] . وقد انعشته ورفعت مستواه على انها قد وصلت عند بعضهم درجة من العنت والاسراف في ابتغاء البعيد ما لا يتفق وغايات البلاغة .

والذي يبدو لنا ان البلاغة لا تنحصر في مذهب شعري معيّن ففي كل مذهب تجد العالي من الكلام كما تجد المسفّ او العادي . فلو وازنت مثلاً بين الرومانتيكية والرمزية لوجدتها على اتفاق في ان الشعر النفيس ما استطاع بسموّ الخيـــال وروعة التعبير ان يرفع النفس الى جوّ شعوريّ اعلى من جوّها العادي — ان يسمعها من انغام الوجود ما لا تسمعه عادةً في الوجود المادي . وانما تختلفان في اداة التعبير . فالاولى تعتمد روعة الوضوح في الاداء والثانية تعتمد روعة الغموض والايحاء .

والواقع ان معظم الشعر الجيّد في ادبنا المعاصر رومانتيكي الاسلوب متأثر بعضه بالنزعة الرمزية . وانك لتلمس في اقوال شعرائنا المطبوعين حيوية قائمة على حسن التخيّل واشراق المعاني وجدّة التعبير[٢] . والامثلة على ذلك كثيرة في منظوماتهم واليك مثلاً هذه الابيات لعمر ابو ريشه — قال يصف مصرع فنان

---

(١) راجع مقال اميل هنريو في المكشوف ٢ ع ٥٤ .

(٢) امثال بشاره الخوري وايليا ابوماضي وميخائيل نعيمه وفوزي معلوف وشفيق معلوف واحمد زكي ابو شادي ومحمود اسماعيل وعلي محمود طه وبدوي الجبل وصلاح لبكي ونقولا فياض وسليم حيدر وبولس سلامه ومهدي الجواهري وكاظم السماوي وعمر ابو ريشه ويوسف غصوب واليـاس ابو شبكه وابرهيم العريّض وسواهم .

نامَ عن كأسه وعن احبابهْ قبل ان ينقضي نهـار شبابهْ
بسمات الرضى عـلى شفتيه وشتات الرؤى عـلى اهدابه
وبنـات الغروب تسكبُ في اذنيه موجـات عوده وربابه
لابساتٍ حمر المـآزر مرّت ريشة الافق فوقهـا بخضابه

وقوله – في عجز الانسان عن معرفة سرّ الوجود

نحن نسج الثرى فما لامانينا على كل كوكبٍ تتفانى
وخفيٌّ الوجودِ ما انفكّ لا ينبض قلباً ولا يرفّ لسانا
طلبته عينُ الخيـال فلمّا لمحته تكسّرت اجفـانا

وفي الذي يرضى حياة الذلّ –

قل لمن يعشق الحياة على الذلّ ويخشى بروق عمرٍ قصير
النواعيرُ تنفث الضجر القاتل ما بين دمعهـا والزفير
سئمت عمرها الطويلَ فما تندبُ الا خلودها في الدهور

واكثر الناشئة الجديدة تميل الى هذه الطريقة في النظم . ولا يعني ذلك ان المحدثين عموما يفوقون القدماء في روعة التعبير وجمال التصوير ولكنه يعني ان ادبنا الحديث قد دمغ بطابع فنّي جديد وهو في الاصل ثورة عـلى الطريقة الواقعية او اليقينية التي يغلب فيها التفكير الواعي على الهيام في عالم الشعور والخيال .

حرية الاخراج في النظم

التوشيح العصري – الشعر المنثور والنثر الشعري – الاناشيد الفصيحة – الاغاني العامية

ظهرت القصيدة العربية منذ اقدم الازمان في شكل سلسلة ابيات مستقلة مطّردة القوافي ولا تزال كذلك في الوقت الحاضر. على ان تاريخ الشعر العربي لم يخلُ من بعض التطوّر في اسلوب النظم. واهمّ ظواهره نشوء التوشيح في الاندلس. وقد شاع التوشيح في الاقطار العربية فاصبحت الموشحة كالقصيدة اسلوبا معروفا يمارسه الشعراء ويتنافسون فيه.

وتختلف الموشحة عن القصيدة التقليدية في امرين رئيسيين – احدهما ان الاولى ليست سلكاً من ابيات مستقلة تجري جميعها على رويّ واحد، بل هي سلسلة ادوار متناسقة الترتيب متنوّعة القوافي. والثاني انها لا تتقيّد تقيّد القصيدة ببحر واحد، اذ منها ما يبنى على اكثر من بحر. وانما يتطلّب فيها التناسق الدوري – اي تشابه الادوار في طريقة النظم – ممّا يجعل منها قطعة فنيّة واحدة.

وهي عادةً مؤلفة من مطلع (او لازمة) وادوار. وكلّ دور مؤلف من ابيات اعاريضها على رويّ واحد[١]، وضروبها على رويّ آخر[٢]. وينتهي الدور بما يجارى المطلع وزناً ورويّاً. كما يتضح لك فيما يلي –

والاعمّ في التوشيح ان تكون اللازمة بيتين وبقية الدور ثلاثة كموشحة ابن الخطيب المشهورة التي مطلعها –

جادكَ الغيث اذا الغيث همى   يا زمانَ الوصل بالأندُلس
لم يكن وصلك الا حُلما   في الكرى او خلسة المختلس

---

(١) العروض هي اخر الشطر الاول من البيت والرويّ الحرف الذي تجري عليه القوافي.
(٢) الضرب هو اخر الشطر الثاني من البيت

واليك الدور الاول منها وهو مثال لجميع الادوار

اذ يقود الدهر اشتات المنى ينقل الخطو على ما نرسمُ
زُمرا بين فرادى وثُنا مثلما يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيا قد كلّل الروض سنا فثغور الروض منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالكٌ عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعلما يزدهي منه بابهى مَلبس

فالدور كما ترى مؤلف من ثلاثة ابيات اعاريضها على رويّ هو (نا) وضروبها على رويّ آخر هو (مُ) ويتبعها بيتان هما اللازمة لان عَروضيها وضربيهما يماثلان للمطلع . وعلى هذا المنوال اكثر الموشحات .

على انهم لم يحصروا التوشيح في عدد معيّن من الابيات للدور الواحد او في شكل واحد من الاشكال . بل تفنّنوا في اخراجه كما فعل ابو بكر ابن زهير في موشحه التالي . ومطلعه او لازمته –

ما للموّلهْ . من سكره لا يُفيقْ . يا له سكرانْ
من غير خمرِ . ما للكئيب المشوق . يندب الاوطانْ

وهذي اللازمة كما ترى مؤلفة من سطرين كلّ منهما ثلاثة مصاريع تجري على هذه التفاعيل – مستفعلاتنْ – مستفعلن فاعلن – فاعلنْ فَعلنْ

وسترى انها ستجري على هذا النسق في كل الادوار ويُلتزم فيها المحافظة على رويّ كل مصراع . فالدور الاول كما يلي –

هل تستعادْ – ايامُنا بالخليج – وليالينا
او يستفادْ – من النسيم الأريج – مسك دارينا
او هل يكاد – حُسن المكان البهيج – ان يحيّينا

. . .

روضٌ أظلّهْ – دَوحٌ عليه انيقْ – مورّق الافنانْ
والماء يجري – وعائمٌ وغريقْ – من جنى الريحان

وقد يكون المطلع او اللازمة في بعض الموشحات بيتاً واحدا والدور ثلاثة او اربعة اجزاء على رويّ واحد . وهناك اشكال اخرى وكلّها كما سبق القول تقوم على لازمة افتتاحية وسلسلة من الادوار واللوازم اللاحقة .

وبالرغم من شيوع الموشّحات في الاندلس وسواها بقي للقصيدة العُرفية مكانها الاول وسيادتها في عالم النظم . والذي يتابع تطوّر الاسلوب الشعري يستطيع ان يلاحظ انه لم يكن في خلال الفترة الواقعة بين عهد التوشيح الاندلسي والعهد الحديث ما يدلّ على تقدم يذكر في مضمار التوشيح . ولعلّ الاصحّ ان نقول ان هذا الفنّ قد اعتراه مع الزمن ما اعترى سواه من التأخر حتى امسى قبيل النهضة الاخيرة تقليدا لما سبق من موشحات الاندلسيين المعروفة .

اما اليوم فهناك اتجاه عام الى احيائه والتفنن في اساليبه ولاسيما بين الذين احتكوا بالعالم الغربي واطّلعوا على اساليبه الشعرية . كما ترى في منظومات المهاجرين من اعضاء الرابطة القلميّة في اميركا الشمالية او العصبة الاندلسية في اميركا الجنوبية وسواهم . فالتوشيح الجديد متأثر من جهة بالطريقة الاندلسية ومن جهة اخرى باساليب النظم عند الغربيين . ويظهر هذا التأثر المزدوج في موافقته للتوشيح الاندلسي بتناسق الادوار ومخالفته له في عدم التقيّد بالمطالع اللازمة .

وقد استساغه المجدّدون في جميع الاقطار فشاع حتى بلغ المناطق البعيدة عن مركز النهضة الادبية الحديثة، كتونس مثلًا والحجاز . ففي الاولى تجده في شعر حسين الجزيري وسعيد ابو بكر ومحمد الفائز وابو القاسم الشابي وسواهم[١]. وفي الحجاز يبرز في هذا المضمار احمد العربي واحمد قنديل وحسين خزندار وعبدالوهاب آشي وعمر عرب ومحمد قفّي[٢] .

ويطول بنا الكلام لو وقفنا على ما تخرجه مطابع مصر ولبنان وسوريا والعراق من هذا الباب فنكتفي للايضاح ببعض الامثلة —

(١) راجع مختارات من اشعارهم في كتاب الادب التونسي في القرن الرابع عشر .

(٢) راجع آثارهم في كتاب وحي الصحراء (القاهرة ١٣٥٥ ه)

نشيد الارض – للدكتور نقولا فيّاض . وهاك مطلعه[١] –

لقد شبتُ ومـــا شبتُ تقول الارض للنـــاس
فمـــن شرقٍ الى غرب ومن قطب الى قطب
ومن رأسي لأطرافي
يمرُّ الدهر كالحلم – على جسمي – فلا يوهن من عزمي
ولا يرهق اعطـــافي
وكيف أُصاب بالهرَم ومن ذهب الضيـاء دمي
وامّي الشمس في الفجر بقبلتهـــا عـــلى ثغري
تجدّد حرّ انفـــاسي
لقد شبت ومـــا شبت تقول الارض للنـــاس

وهكذا سائر الادوار

وللدكتور فياض نشيد آخر موضوعه « يا ليل »[٢] . ومن ادواره – (وهي غير مقيّدة بتناسق الاجزاء او القوافي)

طلع البدر يشقّ الحجبا – مُعجبا
فالغيومْ – كلحافٍ قطنه مندوفْ
او قطيعٍ من خراف ابيض الصوفْ
والنجومْ – في السماْ . تطرق الطّرف حياءْ
وعلى الارض بياض الكفنِ . وصلاة الزمنِ

. . .

ما نجوم الليـــل الا مُقلٌ ترنو الينـــا
مُقل الاموات ممّن ذكرهم غالٍ علينـــا

(١) راجعه في كتابه «على المنبر» ٢١١ وفي مجلة الجمهور بيروت مج١ (ع) ١٥ والهلال ٥٤-١٣٦
(٢) راجعه في جريدة النهار (بيروت) العدد ١٨٥٣ .

فاذا ما الشمس غابت والدجى
غمَر الارض اماناً وحنانا اقبلت من عالم الغيب علينا
لتَرانا

ومما يذكر له في هذا الباب قصيدته في مهرجان المتنبي الالفي[١] . وقصيدة له من باب الشعر الطليق القوافي[٢] . موضوعها « وانا قد نسيت فتح الباب »

ومن امثلة التوشيح الجديد . نشيد « انت همي » لبشاره الخوري وهو ذو قرار يعاد بالفاظه في نهاية كل دور . ومنه ـ[٣]

لازمة
اسقينيهـــا بابي انت وامّي
لا لتجلو الهمّ عني ـ انت همّي

(دور)

املأ الكأس ابتساما وغراما
فلقـــد نام الندامى والخزامى
زحم الصبحُ الظلاما ـ فالامَ
قم ننهنهْ شفتينـــا ونذوّب مهجتينا
رضي الحبُّ علينـــا يا حبيبي
بابي انت وامّي اسقينيها
لا لتجـلو الهمّ عني انت همّي

(دور)

غنّني واسكب غناكْ ـ ولماك
في فمي فديتُ فـاك ـ هل اراك
وعـــلى قلبي يـداك ـ ورضاك
هكذا اهلُ الغزلْ ـ كلّما خافوا المللْ

---

(١) مجلة المكشوف (بيروت) مج ٢ ع ٦٠ .
(٢) جريدة البرق (بيروت) ع ٣٣٨٨ .
(٣) راجعه في « الجمهور » بيروت مج ١ ع ٢ .

انعشوه بالقُبَل – يا حبيبي
بابي انت وامي – الخ

ومن هذا الباب « نشيد الصباح » لخير الدين الزركلي وفيه يقول(١) –

ما العيشُ ان تنعم في ظلِّ الأراكْ وان ترى العالم وهو لا يراك
لا بدَّ للساكن يوما من حراك ان الحياة لجهادٌ وعراك
شرُّ الامانيّ اماني الحالمِ
ما بلغ الغاية غير الحائم – جهدا ورَومْ
ابتسم الفجر فقل للنائمِ – يكفيك نوم

وموشح موضوعه « اسطورة »(٢) لالياس ابو شبكه يبدأه بقوله –

كانَ ما كانْ في ربى لبنانْ

ويتلو ذلك عدد من الادوار تنتهي جميعها بالعبارة « كان ما كان » نثبت منها للتمثيل الدور التالي –

بكر العصفورْ دون ميعادِ
واستفاق النورْ في الوادي
والصّبا لمّا تزل سكرى تخبط الدوح وتمردُه
وبرفقٍ تعطف النهرا لا تُجعّده
والنّدى يصحو على العنقودْ فكحلم الطفل مَبسمه
وشفاه الشمس تطعمه وتروّي كنزه المرصودْ – حين تلثمهُ
والدُّمى الاجفانْ والشذا العابرْ
كلّها الوانْ للشاعر
كلّها الحانْ كان ما كان

ولهذا الشاعر في ديوانه الالحان كثير من هذا القبيل .

(١) ديوانه ص ٣
(٢) في الجمهور (بيروت) ١ ع ٢ ٤٢

ومما يذكر من قبيل التوشيح الجديد – « انشودة الم » لالياس زخريا[1]. وقصيدة للقروي موضوعها « الفرح »[2]، واغنية الغندول لمحمود طه ، والامواج والشاطيء لحسن الصيرفي .

وقس على ما ذكرنا عشرات من المنظومات الحديثة .

وقد بلغ حبّ التجديد في النظم عند بعضهم انهم حاولوا وضع ابحر جديدة لم يعرفها العرب . كما فعل خليل المطران في مقطوعة على وزن فاعلاتن اربع مرات[3]، وبشر فارس في اخرى جعل قسما منها على فاعلاتن مفاعلتن وسماه بحر المنطلق[4]. على ان هذه المحاولات لم تات بثمر .

وقد قويت نزعة التخلّص من قيود الابحر المعروفة واطّراد القوافي حتى لهج كثيرون بالشعر المطلق والشعر المنثور وفعلًا حاولها البعض . اما الاول فلم تسفر محاولته عن اثر يذكر . فلننظر قليلا في الثاني لنتبيّن الى ايّ حدّ بلغ به دعاته .

الشعر المنثور

وهنا لا بدّ لنـا من التمييز بين النثر الشعري والشعر المنثور . فالاول اسلوب من اساليب النثر تغلب فيه الروح الشعريّة من قوّة في العاطفة وبعد في الخيال وايقاع في التركيب وتوّفر على المجاز . وقد عرّف بذلك كثيرون وفي مقدّمتهم جبران خليل جبران حتى صاروا يقولون الطريقة الجبرانية . ومن اراد الاطلاع اليها فليطـالع كتابيه العواصف ، والبدائع والطرائف ولاسيما الفصول التالية :

(١) في الجمهور (بيروت) ١ ع ٤٦

(٢) الهلال ٣٠ – ٢٣٢ .

(٣) مجلة الزهور (مصر) ١ ج ٢

(٤) الرسالة (مصر) ٨ – ٨٩ والثقافة ٣ ع ١٥٣ ص ٧ .

« الله »	في البدائع والطرائف	يا بني امي	— في العواصف
ايها الليل	» » »	نحن وانتم	— » »
بين ليل وصباح	» » »	العبودية	— » »
لكم لبنانكم	» » »		
مناجاة ارواح	» » »	المخدرات والمباضع	» »
ايتها الارض	» » »	حفّار القبور	» »

على ان الشعر المنثور غير هذا النثر الخيالي . وانما هو محاولة جديدة قام بها البعض محاكاةً للشعر الافرنجي . وممّن فتحوا هذا الباب امين الريحاني فان له في الجزء الثاني من ريحانيّاته عشر قطع وفي الجزء الرابع ثلاث عشرة قطعةً تلمس في جميعها هذه النزعة الى النظم الحرّ من قيود الابحر العَروضية المعروفة. كقوله مثلًا من نشيد الثورة —

هي الثورة ويومها العبوس الرهيبْ
ألويةٌ كالشقيق تموج . تثير البعيد تثير القريب
وطبولٌ تُردّد صدى نشيد عجيب
وابواقٌ تنادي كلّ سميعٍ مجيب
وشررُ عيونِ القوم يرمي باللهيب
ونارٌ تسأل هل من مزيد . وسيفٌ يجيب وهولٌ يشيب
ويلٌ يومئذ للظالمين ويلٌ من كل مريد مهين
طَلّابٍ للحق مدين ويل للمستعزّين والمستأمنين
هي ساعةٌ الظالمين

وعلى هذا النسق قوله في مرثاته الملك فيصل الاول ومطلعها —

حلّق النسر في الفضاء بعيدا
رجع النسر في الفضاء شهيدا
شهيداً يكفّنه السحاب
شهيداً تشيّعه النجوم

شهيداً نعته شمس الضحى
شهيداً حملته اكفُّ السما
فكان علياً وكان حميدا

وقد جرى عدد من المحدثين على احدى الطريقتين – الجبرانيّة والريحانية – او على الطريقتين معاً . كما ترى في مجموعة « عرش الحب والجمال »[1] التي يقول الريحاني في مقدمتها – « هوذا ديوان شعر لشابّ هام بالحبّ والجمال والفضيلة ونبذ في صنعة الشعر القوالب والقياسات المعروفة كلّها فصاغ لفكره وخياله وعاطفته القالب الذي ظنّه مناسباً لها » .

ومن هذا القبيل مجموعة « نسمات وزوابع »[2] وكتاب « ضجعة الموت » او بين احضان الابدية[3] . وهناك قطع متفرّقة لشعراء مختلفين . نثبت منها هنا قطعة لحبيب اسطفان موضوعها « موت ادونيس »[4] . وهي مؤلفة من ٢٥ دوراً يذكر فيها ما تناقلته الاساطير عن ادونيس ومصرعه في جبال لبنان ونوح حبيبته الزُّهرة عليه . وهاك بعض ادوارها وسترى انها تجري على طريقة شعرية متناسقة الاجزاء

اوّاه عـلى ادونيس كيف يُجرّ على الصخورْ
يصبغها دمه الجاري من اعضائه الناعمـــاتْ
ها هو في الوادي يفترسه الحيوان المصور
اواه ! ادونيس قد ماتْ

ومنها واصفاً ما اصاب « الزهرة » من لوعة وشقاء عندما رأته مضرّجاً بدمائه :

فغشّت عينيهـــا بيديها والتفتت الى الوراءْ
وهي تعجّ عجيجاً ارجف من لبنان الصخور
فسكتت الامواج ذُعراً وهوت من العلاءْ
الى جوف الوادي النسورْ

---

(١) لمنير الحسامي نشرها ١٩٢٥
(٢) نشرتها المطبعة العصرية بمصر ١٩٢٧
(٣) لداهش طبع القدس سنة ١٩٣٦
(٤) مجلة المناهل (بونس ايرس) ١ ع ١١

وامرعتْ اليهــا الالاهاتُ فدهاها الصياحْ
إلاهات الاشجار والانهار والرُّبى والوديانْ
لاطماتِ الخدودِ رافعـاتِ العويلِ والنُّواح
باكياتٍ باشجى الالحانْ

. . .

والتففنَ حولهـا ينُحنَ معهــا على الحبيبْ
يا ادونيس ! كيف مُدَّتْ الى الاله يدُ الحمام
يا ادونيس ! كيف ذُبلَ غصن حياتك الرطيب
ويبس زهرهُ البسّام

ولزيادة الفائدة نذكر القطع التالية لمن يود مراجعتها .

رثاء اسكندر عازار	– بشاره الخوري	جريدة البرق (بيروت) ١٦ كانون الثاني ١٩١٩
الحان الجماجم	– لخليل المنداوي	الجمهور (بيروت) سنة ١ جزء ٩
المدينة الهاجعة	– » »	الرسالة (مصر) ٢ – ١١٧٩
الله في علاه	– لسيّد عبده	» » ٧ – ١٥٤٩
الحلم الجميل	– لوليم كاتسفليس	المناهل ١ عدد ١١
وداع لبنان	– ميّ زياده	المقتطف ٦٥ – ٣٧٧
رثاء اليازجي	– ليوسف غير	ديوان المطران (١٩٠٨) ٢٧٦
انا الميت الحي	– لتوفيق مفرّج	المقتطف ٨٢ - ٦٧
نشيد القافلة	– لرئيف خوري	مجلة الطريق مج ١ جزء ٧
هكذا كان	– لنقولا بسترس	الاديب ٢ ج ٣ ص ٣٣
هات رفشك	– لاحمد السباعي	وحي الصحراء ٦١
ذراع الجبّار	– حسين خزاندار	» » ١٤٠
امشِ	– عزيز ضياء الدين	» » ٢٤٤
فاجعة	– » »	» » ٢٦٦
الى المجهول	– شحاده الخوري	مجلة الكاتب ٣ – ٧٢١
القبّرة	– خليل المنداوي	المقتطف ٩٩ – ١٧٤

ومما يجمع بين النثر الشعري والشعر المنثور مجموعة مواكب الحرمان لسالم الكاتب (نشر ١٩٤٩)

الاناشيد والاغاني

ومما يعدّ من قبيل التفنن الحديث في النظم الاناشيد والاغاني . ولا ينكر ان القدماء لم يقصّروا في صناعة الغناء بل كان لهم بها عناية تُذكر . وقد راجت هذه الصناعة قديما في المدينة فدمشق ثم في بغداد والقاهرة وقرطبة وسائر الحواضر العربيّة . وكان المغنون اوّلاً يتناشدون قصائد لبعض الشعراء او ابياتاً لهم كما نرى في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني الذي جمع لنا اصواتهم المشهورة وما كانوا ينشدونه في المجالس . ولما ظهر التوشيح في الاندلس شُغف المغنون بانشاد ما كان يضعه الموشّحون وتفننوا في ذلك وفي ما تبعه من الشعر العامي.

على انه لم يكن عصر عمّت فيه الاناشيد وتنوّعت حتى اتصلت بمختلف النواحي في حياتنا الاجتماعية كهذا العصر الاخير . فليست بعدُ منحصرةً في مجالس الطرب او الحزن كما كانت قديما بل هي اليوم فنون مختلفة وضروبٌ شتى وتدخل جميعها في بابين رئيسيين باب الاناشيد الصحيحة اللغة، وباب الاناشيد العاميّة . واليك كلمة في كلّ منها .

الصحيحة اللغة

وهي عند التحقيق من قبيل التوشيح وتتناول شتى المواضيع القومية والاجتماعية والمدرسيّة والروحية والغزلية وسواها .

فالقوميّة نوعان – الاول نشائد « رسمية » للدول العربيّة المختلفة . وهي التي تغنّى او تعزف في الاجتماعات الرسميّة والاحتفالات العمومية . وقد انفردت كل دولة بنشيد خاصّ عرف لها دون سواها . وهذه النشائد مشهورة لا تحتاج الى تبيان والثاني – نشائد قومية او وطنيّة عامّة يتغنّى بها الناس ويرون فيها ما

يوقد حماستهم ويغذّي شعورهم . كنشيد « الشباب » لبشاره الخوري الذي مطلعه[١]

نحن الشبابْ – لنا الغدُ . ومجدُهُ المخلّدُ
نحن الشباب

ونشيد « العَلَم » – وهو يبدأ بقوله[٢]

يا علمي – عَلَم العُرب اشرقِ واخفقِ
في الافق الازرقِ – يا علم

ونشيد « موطني » – لابرهيم عبد الفتاح طوقان . ومنه[٣] –

الجلال والجمالُ والسناء والبهاءْ – في رُباكْ
والحياة والنجاة والهناء والرجاء – في هواك
هل اراكْ – سالماً منعّما – وغانماً مكرّما
هل اراكْ – في علاكْ – تبلغ السماك – موطني

ونشيد – بلاد العُرب اوطاني – لفخري البارودي
« – انت سوريا بلادي
« – يا سوريا – لارنست نعمة الله الهلال ٢٧ – ٤٢٨
ونشيد الجامعة العربية – لمحمد بجذوب (جريدة بيروت ١٥ شباط ١٩٤٨)
ونشيد الوطن – لشوقي، وللرافعي (الهلال ٢٩ – ٣٣٧)
ونشيد – يا بلادي لمحمد الحناوي (مصر) الثقافة ١٠ ع ٤٨٠
وعشرات سواها مما هو شائع تردّده الشفاه القومية . ونخص بالذكر منها اناشيد الاستقلال لجورج غريب (١٩٤٤) وتلحين فليفل اخوان .

وقريب من هذا النوع القومي العام ما يتعلق بالجمعيات والمنظمات الوطنية مثل نشيد الطلائع المصرية – لارنست نعمة الله (الهلال ٢٩ – ٣٥٣)

---

(١) راجعه في مجموعة اناشيد العروة الوثقى في الجامعة الاميركية بيروت .
(٢) مجموعة اناشيد العروة .
(٣) مجموعة العروة ايضا .

نشيد الكتائب اللبنانية – لبشاره الخوري (جريدة النهار عدد ٢٨٩١)
« النجّاد – لمحمد يوسف حمود « « « « «
« العروة الوثقى في جامعة بيروت الاميركية – لسعيد عقل مجموعة اناشيد العروة
« الشجرة – لمحمد يوسف حمود نشرته جمعية اصدقاء الشجرة في بيروت ١٩٤٣
« الفلاّح – لمحمود ستيتيّه مجلة جمعية اصدقاء الشجرة في بيروت

وكثير غير ذلك ممّا لا يتسع له المقام ويدخل فيه عدد كبير من الاناشيد المدرسية التي تحضّ على حبّ الوطن والسعي نحو العلى ومكارم الاخلاق

النشائد الروحية

وهي تُرنّم عادةً في المعابد او الاحتفالات الدينية وكلّها ترمي الى توجيه النفس نحو الله وتنزيهها عن غرور الدنيا واباطيلها. وليس في تاريخ الادب العربي من ذلك الا القصائد النبوية وما في معناها وقد مرّ ذكرها في باب « الاتجاه التاريخي ».

اما اليوم فقد تنوّعت هذه النشائد واصبحت عند بعض الطوائف من اسس العبادة الجمهورية. وممّا لا شكّ فيه ان الغربيّين ولاسيما الالمان والانكليز والاميركان قد سبقونا شوطاً بعيداً في هذا المضمار فان كثيرين من كبار شعرائهم وموسيقيّيهم قد اشتركوا في ترقية هذا الفنّ فاوصلوه نظماً وتلحيناً الى درجة عالية جداً.

ويقرب من الاناشيد الروحيّة الاناشيد الاخلاقية التي ترمي الى تهذيب الاخلاق الشخصيّة ورفع مستوى الحياة العمومية.

النشائد الغزلية

وهي التي تغنّى في مجالس الطرب وحفلات الانس ومنتديات اللهو. ومن روّادها في القرن الماضي الشيخ امين الجندي الحمصي فان له عدداً من الاغاني المعروفة مثل « يا صاح الصبرُ وهي منّي » « وشادنٌ صاد قلوب الامم »

وغيرهما وتجد اكثرها في ديوانه .

والغناء الغزلي ميدان واسع جرى فيه كثيرون من ادباء النهضة الحديثة وكثيرٌ مما نظموه في ذلك معروف متداول نذكر منه على سبيل التمثيل –

ويلي من الغرامِ مسبّب السقامِ قد قصّرت ايامي لواعج الهوى

ظبية الانس اليّ

تعالي اليّ فؤادي يناديكِ في هدأة الليل هل تسمعين – لرشيد خليل تقي الدين

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء – لاحمد شوقي

مضناك جفاه مرقده – له ايضا

ومن المعروفين في النظم الغنائي الغزلي احمد رامي وله مجموعة اغاني منها –

يا غائباً عن عيوني وحاضراً في خيالي

تعالَ هدىء شجوني طالت عليّ الليالي

تعالَ آنس فؤادي تعالَ سامر سُهادي

على ضفاف النيل بين الزَّهرِ

وفي ضياء البدر تحت الشجر

او فاهبطِ الزورقَ يسبحْ بنا وغنّى لحن الهوى والمنى

واجعل سماء المغاني تدوي بعذب الاغاني

تصغي لك الدنيا وابكي انا

ومن الغزليّات المعروفة هذه القطعة لبشاره الخوري[1] –

الهوى والشبابُ والامل المنشود توحي فتبعث الشعر حيّا

والهوى والشباب والامل المنشود ضاعت جميعها من يديّا

يشرب الكأس ذو الحجى ويبقّي لغدٍ في قرارة الكأس شيّا

لم يكن لي غدٌ فافرغت كأسي ثمّ حطّمتها على شفتيّا

ولهذا الشاعر ولسواه قطع كثيرة من هذا الباب .

---

(١) راجعها في البرق عدد ٣٣٧١ .

الاناشيد العامية

ويمكن قسمتها ثلاثة اقسام – الغنائي والزجلي والبدوي او الشروقي . فلنقف قليلاً على كلّ منها .

الغنائي

وهو ما يوضع ليتغنّى به . واوسعه انتشاراً ما يصدر عن عواطف الحب والشوق . ومن هذا ما توارثه الناس عن اجيال سبقت كالاغاني التالية – يا بو الزلف – عالیادي اليادي – عالروزنا – قدّك الميّاس – دلعونا

ومنه نوعان شائعان جدا هما العتابا والموّال . وفي كليهما يراعى الجناس في قوافيه . ويتكوّن دور العتابه عادةً من اربعة اشطر يتقيد الثلاثة الاولى منها بالجناس اللفظي ويجيء الرابع بأي الرويّ – فمن العتابا العراقية قول احدهم

مشوا ما جابهم صايح ولو ماي[1]
ولا ينفع بهم عذلي ولوماي[2]
ارض وعره سرو بيها ولاماي[3] ولا سمعوا لي احبابي جوابا

ومن العتابا اللبنانية –

برّبكْ يا حمامْ الدوحْ وَدّي سلامي وعالحبيبْ نشورْ وِدّي
مرادي يا رسولي وكل ودّي تسلّم بالوفا وتاخـــد جوابا

. . .

واما الموّال فنوعان – الموّال البغدادي والموّال المصري . والفرق بينهما ان الاول مؤلف عادة من سبعة اشطر يتقيّد بنوع من الجناس الاول والثاني والثالث والخامس منها وبنوع آخر الرابع والخامس – كقول احدهم من موّال[4] –

---

(١) اي لا صباح ولا اعياء (٢) لومي (٣) ماء

(٤) راجع كتاب الاغاني الشعبية لعبد الرازق الحسني ص ٣٢ – ٨٤ .

السفنْ البنــاها بقلبي نُوح لك عايمه
والعينْ من نحبها فوق الوجه عايمــه
بيني وبينــك جزائر في البحر عايمه
ما نْسى ودادك ابد لو صرت بالحفره
حبّك لقابي فتــح باب الهوى بحفره
لو حــل يومي وجسمي ينزل الحفره
لارسلْ لك الروح مع موج البحر عايمه

واليك هذا الدور من موّال للشيخ ناصيف اليازجي[1] الشاعر المشهور

خذ للمحبين من لحظــك امان وراي
يا من غرامك نصبْ فينا خيام وراي
والله قد حرت ما عاد لي سبيل وراي
يا من على مبسمك شهد العسل خاتم
ودعت قلب اليحبــك بخنصرك خاتم
لا زلت اول مــلاح العصر والخاتم
وانا امام الهوى والعــاشقين وراي

اما المصري فمؤلف عادة من اربعة او خمسة اشطر يتجانس منها الاول والثاني والثالث والخامس . وقد يكتفى بالتقفية دون الجناس كقول احدهم

طرقتْ باب الحبا قالتْ من الطارقْ
فقلت مفتونْ لا نــاهبْ ولا سارق
تبسّمتْ لاح لي من ثغرهـــا بارق
رجعتْ حــيران في بحر ادمعي غارق

ولم يكتف العصريون بما توارثوه عن اسلافهم من الاغاني الحبية بل استحدثوا من ذلك الشيء الكثير وهو يستعمل في حفلات الانس ومجالس اللهو والطرب ويذاع على امواج الاثير من محطات الشرق والغرب حتى صار يردّده اليوم

(١) جريدة الرائد الممتاز (سنة ١٩٢٧) ص ٦٥

جمهور الناطقين بالعربية في الاوطان وفي المهاجر .

على انّ هناك انواعاً اخرى من الغناء شاعت واستحسنها الجمهور ومنها

الغناء الاجتماعي

وهو اسلوب مستحدث ويدور بالاكثر على وصف الحياة العامّة ونقد بعض الاحوال والعادات . ولاختلاف اللهجات والعادات ترى له في كل قطر صبغة خاصّة ففي لبنان مثلاً اناشيد عمر الزعنّي وهي معروفة خارج لبنان ايضا ومن امثلتها تلك التي انشدها في العهد الانتدابي عند صدور الامر بان يلبس القضاة اللبنانيّون رداء القضاء « الروب » . ومطلعها —

عالموبْ الموبْ الموبْ والقاضي لابسْ توبْ
والحقّ اخـذْ مجراهْ ما عادْ في ظلمْ بنوبْ (البتّة)

وترى عليها كما ترى على الكثير من اناشيده تلك المسحة التهكّمية التي تروق الجمهور وتطربه اذ تعبّر في اكثر الاحيان عن شعوره وتنطق بلسانه . ومثل نشيد « الروب » نشيد الفرنك الذي نظمه سنة ١٩٣٦ يوم هبط سعر الفرنك وتدهورت وراءه الليرة السورية اللبنانية ومطلعه — حاسبْ يا فرنكْ حاسبْ

ومن اغانيه المصوّرة لبعض الاحوال الاجتماعية — ما يلي —

« كلّو نظيفْ . كلّو ظريف » — يصف فيها تهتّك بعض الشباب في هذا العصر « شي بيحيّر . شي بيطفّر » — يصف سوء تصرّف الناس وحبهم الظهور الفارغ وعلى هذا الطراز — اختلط الحابل بالنابل — خدها بطولة البال — شبان شيك — شوف تفرّج آه يا سلام ، وكثير سواها[١]

المونولوج

وهي لفظة يونانية ويراد بها حكاية حال يمثلها شخص واحد ويسودها عادةً

---

(١) نشر كثيرا من اغاني الزعني وعلق عليها المستشرق Jean Lecerf في كتابه — Littérature Dialectale et Renaîssance Arabe Moderne, 188 — 203.

روح الظّرف والتهكّم . وهذا النوع شائع في مصر بل منها تسرّب الى سائر الاقطار العربيّة واصبح فنّاً من فنون الغناء التمثيلي الفكه . واليك مثلاً من هذا القبيل قول احدهم يصف سوء حظه —

حظّ اعطيني بَحْرْ ارميني
وان كان هايج بيصير غلّيني
واللّي الحظّ مساعدو فوق مالو يزيدو
لو كانت شهاداتك من اكبر جامعات
مش ممكن تفيدك لو طرت السماوات
لا تقلّي شو حكايتك همّي بيكفيني
حظّ اعطيني بحر ارميني

وهكذا الى آخر الحديث . ولزيادة الايضاح راجع المونولوجات التالية[1] —

للشيخ عطيه محمد — في ليله مرّه سكرتْ سكره وبتّ برّه يومين تمام
لامين عطاالله — مونشير انا كل النسوان بتدوخ ساعة ما تشوف رسمي
ولفاطمه قدري — ليلة العيد كنت مخمّر
ولبعضهم — بين البساتين وانا ماشي الخ

وقد ينظم المونولوج دون ان يكون خاصة للغناء فيكون زجلاً عاديّاً يتحدّث فيه الناظم عن بعض احواله او اختباراته

كقطعة للشيخ احمد القوصي موضوعها « جور الزمن » ومطلعها[2]

جارْ الزمنْ وان كنتْ اشكيه جاب لي المصايب بالزوفه
واللّي أباتْ فيهْ إصبحْ فيه والسعدْ لُه ناسْ معروفه

ويلي ذلك ٢١ دوراً ثلاثيا يصف فيها جنيهاً فقده وما سبّب له ذلك من عناء واضطراب .

وقطعة « لابو بثينة » موضوعها — يا ريت عرفت الصنعة دي — مطلعها

---

(١) تجدها وتجد سواها في مجموعات الاغاني كمال الماني او سمير الفرحين وعروس السرور وغير ذلك
(٢) راجعها في ديوانه ص ٩٥ .

ف مرّة ماشي اتفكّرْ   في دَيْنْ مطلوبْ
وحالتي تؤلم وتحسّر   وتبكي الطوبْ

وكان قد ركبه الدين ورأى ان افضل وسيلة لتحصيل المال هي التـوّل (الشحاته على قول العامّة في مصر) فيصف لنا نفسه وهو عـلى هذه الحال ويختمها بقوله[1] —

ان كنت عاوزْ تتفرفش   اعمـلْ شحّاتْ
وخلّي اولادك تشحت   صِبيانْ وبنـاتْ

العناء القروي

ونعني به ما يعبّر عن اشواق النفس الى الحياة القروية . واكثر ما يظهر ذلك بين اللبنانيين اذ تجد في الوطن وفي المهجر كثيرين منهم يبثّون عواطف الحنين الى الحياة الجبليّة ويتغنّون بالعهود والربوع القروية واصفين ما فيها من بساطة وجمال وما تجده النفس لديها من راحة وهناء . ومن افضل الامثلة على ذلك مجموعة « اغاني الضيعة » لاميل مبارك وقد اشرنا اليها في الفصل المخصّص للريف والطبيعة . وهي تضمّ نحواً من ٨٧ انشودة نثبت منها بعض الادوار من قصائد مختلفة — فمن قطعته المعنونة بصورة الضيعة قوله

ضيعتنا غامرهـا النّورْ   مشروره عاراس التـلّ
مدخلهـا درجْ زهور   بتْشوفْ تَجل بضهر الجل[2]
بحواضـا ورد ومنتور   بتضحكلك لمّن بتطلّ
وبيدَوزن صوتو العصفور   على شلّالْ مُوَيّتنـا

ومن « كنت صغير » وهي شائعة الغناء

كنتْ صغيرْ وصرتْ كبيرْ   برمتْ قطـار المسكوني
غني عشت وعشت فقـير   وشفت كتيرْ بزمـاني
وما في عـا بالي بيعنّ   غـير البيت الرّباني[3]

(١) راجعها في مجلة الفكاهة (مصر) عدد ٦٣ وفي هذه المجلة كثير لهذا الشاعر ولسواه .
(٢) الجلّ حقل جبلي . بحواضا : اي باحواضها   (٣) اي الذي ربيت فيه

محلا[١] الضيعه والزرقات والراعي وصوت العنزات
ومحلا خرير الشّلالات تحت شلاح السنديانى[٢]
يا هل ترى يرجعْ بعدْ بسكنْ بيت الربّاني

ومن « يا ضيعه ما بنساكي »

يا ضيعه ما بنساكي وما بنسى الدار
مُش قادرْ عِيشْ بلاكي لو مهما صار
بعدك متلْ ما تركتِكْ؟ يا ضيعتنا
فيكِ صفصاف الباكي وشجراتْ الغار
مُروقْ[٣] عالضيعه واسألها بصوتْ الهادي
ان كان الزهرْ مكلّلها متل العادي
شفلي الصبح مكحّلها بلونْ رمادي
غيابْ الشمس مزنّرها داير مندار

ومن « الحاكوره »[٤]

يا ريت عندي حاكوره وكرمْ وعِرزال ورحمةْ ألله بتكفيني ما بدّي مال
لو إنْ الارضْ فراشي والليلْ لحافْ كنت بعيش عيشه هنيّه مرتاح البال

ومن « بتسألني » والضمير يرجع الى احد المغتربين

بتسألني شو في عندك بالضيعه تنّك[٥] مهتمّ
عندي احسن ما عندك عندي بَسطْ وعندك همّ
في عندي القعده بكّيرْ تحت صنوبر ضيعتنا
وترويقه قرّه وجرجير بتسوى الغربه وعيشتنا[٦]

---

(١) ما احلى (٢) شلاح اغصان (٣) مرّ (٤) الحقل
(٥) حتى انك (٦) اي وعيشتنا في ديار الغربة

الشعر الزجلي

ويطلق اليوم توسّعاً على طرائف شتى من النظم العامي وهو واسع النطاق وقد اصبحت الصحف ومحطات الاذاعة تهتم به وتنقله الى جمهور القراء والمستمعين. ويقول ابن خلدون في مقدّمته ان الزجل ظهر اولاً في الاندلس[١]. على انه كان فيما مضى مقصوراً على الموضوعات التقليدية من غزل ومديح وهجاء. امّا في هذا العصر فانه يدخل ايضا ابواب « الفلسفة والاجتماع والسياسة والقصّة والفكاهة والمسرحيّة والملحمة مع الخيال المرهف العالي والتفكير الناضج والمعنى الرائع » . هكذا يقول احد رجال الزجل في لبنان[٢] ولم يعدُ الحقيقة فيما يقول. وقريب منه ما ذكره احمد ضيف في كلامه عن بعض زجّالي مصر من انهم كانوا يثورون على المجتمع الفاسد والاحكام الجائرة « فينفثون آلامهم ويكشفون عمّا في صدورهم من عبارات تشبه لهجة العامّة في معانيها وتقرب من عبارات الخاصّة في اساليبها . ينظمون هذا كلّه في موازين ومقاييس يحاكون غيرهم فيها او يبتكرونها يملأونها بالنقد الحلو والفكاهة العذبة ويسمّون ذلك زجلاً »[٣]

واهم مواطن الزجل اليوم هي لبنان ومصر . وقد ظهر في مصر منذ اواخر القرن الماضي نخبة من رجال هذا الفنّ امثال عبدالله نديم ومحمد عثمان جلال والشيخ محمد النجّار وامام العبد وبيرم التونسي وابو بثينه ومحمود رمزي نظيم وحسين شفيق المصري وبديع خيري ومحمد غالب المهندس ويونس القاضي وعزت صقر والدكتور ابرهيم الشدودي[٤]

ومن امثلة الزجل المصري قطعة لامام العبد موضوعها « الزنجيّة الحسناء » مطلعها[٥] —

---

(١) المقدّمة . الفصل الاخير في الموشحات والازجال

(٢) وليم صعب في مجلة الاديب السنة ٢ ج ١ ص ٤٢ .

(٣) راجع قوله في الهلال ٥٣ — ٦٥ .

(٤) هو ابناني الاصل ومن المبرّزين في هذا الفن — راجع له زجله الذي ربح الجائزة وموضوعه « شبان العصر في مصر » مجلة سركيس ٣ - ١٩٤ وراجع له ايضا زجلاً في مجلة الفكاهة ع ٧٢

(٥) راجعه في مجلة سركيس ٢ — ٤٥٠ .

العذلْ لا ينفـــعْ اهلهْ والعذلْ من طبع الانسانْ
والشكلْ لا يكرهْ شكلهْ والحقّ مش عاوزْ برهان

واذا عرفنا ان هذا الشاعر كان اسود الوجه لم نعجب من قوله في الدور التالي

الحسنْ ما هوشْ بالالوانْ الحسن بالذوقْ والخفّة
الحسن ما هوش بالميزان يطلعْ ويـــنزلْ بالكفّه
الحسن ظـاهر للاعيـان وخفّة الارواح صدفـه
والناس لها مذهب بالبيض ومذهبي حبّ السودانْ

وهكذا الى آخر الزجل وهو ١٩ دوراً من النظم الجيّد

واليك مثلًا من زجل « ابو بثينة » وموضوعه « جنون الشباب »[١]

مُش عيبْ عليك انت يا فندِمْ يا ابنْ لاعيـانْ
يا رّقـه يا ذوقْ يا مُهندِم يا بو كم فدانْ
في الهلس عمّـالْ تتقدّم وورا النسوانْ
تجري وبكره حَ تتندّم وتدورْ مسكينْ
عمـــال تبحترْ اموالـــكْ يا عبيطْ فِ بارات[٢]

. . .

في الهلسْ ليه تصرفْ مالك وعـــلى الستّات
فرحانْ ما لكْ وجمـالك هايصْ فِ بناتْ
سيبْ الامور دي من بالك وارجـــع للدّين

والزجـل المصري عادةً يتألف من مطلع تتبعه سلسلة من الادوار . وفي هذه الحالة يكون المطلع ثنائيّاً (اي مؤلفا من بيتين) والدور رُباعيّا (اربعة ابيات) البيت الاخير منها على رويّ المطلع (راجع الامثلة السابقة) . وقد يجيء الزجل كلّه سلسلة ثنائية الادوار كلُّ دور منها مستقلّ بقافية .

اما الزجل في لبنان فيطلق عموماً عـــلى الشعر العامي وقد يقال له ايضاً « المعـنّى » ويدخل فيه « المطلع » والفرادي والحدا والندب وتُطوى جميعها من

---

(١) ابو بثينه من كبار الزجالين في مصر وقد اصدر من ازجاله ثلاثة اجزاء – راجع الهلال ٣٩ – ٦١٩ .
(٢) محلات الشرب

حيث النظم على عدّة فنون[١]. والذي نود ذكره هنا من جهة المقابلة بين الزجلين المصري واللبناني ان هذا الاخير اكثر فنوناً . واشيع انواعه المطلع او المعنّى العاديّ وهو ان يبدأ الناظم قصيدته ببيتين يكون فيهما صدر البيت الاول وعجزه وعجز البيت الثاني على قافية واحدة فتكرر بعد كل بيتين . ومن خصائصه ايضا ان يكون صدر البيتين اللاحقين ردّة او تكريرا للشطر السابق في البيتين السابقين . ولنوضح ذلك بالمطلع التالي لرشيد نخله —

روحي الذي ما بالزمان ذ ّليتها عفتْها وما بينْ يديك رَميتها
ويا مليكي بعد ما ماتت عليك بكلمْتين لمّا انعطفت أحييتها
ويا مليكي بعد ما ماتت عليكْ بكلمتين احييتها ورجعت اليك
ويا ذابحي من غير اذى تسلمْ يديك لو طلتها قبّلتها وحيّيتها
لو طلتها قبلتها وجه وقفا عا عـدْ ما بقولْ آه من الجفا
ولما الرسول برسالتك طلّ ولفا[٢] الله المجيرْ عافشلةِ القضّيتها

ومن اقواله —

من فحطة البقلوبنا بغصّه بكي لا تقولْ هي شوباكْ ولاقول شوبكي
لمّا التقينا تلعثموا لساناتنا وصار الحكي بيناتنا من دون حكي
لمّا التقينا تلعثموا لساناتنا وصار الحكي بيناتنا بنهداتنا
ناخد ونعطي مبادله بآهاتنا وبالعيون نشرح هوانا ونشتكي

وهكذا الى آخر القول . ومثله من قطعة طويلة تفنن فيها ما شاء

ودّعْ وإرمي القلبْ بعدان ودّعوا وقلّي اصطفلْ قلبكْ رجع لموضعو
قرّبتْ من قلبي جفِل منّي ونفر وقلّي معكْ مابروح دَح برجع معو
قرّبت من قلبي جفل منّي ونفر وقلّي معك مش راح روح بالمختصر
وردّ يندهْ عالرّماه رميةْ حجر لكنْ حزين مسكينْ مين راح يسمعو

ولرشيد نخله من هذا الفن ما حمل معاصريه على مبايعته بامارة الزجل . يكفي ان نذكر له روايته محسن الهزّان التي يصف فيها البطولة العربية والحب

(١) راجع شرح هذه الفنون في مقدمة كتاب معني رشيد نخله لولده امين نخله .
(٢) لفا اي اقبل

العربي العالي وله مبتكرات فنية شرحها ولده امين في مقدمة ديوانه وهي مقدمة حريّة بالمطالعة .

ومن كبار الزجالين اللبنانيين اسعد الخوري الفغالي المعروف بشحرور الوادي وله ديوان كبير كثير الفنون . ومن اصحاب الدواوين المعروفة الدكتور فريد جبور – منصور شاهين الغريّب – الياس الفران – خليل ايوب الحتّي – خليل سمعان الفغالي – بطرس حنا ديب المعادي – جرجس بشاره – شديد غصن – سعد الجلخ – سهدان عواد . ومن الزجالين المجددين وليم صعب واقواله منتشرة معروفة[١] .

والبحث في الزجل اللبناني واسع متشعّب لا يتسع له هذا المقام[٢]

ويقابل الزجل المصري واللبناني في العراق انواع من الشعر العامي اهمّها ما يلي[٣]

الأبوذيّة - (اي ابو الاذيّة) وهي سلسلة من ادوار ثنائية الابيات-اشطرها الثلاثة الاولى تجري على قوافٍ متجانسة وينتهي الشطر الرابع بقافية (يّهْ) كقول احدهم –

الحسن خصّل جنابك وُنته مالك[٤] تظن نشوف شخصك ونته مالك[٥]
آنه ابحث بوصلك ونتهْ مالك[٦] تدوس بالجفـا ولكطع[٧] ليّه

وقول الآخر –

اظلّ ارعى نجوم الليل بسماي[٨] ولي ناظر يهلّل دمـع بسماي
الجّ[٩] بسمُه وعيبين يلج بسماي[١٠] اونّ[١١] عليه ليه مَي ونْ عَليّه

وعلى هذا النسق كل القصائد من هذا النوع مهما اختلفت مواضيعها

(١) راجع بعض زجله في مجلة المكشوف السنة ٦ الاعداد ٢٥٠ – ٢٥٦ – ٢٦٠ – ٢٦٢ – ٢٦٦

(٢) ليراجع الراغب في الاستزادة ما يلي – معنى رشيد نخله – مقال يوسف توفيق عواد في المشرق ٢٨ - ٥٠٦ – مخطوطه نيل المتمنى لعيسي اسكندر المعلوف .

(٣) نعتمد هنا كتاب الاغاني الشعبية لعبد الرازق الحسني مع تصرف قليل .

(٤) انتميلك (٥) ونتالك (٦) وانت مالك (٧) والقطع (٨) بالسماء

(٩) الهج (١٠) باسمي (١١) ائنّ

المَيمَوْ – وهو على نسق الابوذية الا ان قافية الشطر الرابع تكون على وزن (مَوْ) نحو –

إحنه(١) الغيوم امنل(٢) سما هليّه(٣) وحنه البدور البِسما هليّه(٤)
وحنّه الذي بضيوفنـا هليّه(٥) والغيرْ من شاف الضيوف تكدّر

والهويه – وتنهي الشطر الاخير بقافية بالهاء

وفي العراق الموّال والعتابا كما في لبنان ونظم البنات وغير ذلك . ومن المعروفين في العراق بالشعر العامي الشيخ محمد نصار – السيد باقر الهندي – الشيخ كاظم السبتي – السيد مرزه الحلي – الشيخ يعقوب النجفي – الشيخ حسين العبادي وسواهم(٦)

القصيد البدوي او الشروقي

ويعدّه البعض من نوع الزجل ، على انه عند التحقيق نوع آخر . فالزجل عموماً من باب التوشيح المتسلسل الادوار اما الشَروقي فعلى نمط القصيدة المتماثلة القوافي والعادة ان تكون صدوره على قافية واعجازه على اخرى . وتختلف اسماؤه باختلاف الاقاليم والقبائل ففي نجد مثلاً يغلب عليه اسم النبطي(٧) . وفي الحجاز الحميني . وفي شرقي الاردن وبادية الشام الشروقي .

ولمّا كان هذا النوع من الشعر العامي بدويّ الاصل والنزعة فان افضله ما يعكس لنا حياة البادية واحوال سكّانها . وكثيرا ما ينظمه الامراء والفرسان ومن ذلك انه لما عزم امير مكّة على تجهيز جيش من العرب لمساعدة الدولة العثمانية على السيد الادريسي في عسير ارسل قصيداً يستفزّ به قومه(٨)

---

(١) نحن (٢) التي من (٣) امطرنا (٤) طلمت (٥) تأهلنا
(٦) كتاب الاغاني الشعبية لعبد الرازق الحسني
(٧) راجع مقال احمد عبدالجبار في الاديب ٢ ـ ج ٢ (الشعر العامي في نجد)
(٨) راجعها في المنار ١٤ ـ ٣٨٧ وراجع ايضا قصيدة شاعر بني عقيل .

ومما ينسب الى تركي بن السعود قوله من قصيدة يتفجع لبعد ابن عمه «مشاري» يوم كان اسيراً في القاهرة[١] —

طار الكرى عن مقلتي النوم َفرّا   وفزّيتْ من نومي َطرا لي ْطواري
خـــطٍّ لقاني[٢] زاد قلبي َحرّا   من َمسّ ضيمْ البِنيْ والذراري
ِسر يا قلمْ واكتبْ على ما تورّى   باركى سلامي لابن عمّي مشـاري
شيخٍ على ُطرق المراجلْ مطرّا   من لابةٍ يوم المـلاقي ضواري[٣]

ومن هذا الباب قول بديوي الوقداني العُتيبي من قصيدة فخرية[٤]

ايّامنـا والليالي كم نعاتبْهـــا   شابتْ وشبنا وعفنا بعض الاحوالِ
ُتوعدْ مواعيدْ والعاقلْ يكذّبْها   والّلي عرفْ حدّها عن همّها سالي
لو اقبلتْ يومْ، ما تصفى مشارْبها   واليوم الاوّل تراهْ احسنْ من التالي
جرّبتْ الايّامْ ومثلي من يجرّبْها   تجريبْ عاقلْ وذقتْ المرّ والحالي
ايامْ في غلبها وايامْ نغلبْهـــا   وايامْ فيها سوا والدهرْ ميّالِ

وهكذا الى آخر القصيدة .

ويغلب نظم القصيد البدوي على الابحر المعروفة عند العَروضيّين بالبسيط والرجز فالسريع والرمل وقد يجيء على غير ذلك[٥] . واهم ما يدور عليه الغزل والمديح والفخر والحماسة والرثاء . فهو من هذا القبيل على غرار الشعر القديم .

وقـــد جمع المستشرق موسيل استاذ الدروس الشرقية في جامعة براغ عددا وافياً من اشعار قبيلة الروله[٦] . اما قبائـل شرقي الاردن فمن شعرائها

---

(١) الهلال ٢٥ — ١١٧ .

(٢) اي كتاب وردني .

(٣) مطرّا اي مدرّب . ولابة اي جماعة . يوم الملاقي اي يوم اللقاء في الحرب .

(٤) تجدها في الهلال ٢٥ — ١١٤ .

(٥) راجع لزيادة الايضاح مقدمة كتاب « معنى رشيد نخله » . ومقـالاً لابرهيم الحوراني في النشرة الاسبوعية (بيروت) عدد ٢١٢٧ .

(٦) راجع في كتابه Manners and Customs of the Rwala الفصلين– عادات الزواج 227 - 140 والشعر 329 - 283

المعروفين نمر العدوان وله قصّة مطبوعة[1]، وعلى القزيعي وابو الكباير، وسالم المرعي . ولبعضهم وقائع واخبار طريفة شبيهة باخبار المحبّين في العهد الاموي[2] .

وقد تجد لبعضهم من هذا الشعر دواوين خاصّة كديوان « ربابة الثورة » لعلي عبيد وهو سجّل للثورة السورية في جميع مراحلها . وهناك دواوين اخرى لعدد من قوّالي الوطن والمهجر

(تمّ الجزء الثاني)

(١) مطبعة الرشيدية كفرشيما .

(٢) راجع اخبارهم في كتاب خمسة اعوام في شرقي الاردن للارشمندريت بولس سلمان ٣٣ - ٦٦.

فهرس المراجع

للاطلاع على الاتجاهات الادبية العامة في العالم العربي الحديث كان لزاماً على المؤلف ان يراجع عددا وافراً من المجموعات الصحفية والشعرية وسائر المؤلفات الادبية . وقد راجع فعلًا اكثر من ثمانين مجموعة من شتى المجلات والجرائد (بعضها يقع في عشرات المجلدات) ونحو مئة وثلاثين ديوانا من الشعر ، ومئة وعشرين من كتب الادب والتاريخ ، فضلًا عن كثير من الرسائل الخاصة .

وسيثبت في هذا الفهرس معظم الكتب الادبية والتاريخية. اما المجلات والدواوين فانه سيكتفي منها بما ورد في الحواشي اذ لا جزيل فائدة من مجرد سرد اسمائها.

الكتب العربية
(حسب ترتيبها الهجائي)

حرف الالف

اسم الكتاب		اسم المؤلف او الناشر
الآداب العربية في القرن التاسع عشر	(بيروت ١٩١٠)	لويس شيخو
ابطال الوطنية	(مصر ١٩٢٩)	محيي الدين رضا
احسن ما كتبت	(مطبعة الهلال ١٩٣٤)	دار الهلال
ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث	(بيروت١٩٣٧)	بطرس البستاني
الادب التونسي في القرن الرابع عشر	(تونس ١٩٢٧)	زين العابدين السنوسي
ادب الحجاز	(مصر ١٩٢٦)	الصبّان
الادب الحديث		ابرهيم المصري
الادب المصري في العراق	(مصر ١٩٢٣)	روفائيل بطّي
ادب المرأة العراقية	(مصر ١٩٤٨)	بدوي احمد طبانه

اسم الكتاب		اسم المؤلف او الناشر
اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر	(بيروت١٩٢٦)	انيس النصولي
الاصول العربية لتاريخ سوريا	(بيروت ١٩٣٠-٣٣)	اسد رستم
اعلام العراق	(مصر ١٩٢٧)	بهجة الاثري
اعلام اللبنانيين في نهضة الاداب العربية	(حريصا ١٩٤٨)	
اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء	(حلب١٩٢٣-٢٦)	محمد الطباخ
الاغاني الشعبية	(بغداد ١٩٢٩)	عبدالرزاق الحسني
اكليل من غار	بيروت	جرجي باز
الله	مصر	عباس العقاد
الالياذه	مصر ١٩٠٤	سليمان البستاني
ام القرى	(مصر ١٣١٦ ﻫ)	عبدالرحمن الكواكبي
ايضاحات	(الاستانة ١٣٣٤ ﻫ)	احمد جمال

حرف الباء والتاء والثاء

بلاغة العرب في القرن العشرين	(مصر ١٩٢٤)	محي الدين رضا
بلاغة النساء في القرن العشرين	مصر	حسين حسنين
تأملات	مصر	احمد لطفي السيد
تاريخ آداب اللغة العربية	(مصر ١٩١١)	جرجي زيدان
تاريخ الحركة القومية	(مصر ١٩٢٧)	عبدالرحمن الرافعي
تاريخ الشعوب الاسلامية بيروت ١٩٤٨-١٩٥٠ بروكلمان (ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي)		
تاريخ الصحافة العربية	(بيروت ١٩١٣)	فيليب دي طرازي
تاريخ مصر في عهد اسماعيل	(القاهرة ١٩٢٣)	الياس الايوبي
التجاريب	(الاسكندريه١٩١٣)	ولي الدين يكن
تحرير المراة	(مصر ١٨٩٩)	قاسم امين
تراجم اعيان القرن الثالث عشر	(مصر ١٩٤٠)	احمد تيمور
تراجم مشاهير الشرق	مصر ١٩٢٢	جرجي زيدان
تربية المراة والحجاب	(مصر ١٣٢٣ ﻫ)	طلعت حرب

اسم الكتاب		اسم المؤلف او الناشر
تطور الاساليب النثرية	(بيروت طبعة اولى)	انيس المقدسي
تطوّر الصحافة المصرية	(مصر ١٩٤٥)	ابرهيم عبده
التيّارات السياسية في حوض المتوسط	(مصر ١٩٤٩)	محمد رفعت
ثورة العرب	(مصر ١٩١٦)	اسعد داغر
الثورة العربية الكبرى	(مصر ١٩٣٤)	امين سعيد

حرف الجيم والحاء والخاء

جبران	(بيروت ١٩٣٤)	مخايل نعيمه
حاضر العالم الاسلامي	(مصر ١٣٤٣ ﻫ)	ستودارد (ترجمة عجاج نويهض)
حافظ وشوقي	(مصر ١٩٣٣)	طه حسين
حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر	(مصر دار المعارف)	جاك تاجر
الحق اليقين	(بيروت ١٨٨٦)	ابرهيم الحوراني
حول المراة	(دمشق ١٩٤٧)	جمال الدين نجيب وشحاده الخوري
حياة مي	(مصر ١٩٤٢)	محمد عبدالغني حسن
خاطرات الافغاني	(بيروت ١٩٣١)	محمد المخزومي
خطط الشام	(دمشق ١٩٢٥—٢٨)	محمد كرد علي
خمسة اعوام في شرقي الاردن	(حريصا ١٩٢٩)	الارشمندريت بولس سليمان

حرف الدال والذال والراء والزاي

الدرر	الاسكندريه (مطبعة الآداب)	اديب اسحق
ذكرى فوزي معلوف	(زحله ١٩٣١)	عيسى المعلوف
رمل وزبد	(مصر ١٩٢٧)	جبران جبران
الروائع لشعراء الجيل	(مصر مطبعة الشبكشي)	محمد فهمي
رواد النهضة الحديثة	بيروت	مارون عبود
رياض الادب	(بيروت ١٨٩٧)	لويس شيخو

اسم الكتاب		اسم المؤلف او الناشر
الريحانيات	(بيروت ١٩٢٢)	امين الريحاني
الريحاني	(بيروت مطبعة صادر وريحاني)	البرت ريحاني
زاد المعاد	(مصر ١٩٣٦)	مخايل نعيمه

حرف السين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء

سرّ مملكة	(مصر ١٨٩٥)	سليم سركيس
السفور والحجاب	(بيروت ١٩٢٨)	نظيرة زين الدين
شعراء مصر في الجيل الماضي	(القاهرة ١٩٣٧)	عباس العقاد
الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	(مصر ١٩٤٨)	مصطفى السحرتي
الشعر النسائي العصري	(مصر ١٩٢٩)	محمد محمود
صوت الجيل	(مصر ١٩٣٤)	ابرهيم المصري
طبائع الاستبداد	مصر	عبدالرحمن الكواكبي

حرف العين والغين والفاء والقاف والكاف

العبرات	(مصر ١٩٢٢)	مصطفى المنفلوطي
عبرة وذكرى	(مصر ١٩٠٨)	سليمان البستاني
العراق في دوري الاحتلال والانتداب	(صيدا ١٩٣٥)	عبدالرزاق الحسني
العرب الاحياء	(بيروت ١٩٤٧)	نبيه فارس
على اطلال المذهب المادي	(مصر ١٩٢١)	فريد وجدي
على المنبر	(بيروت ١٩٣٨)	نقولا فياض
العواصف	(بيروت ١٩٥٠)	جبران جبران
الفتاة والشيوخ	(بيروت ١٩٢٩)	نظيره زين الدين
فرح انطون	ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣	
الفكر العربي الحديث	(بيروت ١٩٤٣)	رئيف خوري

اسم الكتاب		اسم المؤلف او الناشر
فهارس المكتبة العربية	(بيروت ١٩٤٧)	يوسف داغر
في الادب الجاهلي	(مصر ١٩٢٧)	طه حسين
في الادب العربي الحديث	(مصر ١٩٤٨)	عمر الدسوقي
فيض الخاطر	(القاهرة ١٩٣٨)	احمد امين
القصّة في الادب العربي الحديث	(مصر ١٩٥٢)	محمد نجم
قلب العراق	(بيروت ١٩٣٥)	امين الريحاني
قولي في المراة		مصطفى صبري
القصّة العربية	(١٩٣١)	الاعظمي
كتاب البعثة العلمية الى دار الخلافة	(بيروت ١٩١٦)	محمد الباقر
كتاب مصطفى كامل	(مصر ١٩٠٨)	
كنز الرغائب في منتخبات الجوائب	(الاستانة ١٢٨٨ هـ)	فارس الشدياق

حرف لام وميم ونون وهاء وواو وياء

مجالي الغرر	(بعبدا ١٩٠٤ و١٩٠٦)	يوسف صفير
مجموعة الرابطة القلمية	نيويورك	الرابطة القلمية
محاضرات الندوة اللبنانية	(بيروت ١٩٤٧)	ميشال الاسمر
مختارات في الحجاب والسفور		مصطفى عبدالجبار القاضي
مذاهب الادب العربي	(بغداد ١٩٤٣)	نجدة فتحي صفوة
المذكرات	(دمشق ١٩٤٨)	محمد كرد علي
المراة الجديدة	(مصر ١٩١١)	قاسم امين
المراة الجديدة في مركزها الاجتماعي	مصر (مطبعة السعادة)	محمد السباعي
المراة في التاريخ والشرائع	(بيروت ١٩٢١)	جميل بيهم
المراة في التمدن الحديث	بيروت	« «
المراة المسلمة	(مصر ١٩١٢)	فريد وجدي

اسم الكتاب		اسم المؤلف او الناشر
المراحل	(بيروت ١٩٣٣)	مخايل نعيمه
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان	(مصر ١٩٠٨)	مخايل مشاقه
المعلوم والمجهول	(مصر١٩٠٩–١١)	ولي الدين يكن
معنّى رشيد نخله	(بيروت ١٩٤٥)	امين نخله
من حديث الشعر والنثر	(القاهرة ١٩٣٦)	طه حسين
منتخبات الحداد	(الاسكندريه١٩٠٣)	
المهرجان الالفي للمعري	(دمشق ١٩٤٥)	المجمع العلمي العربي
مي زياده	(مصر ١٩٤٢)	محمد عبدالغني حسن
نثار الافكار	(نيويورك ١٩١٣)	مطبعة الهدى
النظرات	(مصر١٩٢٥–٢٦)	مصطفى المنفلوطي
الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب	(دمشق ١٩٣٧)	جريدة الايام
وحي الرسالة	(مصر ١٩٤٠)	احمد الزيات
وحي الصحراء	(القاهرة ١٣٥٥ ﻫ)	ابن المقصود وبلخير

كتب بلغات اجنبية

1. Antonius, George - **The Arab Awakening,** *London, Hamilton, 1939*
2. Arberry, Arthur J. - **Modern Arabic Poetry,** *London, 1950*
3. Barbour, Nevill - **The Arab Literary Renaissance,** *Jerusalem, T. S. C.*
4. Douin, - **Mission du Bois le Comte,** *Le Caire, 1927*
5. Gibb, H. A. R. - **Modern Trends in Islam,** *Chicago, Illinois, 1947*
6. Gibb, H. A. R. - **Studies in Contemporary Arabic Literature,** *1928-29, School of Oriental Studies, London Institute*
7. Hartmann, - **The Arabic Press of Egypt,** *London 1899.*
8. Hitti, Philip - **History of the Arabs,** *London, Macmillan 1937, 2nd. ed. rev. 1940*
9. Institute of Arab American Affairs : **Arabic-speaking Americans,** *New York, 1946*
10. Jessup, Henry - **Fifty three years in Syria,** *New york, Revell, 1910*
11. Khemiri and Kempfmeyer - **Leaders in Contemporary Arabic Literature,** *Leipzig, Harrassowitz, 1930*
12. Lahoud, Rashid - **La Littérature Libanaise de la Langue Française,** *Beirut*
13. Lecerf, Jean - **Litterature Dialectale et Renaissance Arab Moderne,** *Damas, Institut Français de Damas.*
14. Mélanges de l'Université Saint-Joseph
15. Musil, Alois - **The Manners and Customs of the Rwala Bedouins,** *Geographical Society, 1928, New york*
16. Nickolson, R. A. - **A Literary History of the Arabs,** *Cambridge University Press, 1930*
17. Reinaud, Joseph T. - **De l'état de la littérature chez les populations Chrétiennes Arabes de la Syrie,** *Journal Asiatique, Juin, 1857.*
18. Rustum, Asad - **The Royal Archives of Egypt, and the disturbances in Palestine 1834,** *Beirut, American Press, 1938.*
19. Rustum, Asad - **The Royal archives of Egypt, and the Origins of the Egyptian expedition to Syria,** *1831-1841, Beirut, Am. Press, 1936*
20. Saarisalo, Capeli - **Songs of the Druzes,** *Helsinki, 1932*
21. Thomas, Bertram - **The Arabs.** *Garden City, Doubleday, 1937*
22. Young, **Near Eastern Culture and Society,** *Princeton University, 1947.*

فهرس الاعلام

ز

س

ش

ص

غ

ك

ل

ن

ه

تصويبات

في الجزء الاول

صفحة	سطر	الخطأ	صوابه
١٥	الحاشية	منتخبات الجواب	منتخبات الجوائب
٢٦	٢٣	عجيب لقوم	عجبت لقوم
٤٢	الحاشية	الشوقيات ١٢٦	الشوقيات ١٣٦
٨٢	٩	الطبع مائس	سائس
٨٧	٧	الشمس والقمر	للقمر
٨٩	العنوان	واثرها العربي	واثرها الادبي
٩٧	٢٣	يلثم عرضهم	يثلم
٩٩	٤	بالغة المدى	يا لغةَ
١٢٥	٢٤	سياسة الارهاق	الارهاب
١٤١	٥	ينحي بالائمة	باللائمة
١٤١	الحاشية	عبد المحسن الفاطمي	الكاظمي

في الجزء الثاني

صفحة	سطر	الخطأ	صوابه
١٠	١٥	نسمع الدُجيلي	احمد الصافي
٥٦	٢٠	كالبنات	كالنّبات
٦٤	٣	لاتزال	بل هي تزال
١٠٣	١٦	بدوي الجفل	بدوي الجبل
١٠٣	الحاشية ٢	المكشوف ٤١	المكشوف ٤
١٢٣	الحاشية ٣	آب	١ آب
١٢٧	١٣	الومق	الوامق
١٨١	٢٠	٥١ دمعة	انا دمعة
١٩٥	٩	اسقينيها	اسقنيها

في فهرس الاعلام

سقط سهواً من باب الالف الاسماء التالية :

الاحدب (ابراهيم) ج١ ٢ وج٢ ١٦٢ والاخشيدية ج٢ ٥ والاسمر (محمد) ج٢ ١٢٤ وايوّب رشيد ج١ ١٠١-١١٤ ج٢ ٧٠-١١٣-١٣٣-١٨٢

من مؤلّفات صاحب الكتاب

تطور الاساليب النثرية - يتناول، في ٤٥٠ صفحة كبيرة، النثر العربي وخصائصه الفنّية منذ بزوغ الاسلام الى الوقت الحاضر

امراء الشعر في العصر العبّاسي - وهو دراسات تحليلية لادب ثمانية من اشهر شعراء العرب والجوّ الذي نشأوا فيه. ويقع في اكثر من ٤٠٠ صفحة كبيرة

المختارات السائرة - وهي مجموعة من روائع الشعر والنثر مما ذاع في الاقطار لسموّ معانيه وجمال مبانيه وقد رُتّب بحسب المواضيع وصُدرت بدراسات في الفنون الادبيّة وخصائصها الرئيسيّة

الدول العربية وآدابها - وهو موجز في تاريخ الادب العربي يتناول الدول العربيّة ومانشأ فيها من الآداب منذاقدم العصورالى الوقت الحاضر

وهناك مؤلفات اخرى تطلب من صاحبها او من المطبعة الامركانية في بيروت او دار العلم للملايين وسائر دور الكتب العامة

LITERARY TRENDS

in the

MODERN ARAB WORLD

A STUDY of the POLITICAL, SOCIAL and
INTELLECTUAL BACKGROUND of ARABIC
LITERATURE in the FIRST HALF
of the TWENTIETH CENTURY

by

ANIS KHURI MAKDISI

PROFESSOR-EMERITUS of ARABIC LITERATURE
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

BEIRUT, LEBANON

1952